



مغامرة في جزيرة العرب

عبر صحراء النفود، بحثاً عن الوضيحي

تأليف: دو غلاس كاروثرز
ترجمة وتعليق: د. أحمد إيبش



مكتبة
مؤمن قريش

مؤسسة مؤمن قريش للدراسات والبحوث
الطبعة الأولى: ٢٠١٤
الطبعة الثانية: ٢٠١٥

روّاد المشرق العربي

مغامرة في جزيرة العرب

عبر صحراء النفود

بحثاً عن الوضيحي (ظبي المَها) عام 1909م

للرحالة البريطاني

دوغلاس كاروثرز



ترجمة وتعليق

د. أحمد إيش

© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS207 .C312 2012

Carruthers , Douglas , 1882-1962

[Arabian adventure]

مغامرة في جزيرة العرب : عبر صحراء النفوذ بحثاً عن الوضيحي (ظبي المها) عام 1909م / دوغلاس كاروثرز؛ ترجمة وتعليق: أحمد
إيش. ط. 1. - أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية، 2012.

ص. 5 سم. - (رواد المشرق العربي)

ترجمة كتاب : Arabian adventure

تدمك : 978-9948-17-065-5

1. شبه الجزيرة العربية -- وصف ورحلات. 2. المها العربي
أ. إيش، أحمد. ب. العنوان. ج. السلسلة.



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إصدارات
esdarat
دار الكتب الوطنية

© حقوق الطبع محفوظة
دار الكتب الوطنية
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
«المجمع الثقافي»

© National Library
Abu Dhabi Tourism &
Culture Authority
"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى 1433 هـ - 2012 م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي
هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - المجمع الثقافي

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص. ب: 2380

publication@adach.ae
www.adach.ae

مغامرة في جزيرة العرب

سلسلة رؤاد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة» للمكتبة العربيّة بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، كتاباً جديداً من السلسلة الثقافيّة التّراثيّة: «رؤاد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويّتهم الوطنيّة، وذلك من خلال الحرص على جمع كافّة المصادر المتعلّقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلميّة بنشر التّراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلميّة ومؤسّساتنا الثقافيّة على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التّراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثيّة عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربيّة في مجالات شتّى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشّعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطبّ وهندسة ورياضيّات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرّحلات.

وما دُمنّا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوكّد على أنّ ثمة تيّاراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتمّمه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقفّي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة أناباسيس لزِينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيلْيوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصّليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السّادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتّجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشّائقة الشّيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاھلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للسياحة والثّقافة» اليوم بنشر نص جديد منه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للسياحة والثّقافة

هذا الكتاب

بين أيدينا اليوم كتابٌ ممتع وشائق وقيم، يروي وقائع رحلة استكشافية جريئة بأكناف صحراء النفود في شمالي جزيرة العرب، لمغامر بريطاني لم يسمع به أكثر مثقفينا وباحثينا، هو دوغلاس كاروثرز، وذلك لعدم نقل نصّ كتاب رحلته إلى العربيّة منذ نُشر قبل 77 عاماً (1935)، وطبعاً لندرة كتابه وشبه استحالة الحصول على نسخة منه. وقد طال بحثي عنه طوال سنوات طويلة إلى أن ظفرتُ أخيراً بنسخة نادرة من أميركا⁽¹⁾ أعترّ جداً بامتلاكها.

ولد ألكساندر دوغلاس ميتشل كاروثرز Alexander Douglas Mitchell Carruthers في لندن عام 1882، وهو رحّالة ومستكشف وباحث طبيعة بريطاني، كان ابن القسيس وليّم ميتشل كاروثرز كاهن هولبروك، واشتهر برحلاته الاستكشافية في الشرق الأوسط في مطلع القرن العشرين.

عندما كان في سن 23، شارك دوغلاس (وهو الاسم الذي عُرف به أكثر من سواه) بحملة نظّمها المتحف البريطاني إلى روينزوري Ruwenzori في الكونغو 1905-1906 وجلب معه نماذج من الطيور والثدييات. ثم اشترك فيما بعد مع جون ميلر John H. Miller ومورغان فيليبس پرايس Morgan Philips Price في بعثة عبر صحراء منغوليا القصوى، ونشر عنها كتاباً بعنوان: *Unknown Mongolia* «منغوليا المجهولة» في عام 1913. وخلال الحرب العالمية الأولى تم تجنيده في مكتب

(1) دائماً أكتب اسم أميركا هكذا في سلسلة «رواد المشرق العربي»، وليس كالشائع: أمريكا، وهو أدق في لفظ: America المشتق من اسم المستكشف الإيطالي الفلورنسي أميرغو فيسبوتشي Amerigo Vespucci ومعنى اسمه: «مُحبّ الملك».

الحرب ليقوم بتجميع الخرائط حول الشرق الأوسط، ثم تركّز عمله لاحقاً على رسم الخرائط والعمل إلى جانب المستكشفين والرّحالة.

في عام 1910 حصل دوغلاس كاروثرز على جائزة جيل Gill التذكاريّة، وفي عام 1912 على الميداليّة الذهبيّة للجمعية الجغرافيّة الملكيّة، وقد خدم في هذه الجمعية كأمين سرّ شرف ما بين أعوام 1916-1921 وعُيّن زميلاً فيها ما بين 1909-1962. وفي عام 1956 نال ميداليّة سايكس Sykes من جمعية آسيا الوسطى الملكيّة.

ألّف كاروثرز عدّة كتب (نذكرها أدناه)، وجمع عدداً كبيراً من النّماذج الطبيعيّة، ما زال بعضها إلى اليوم الوحيد من نوعه في المتحف البريطاني، وبعضها يحمل اسمه: "nnn Carruthersi". ولدى وفاته آلت أوراقه وكتاباتة كلها إلى الجمعية الجغرافيّة الملكيّة بلندن.

* * *

بقي أن أشير إلى أن أسرة كاروثرز تنتمي إلى مكان يسمّى بهذا الاسم Carruthers (ويُلفظ: كارثرز) في مقاطعة دَمفريشر Dumfriesshire والاسم مشتق من العبارة البريتونيّة: Caer التي تعني الحصن، واسم العلم Rhyther أو Rydderch الذي يُعتقد أنه يعود إلى الملك Roderic. ومحليّاً يسمّى الموضع بلفظ: Cridders «كريدرز» لكنني أثرت كتابة الاسم: كاروثرز بدلاً من كارثرز لتسهيل نطقه بالعربيّة.

* * *

وختاماً، نترك القارئ الكريم مع نصّ هذه المغامرة الشائقة في مفاوز صحراء النّفود بحثاً عن «أسطورة المّها» التي حيّرت الباحثين وعلماء الطبيعيات ردحاً طويلاً من الزمن، حتى حلّ مغاليقها دوغلاس كاروثرز في رحلته من دمشق إلى النّفود عام 1909، ونرى كيف أنّ هذا الرّحالة الرّائد قد جمع ما بين العزيمة والإصرار على مواجهة المخاطر والصّعاب، والتمكّن من أدوات البحث العلمي على أصولها.

يذكر الرّحالة أوين لاتيّمور Owen Lattimore الذي تتلمذ على يديه في استكشاف

مجاهل آسيا الوسطى: «لم يكن دوغلاس كاروثرز قطّ باحثاً عن الشهرة، بل كانت الحقيقة مبتغاه، ولا ريب أنه كان بعيداً عن تحصيل الثناء مفضلاً عنه حبّ المعرفة. لقد كان باحثاً أصيلاً عن الحقيقة ولا يعنيه الادّعاء والتفاخر».

وأخيراً، يذكرنا هذا البحث عن ظباء المّها بقول شاعرنا الكبير عليّ بن الجهم عندما مرّت به عادة بغداديّة حسناء ورمقته بعينها الجميلتين:

عِوُنُ المّها بين الرّصافة والجسرِ	جَلِبْنَ الهوى من حيثُ أدري ولا أدري
أَعْدَنَ لي الشّوق القديم ولم أكن	سَلَوْتُ ولكن زِدَنَ جَمراً على جَمَرِ

والحمد لله على ما وفق وأعان.

جيبيل، 3 فبراير 2011

د. أحمد إيبش

مؤلفات دوغلاس کاروثرز

“Unknown Mongolia : a record of travel and exploration in north-west Mongolia and Dzungaria” with three chapters on sport by J. H. Miller, and a foreword by Earl Curzon of Kedleston - London: Hutchinson, 1914.

“The desert route to India: being the journals of four travellers by the Great Desert Caravan Route between Aleppo and Basra, 1745-1751.”, 1929.

“Notes on the Maps Illustrating the Exploration in Mongolia and Dzungaria” 1913.

“Notes on the Journey to the Arpa and Ak-Sai Plateaus in Russian Turkestan-&-Neve, Arthur the Ranges of the Karakoram”, 1910.

“A Journey in North-Western Arabia”, 1910.

“Arabian Adventure, to the Great Nafud in Quest of the Oryx”, H.F. & G. Witherby Ltd., London, 1935

“Further Information on the Turgun Or Kundelun Mountains in North-Western Mongolia, and Notes on a New Map of This Region,” [From] the Geographical Journal. Vol. XLIV (1914).

“Reminiscences of Gertrude Bell”, Journal of the Royal Central Asian Society, Volume 45 Issue 1 1958.

“Beyond The Caspian.” 1949.

Ibis vol. XVI.— “On some Birds collected by Mr. Douglas Carruthers in the Syrian Desert”, P. L. Sclater D.Sc., F.R.S., British Ornithologists Union, 1906.

* * *



دو غلاس کاروئرز

نقاط حول الترجمة

عند ترجمة الحروف والاسماء الأجنبية، يواجه القارئ العربي دوماً خلاً كبيراً لم يتمكن مجامعنا اللغوية من حسمه إلى اليوم. لكن بما أن هذا الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض، أقصر هنا على ذكر ثلاث نقاط:

1 - بخصوص حرف الجرّ الفرنسي de أو du لا أتبع أبداً طريقة مثقفينا بلبنان بتعريبه: دو، ولا طريقة مثقفينا بمصر بتعريبه: دي. إنما الأفضل برأيي اتباع طريقة اللغة التركيّة العثمانيّة القديمة: (دى) بالمطلق. هذا في الاسماء الفرنسيّة، أمّا في الاسماء الإيطاليّة والإسبانيّة فأتركه: دي.

2 - الحرف (چ) يُلفظ: تش، كما في اسم: چركس، لاجين، سلچوق. وهو ليس بحرف عربي، ويمثله في الإنكليزيّة ch كقولك: chuck, church. وأيضاً ch في الإسبانيّة كقولك: leche, mucho, chica. وكذلك يمثله في الإيطاليّة حرف c المتبوع بحرفي العلة e أو i كقولك: ciao, Cesare. ويمثله في التركيّة حرف ç كقولك: çay, çok, çınar. لكن مع أنني أكتب بعض الاسماء الإنكليزيّة: چستر، چفرون، بحرف (چ) فثمّة أسماء تستعصي لشهرتها بصيغة (تش)، مثلاً: تشارلز، تشرشل، تشيلي. وحرف (چ) ما زال يستخدم في العراق، كقولك: أحبّج، شلونج، پاچه. لكنه يُستخدم في مصر بشكل مغلوط جداً (فيكتبون: چورچ) لترجمة الجيم المُعطشة المرققة، التي يُعبّر عنها في التركيّة العثمانيّة والفارسيّة والأورديّة بحرف: ژ، ويمثلها في الفرنسيّة والبرتغاليّة z والإنكليزيّة zh والرّوسيّة ж والبولونيّة z.

3 - أمّا عقدة الترجمة الكبرى فهي حرف G الذي أعجز مجامعنا اللغوية، فاسم

Google يُكتب بمصر: جوجل، وفي الشّام: غوغل، وفي العراق: گوگل، وفي السّعودية: قوغل، وفي المغرب بكاف موسومة بثلاث نقاط، وفي تونس: فوغل، وفي فلسطين: چوجل، إذ يعرّبون لوحات الطّرق: چلعداد، چدعون، چدّول، رامات چان (علماً أنّ ڭ هي ذاتها جنة بالعربيّة أي حديقة). المجموع: 7 طرق لكتابة الحرف G! ومنذ مدّة قرأتُ على شبكة الإنترنت نزاعاً طريفاً حول كتابة اسم Lady Gaga: أهـي ليدي غاغا أم جاجا أم قاقا؟

هذا الحرف تصنّفه اللسانيّات العربيّة باسم (الجيم اللهويّة) تميّزاً له عن (الجيم الشّجرية) المُشبعة، ويقع لفظياً بين الجيم والكاف والقاف. وعلى الرّغم من أنّ أصله في لهجات العربيّة القديمة جيم (وبقي بلفظه في اليَمَن ومصر) فأرى الأجدى والأدق في الوقت الحاضر اتّباع أسلوب أجدادنا العرب في الأندلس بترجمته غيناً، كما عرّبوا مثلاً: غرناطة، البرتغال، بُرغش، أراغون. لكن على أن نسمّه بثلاث نقاط: (غ) تميّزاً له عن الغين العربيّة.

لكن مع ذلك، علينا أن نبتدع لهذه الأزمة حرفاً جديداً لا يلتبس: جيم موسومة برمز مميّز: ولتكن جيماً كنعانيّة أو بقلم المُسند العربي الجنوبي، تحتها أو فوقها على طريقة حروف لغة الأردو. لكن متى ترانا نفعل؟! الواقع أنّ الفرنسيين كانوا أكثر حذقاً منا عندما حلّوا مشكلة لفظ حرف G بين جيم شجرية وجيم لهويّة، بأن أضافوا إليه ببساطة حرف u كقولهم: guérir (غيرير) أو كما في اسم: Guillaume (غَيّوم). وكذلك حلّ الطليان المشكلة بإضافة حرف h كقولهم: Ghisi (غيزي). وهذا طبعاً في الاسماء التي يتبع الحرف G بها حرفا العلة e أو i، أما عندما يتبعه حرف ساكن أو حرفا العلة a أو o فلا مشكلة، ويُلفظ جيماً لهويّة. والأمر ذاته مع حرف C في الإيطاليّة فأضافوا إليه h حتى لا يُلفظ (تش)، كقولهم: chiaro (كيارو)، Chievo (كِيِفُو).

وأما الأتراك، فأيضاً حلّوا الأزمة بشكل حاسم قديماً وحديثاً: فبالعثمانيّة القديمة تُكتب الجيم الشّجرية كالعربيّة ج، وأمّا اللهويّة فاستعاروها من الفارسيّة گ. وفي التركيّة الحديثة بالأبجديّة اللاتينيّة جاء الحل بشكل سهل وذكي، فخصصوا حرف

g للجيم اللهويّة، كقولهم: gerçek (غِرْچَك)، وحرف c للجيم الشجرية، كقولهم: geceler (عِجَلار)، Avcı (أوجى)، Cem (جم).

أمّا الألمان فقد ارتاحوا من عناء هذه المشكلة، إذ ليس لديهم جيم شجرية أصلاً بل لهويّة فحسب، كما في: Gewehr (غيفير)، وإن أرادوا رسم الاسماء الأجنبية لقوا في ذلك التباريح، كقولهم في نقل عبارة «جبل» العربية: Dschebel حيث أن حرف J (يوت) هنا لن يفيد، فهو يُلفظ ياءً بالمُطلق. وأمّا لدى الإسبان، فحرف G له أحكام واسعة يطول شرحها، فالأصل في القشتالية أن يُلفظ جيماً لهوية (غ)، وفي حالات معيّنة يلفظ خاءً، ومن الناحية الصوتية اللفظية ثمة مناطق تلفظه غيناً لهويّة، وسمعتُ بأذني في غرناطة من يلفظ اسم Aragon هكذا: «آراغون»، وليس آراغون.

* * *

أما التعبير في العربية عن حرف الجيم اللهوي بكتابه جيماً (كما في مصر) أو بقاف (كما في السعودية) فيمكن حسم بطلانه بلحظة واحدة: احتكموا إلى لغة القرآن الكريم، ففيها الجيم حرف شجري مُشبع لا يحتمل تأويلاً ولا تفسيراً، والقاف حرف لهوي مُشبع، وكلاهما من حروف القلقة. وبالطبع حتى في مصر لا يمكن لأحد أن يكتب: جرناطة، البرتجال، بلجاريّا، مجنطيس.. أم هل نسّمى البُرغل مثلاً: بُرْجُل؟ (وهي كلمة معرّبة عن التركية bulgur).

وللبحث صلة..

* * *

ARABIAN
ADVENTURE
TO THE GREAT NAFUD
IN QUEST OF THE ORYX

By
DOUGLAS CARRUTHERS

THIRTY-THREE PLATES AND TWO MAPS

LONDON
H. F. & G. WITHERBY, L^{TD}
326 High Holborn
1935

نموذج عنوان الطبعة الأصلية، لندن 1935



المؤلف الرحالة «الشراري» كما لقب نفسه

تمهيد

حاولتُ من خلال الصّفحات التالية تأكيد قول داوتي Doughty المأثور: «من نافل القول إنّ قفار شبه جزيرة العرب غنيّةٌ في تنوّعها»، وفضلاً عن ذلك أردتُ البرهنة على أن رحلةً في صحراء شبه الجزيرة تُعادل من حيث إثارتها أيّة رحلة أخرى، ومن وراء ذلك هدفت إلى تبيان كيف أنّ من شأن الهوى أن يدفع بصاحبه للبدء برحلة لا حدّ لها من الاكتشافات، وأن الكنز لا يقارن بالصّيد.

من خلال بحثي عن المّهارة في موطني وفي الخارج، عليّ الاعتراف بفضل مساعدة العديد من الأصدقاء، ولكنني مدين على الأخص للورد بلهافن Lord Belhaven والسّير پرسّي كوكس Sir Percy Cox اللذين دفعاني للكتابة ونقّحا الكتاب قبل طباعته وأدليا بالعديد من المقترحات القيّمة. كما أنني مدين أيضاً بالشكر إلى السّير وليام فوستر Sir William Foster المرجع الذي لا يمكن لكل من يبحث في المناطق التي تربط بين أوروبا وآسيا اليوم أو لاحقاً تجاهله، وأنا ممتنّ للسيد فيلبي H. St. J. B. Philby الذي قدّم لنا الكثير من المساعدة لحل بعض مشاكل الحياة البريّة في جزيرة العرب، وإلى السّيد نورمان كينيار N. B. Kinneer من المتحف البريطاني (التاريخ الطّبيعي) الذي كان عليّ الاعتماد كثيراً على خبرته. كما أتقدم بالشكر الجزيل للكولونيل تي إي لورنس Col. T. E. Lawrence على تعاونه لسنوات طويلة في محاولة منه للإجابة على مختلف ألغاز الطّبيعة والجغرافيا، وذلك من أجل تمكيننا من تطوير خرائط ديرة الشّارات التي كانت غير وافية.

هذه القفار التي وصفها بأنها «الصّحراء الحقيقية»، كنتُ قد شهدتُ أنا وإيّاها وحدنا

أشَقَّ ما فيها: قفار فجر Fajr والبَسِيطاء⁽¹⁾ Bisaita، لذا قدّم لي ذلك الجزء المسمّى «نص أو كسفورد» الذي تَمَّت طباعته عام 1922، والذي شكّل سفر التكوين المتكامل الذي نجم عنه كتابه «أعمدة الحكمة السبعة». أرسله لي مع ملاحظة تقول: «أنا أدرك الكلمة الرّهية عن الجغرافيين في منتصفه!». وإنني أغفر له ذلك، لاحتواء هذه الفصول التسعة على تأكيد هو غارث Hogarth في «قصة العمل البطولي لاجتياز لورنس لبلد العدو مع عودة أبو تايه لرفع معنويات رجال قبيلة الحويطات في وادي السرحان».

كما إنني مدين باستخدام عدة صور، ليست من تصويري، للسيد دبليو شيكسبير W. Shakespear الذي سمح لي بإعادة نسخ صورتين تم تصويرهما من قبل ابنه الرّاحل الكابتن (النقيب) W. H. I شيكسبير، وقد استخدمتهما لدى كتابة شرح عن رحلته عبر جزيرة العرب معتمداً على مذكراته المحفوظة. أما سبب استخدامي لعدة صور فريدة للحياة البدوية كان قد التقطها السيد كارل رضوان⁽²⁾ C. Raswan، فلأنها تعطي بدقة توضيحاً فعلياً للكلمات المكتوبة في النص الذي قدّمته. لقد عبّر السيد رضوان وبنجاح عن رومانسية قبائل البدو الرّحل بوساطة آلة التصوير، كما نجح داوتي Doughty في ذلك بقلمه من قبل.

وثمة صورتان لجبل طَبِيق أعدت نسخهما بإذن من أمين شؤون القوى الجوية الملكية البريطانية، وبالتالي سددت فجوة فادحة في سلسلة الصّور الخاصّة بي، موضحاً منطقة ذات أهمية خاصة. أما الصّورة الوحيدة للمّهارة العربيّة البريّة في الصّحراء الجنوبيّة الشّاسعة فأنا مدين بها لصديقي الكولونيل بوسكاون M. T. Boscawen، وصورة أخرى نادرة للنّعام

(1) يُكتب الاسم في خرائط شمالي المملكة العربيّة السّعوديّة: البَسِيطاء، وهكذا سأكتبه في الكتاب، لكنني أشير إلى أنّ المنطوق العامّي لأبناء المنطقة هو: «البَسِيطا» ولا تُلفظ الهمزة الأخيرة.

(2) هو الرّحالة ومربّي الخيل الألماني كارل راينهارد Carl Reinhard (1893-1966) قام في عام 1911 برحلة إلى الشرق تعرّف بها إلى بعض شيوخ قبيلة ولد علي ثم إلى الشيخ الشاب فوّاز الشعلان حفيد شيخ الرّولة النّوري الشعلان، وأغرم راينهارد بالخيّل العربيّة وبحياة البداوة، حتى أنه كَتَبَ نفسه باسم: كارل رضوان، وألّف عدة كتب عن رحلاته وعن الخيل، سنشرها تباعاً في سلسلة «رؤاد المشرق العربي».

العربي أدين بها للميجور (الرائد) آر. إي. تشيزمان R. E. Cheesman.

ويبدو أنني قد تأخرت بالاعتراف بالمساعدة التي تلقيتها من وقت طويل، لكن إذا ما قرأ السيد ج. ب. ديفي G. P. Devey الذي كان يشغل منصب القنصل البريطاني في دمشق آنذاك هذا العرفان بالجميل فلسوف يعرف بأنني لم أنسَ التعاطف الذي أبداه لمشروعي، ولم أنسَ الدبلوماسية التي سمحت لي بالهروب من عنايته! كما أنها ستعود بذاكرته إلى مطاردات الصيد العديدة على ظهر الحصان التي استمتعنا بها معاً قريباً من دمشق.

كما أن الاعتراف بالمساعدة الشخصية التي تلقيتها من عدة أشخاص آخرين قد فات أوانها، فعلى سبيل المثال، هناك شخصية بطولية هي الدكتور فرانك ماكينون⁽¹⁾ Frank Mackinnon، من مستشفى فيكتوريا بدمشق، وهو شخصية لامعة في سوريا في تلك الأثناء، وصل تأثيرها بعيداً إلى قلب جزيرة العرب. كما كان هناك أيضاً البروفسور داي A. E. Day، من الكلية الأميركية في بيروت، الذي قمت بهذه الرحلة الموصوفة هنا فعلاً بالنيابة عنه.

وأنا مدينٌ للدكتور دافيد جورج هوغارث⁽²⁾ D. G. Hogarth كما هو حال جميع الرّحّالين في جزيرة العرب الذين يدينون له جميعاً. والحق أن فضله لا يُنسى، فقد قام وبأمانة بتسجيل الأعمال التي قام بها جميع من وصل بالفعل إلى جزيرة العرب، لقد كان فيلسوفاً وصديقاً في حياته، لمن ألقى عليهم صحراء شبه جزيرة العرب تعويذتها القاتلة، وما برح اسمه كذلك مصدر إلهام لمن تبعه من الناس.

لندن، مايو 1935

(1) واسمه الكامل: Frank Irving Mackinnon وهو كندي الجنسية، يرد اسمه في كتاب رحلات ومغامرات الكونتيسة مالمينياتي: «رحلة إلى المدينة المنورة عبر صحارى البرّ الداخلي» إيان إقامتها بدمشق عام 1914، إنما بصيغة مغلوطة: الدكتور مكينا Dr. McKenna والكتاب قيد النشر في سلسلة «رواد المشرق العربي».

(2) كان كتابه الثمين *Penetration of Arabia* أول كتاب أترجمه لسلسلة «رواد المشرق العربي»، وصدر قبل ثلاثة أعوام بعنوان: «ارتياح جزيرة العرب».

ملحوظة

منذ بدأتُ بالذهاب إلى المطبعة، فإن مأساة وفاة توماس إدوارد لورنس T. E. Lawrence تلزمني بأن أبيت أن اقتباسي لكتابه ورسائله قد تمت بموافقة من المنفذين لوصيته.

* * *

«وقفتُ مرةً أخرى تحت السّماء الصّافية، في هواءٍ طلق كالأثير يكاد أن يشعل
أرواح الرّجال فتفور كالنّيبذ. رأيتُ مرّةً أخرى نجمة المساء مدلّاة كمصباح ذهبي
من قبة السّماء الغربية، والشّفق يفيض سحراً على ملامح المشهد فيحوّله من اللون
البنّي الأصفر إلى أرض مضاءة بسحر الجمال، يكاد سنا بريقه لا يشعّ على غيرها من
أراض أو بحار. ثم تلوح خيام البدو الصّوفية الطويلة السّوداء والمنخفضة، مجرد نقاط
في فضاءات لا حدود لها، ونار المخيم كيُسروع يضيء وسط القرية. يزيد من روعة
المنظر تلك الأغاني البرية الغربية التي تتناهى من بعيد بأصوات الفتيان والفتيات وهم
يسوقون قطعان أغنامهم وماعزهم ويهشّون عليها عبر الغسق، وصوت غناء حادي
الإبل المتبع لجماله، مختلطاً بثغاء الأغنام وخوار الجمال ذوات الأسنام، بينما تطير
الخفافيش فوق الرّؤوس بصرخاتها الحادة وعواء بن آوى يمزّق الظلام، فيما تتمثّل
روعة اللحن الموسيقي بمقطوعة من حفيف أشجار النّخيل المتحاورّة مع همسات
نسيم الليل على الطّف وقع للمياه المتساقطة».

السّير ريتشارد بُرتون

الافتتاحية

قد تبدو حياة أحد هواة جمع الطيور النادرة والحيوانات الغريبة في الأراضي النائية مثيرة جداً للاهتمام، غير أن ذلك ليس بالعمل السهل أو اللطيف. فعالم الطبيعة يعيش حياة كفاف، يكاد دخله لا يسدّ رمقه خلال فترة عمله، ولا يستغني إلا في وقت لاحق، عندما يصبح لديه متسعٌ من الوقت لاسترجاع شريط ذكرياته الطويل الذي يمثل إرثه من السفر. وما يعتبره الآخرون لعنة، يراه هو متعة الحياة.

أن تصبح مكتشفاً لصنف جديد هو حدثٌ عارض على المتعة المستمدة من العيش في أراضٍ ربما كانت في فترة من الفترات مسرحاً لأحداث عظيمة كان قد رسمها التاريخ، أو بالنسبة للفضول الذي يثيره التعرف إلى قبائل تكاد تماثل في بُعدها عن الحضارة بُعد رجال الكهوف عنها. فقضاء ربيع في تدمر، على سبيل المثال، يعطيه نظرة ثاقبة للتعرف إلى الظروف التي عاشها الملوك البابليون والملوك الآشوريون حين اجتاحتها الفلستينين والفينيقيين، بينما تمنحه الحياة في شمال الهمالايا شعوراً بالزمالة مع الإسكندر الأكبر والمغول الذين فتحوا أقطار المعمورة. والتعرف عن قرب إلى الأمجاد العمرانية لبعض المدن الشرقية هي تجربة لا يمكن تجاهلها، وحجر الجاد الكريم الصّيني يشكّل أكبر إغراء قد تراه، إذا رأيت تلك الصّخور الحادة التي يتم استخراجها منها على ضفاف ذلك النهر.

غير أن حجم العمل أقلّ عند جامعي الطيور بين أشجار الأرز اللبنانية أو في منطقة ضريح فينوس ويترك ذكرياتٍ لا تُمحى. هذه الملذات عرضيّة بالنسبة للحياة التي يتوجب على علماء الطبيعة عيشها منفردين بشكل محتم، والتي جعلوا منها حياة

زاخرة بكل معنى الكلمة. عانيتُ وأنا صغير من الاضطرابات المزمنة، ومنذ نعومة أظفاري كانت لي ثلاث رغبات كبيرة، ألا وهي: عبور ما كان يسمّى «أفريقيا السوداء»، ورؤية البتراء المحفورة في الصّخر، والوصول الى «تلك العاصمة الغربية في الجزء الخلفي من العالم» بُخارى النائية. وبحلول سن السادسة والعشرين كنت محظوظاً بما فيه الكفاية لتحقيق تلك الرغبات الثلاث.

ازدادت الشهية مع الأكل ومع رؤية تلك البقاع من العالم، أدركتُ الكمّ الهائل من الأمور المثيرة التي يتعيّن عليّ القيام بها. في سمرقند، على سبيل المثال، كنت أفكر في أفروسياب Afrosiab ومرقند Maracanda الإغريقية القديمة التي تقع مثل كومة قمامة شاسعة خارج المدينة الحالية دون أي يقربها أحد، بانتظار من يستكشفها. والأكثر إغراءً وإثارة كانت قصة الضابط القوزاقي الذي أخبرني أنه يعلم يقيناً مكان دفن جنكيز خان! ولكن أول الشائعات التي سمعتها في دمشق كانت عن الحصان وحيد القرن الأبيض الذي يعيش في صحراء جزيرة العرب، وبما أن ذلك كان من ضمن دائرة اهتمامي أكثر من اهتمامي بالكنوز المدفونة أو بقبور الملوك، فقد كانت النتيجة أن شدّتي الرّغبة مباشرة إلى عملية صيد المَهاة.

سواءً كانت وعول المَهاة في شبه جزيرة العرب تُعدّ نموذجاً أولياً لوحيد القرن الأسطوري أم لا، فقد حافظت على أسرارها كما فعل شقيقها الأسطوري. لقد حظيت حياة المَهاة باهتمام غير طبيعي، وهي تعيش في منطقة تماثلها روعةً ووحشية. كانت تحظى بأهمية كبيرة كونها الوحيدة من أبناء جنسها الأفارقة الذين ضلّوا الطريق فشرّدوا إلى داخل آسيا، وأخيراً سجّلت سبّقاً في المراوغة، فعلى الرّغم من معرفتنا بها منذ العهود القديمة - فيما إذا كان وحيد القرن المذكور في العهد القديم مُطابقاً حقاً للمَهاة، فإنّ الأوساط العلمية لم تجد لها اسماً لغاية القرن الثامن عشر، ونجحت هي في تجنّب ملاحقتها من قبل أيّ منا حتى القرن العشرين. فلم أتمكن من العثور على أيّ سجل لأي مسافر قبلي يدّعي بأنّ عينيه وقعتا على شبح لهذا الوحش في حالته البرية في بلده، على الرّغم من أنه لا يزال يعيش بأعداد قليلة في شمالي شبه جزيرة العرب

وجنوبيّتها. عادةً ما يحتفظ الأمراء المحليّون في باحات قصورهم بوحوش أسيرة يتم الإمساك بها صغيرة من قبل رجال البدو، فتُجلب في بعض الأحيان إلى السّاحل، ويتم انتقاء بعضاً منها لإرساله غرباً فتصبح بالتالي معروفة للعالم الخارجي.

رمانى هذا الكائن الغريب قليل الشّرب للماء بسحره للمرة الأولى عام 1905، عندما كنتُ في رحلة صيد للحيوانات الغريبة في سوريا وفلسطين - وكان هنالك في الواقع مزيج غريب جداً من الحيوانات في ذلك الجزء الضيّق من البلاد الواقعة بين شرق البحر الأبيض المتوسط والصّحراء السّورية. كنتُ قد وجدت بالفعل أرنباُ أوروبياً في الأراضي الصّخرية حيث مسقط رأسه، وعلى مرمى البصر ممّا سيصبح الآن المرفأ الأكثر ازدهاراً في المشرق العربي. رأيتُ الدّب السّوري في ملاذه الأخير، واستدللتُ للمرة الأولى على وجود الوعل الفارسي على التلال القريبة من دمشق، على بعد 300 ميل من أقرب مكان عُرف به في آسيا الصّغرى.

بدأت عندها أفتش عن حيوانات أكثر غرابة، عن الحصان وحيد القرن وعن التماسيح! كان تريسترام Tristram المرجع الوحيد حول حياة الحيوانات في هذا الجزء من العالم، وكتابه كان حافزاً بسبب النّبذ الموجودة فيه عن الوعول الأفريقية النّادرة، والظباء، والحُمُر الوحشية، والمّهاة، والنّعَام والتماسيح. لقد حلمتُ بها جميعاً، اختفاء الوعول الأفريقية كالخرافة⁽¹⁾ وكذلك الظباء، وانقراض التماسيح والحُمُر الوحشية⁽²⁾، بينما تتحوّل المّهاة إلى عنقاء تستدرجني إلى مجاهل الصّحارى.

قال تريسترام Tristram، الذي كان مرشدي وصديقي في جميع هذه الأمور: «كانت المّهاة أو الظباء البيضاء شائعة في شمال جزيرة العرب، وقد وُجدت في البلقاء وحوّران». لذا خرجتُ إلى أطراف الصّحراء، إلى الحدود الشرقيّة لأرض

(1) كتب المؤلف: من المشكوك به أن تكون هذه الوعول قد دخلت جزيرة العرب من موطنها في شمال أفريقيا. هناك سجل بذلك ومن المؤكد أنها انقرضت من أفريقيا الآن.

(2) كتب المؤلف: اختفت الحمر الوحشية من الصّحراء السّورية في أوائل القرن الماضي، ولكن التماسيح من تمكنت الاستمرار لمئة سنة أخرى في مستنقعات قيشون والزّرقاء.

مؤاب واستقيتُ المعلومات، لأجد أنه من غير المحتمل أن تكون المَهارة في وقت من الأوقات قد اقتربت إلى هذا الحدّ من الأراضِي المأهولة، حتى في أيامه، وأنها بالتأكيد لن تفعل ذلك الآن. لقد كانت هناك مَهارة ولكن بعيداً جداً، على الأقل على بعد مئات الأميال، على حافة الأفق الشرقي.

غادرتُ سوريا بعد ذلك، ولكن بعد أن كانت بذور ذلك الافتنان قد بُذرت؛ فأنا أدرك تماماً أن عليّ العودة يوماً ما لمواصلة المطاردة. تشكّلت تلك الرّغبة في العودة إلى تلك المناطق القاحلة ربما بسبب الأشهر العشرين التي أمضيْتُها بعد ذلك في مناطق أفريقيا المدارية، ومعظمها في غابات الكونغو! لقد تولّاني هاجسٌ لا يوصف في التوق لمساحات مكشوفة تغطيها أشعة الشّمس عندما كنتُ رهيناً في أعماق مجاهل الغابة الكثيفة. وتعزّز شعوري بالاكْتئاب بسبب خشيتي من أن يقوم شخصٌ آخر بالوصول إلى تلك المَهارة قبلي.

مضت سنة أخرى قبل أن أشعر بحرّيتي، وفي ذلك الحين كنتُ أجول بعيداً في آسيا الوسطى. بدت الرّحلة للوهلة الأولى كما لو أنها ستكون من سَمَرْقند إلى دمشق، غير أنها مرّت بكل من بخارى، باتوم، إسطنبول، بورسعيد، وبيروت، التي ثبت أنها المراحل المعنّدة في الطّريق بالنسبة لجميع الحجاج القادمين من آسيا الوسطى والمتجهين إلى مكّة، ولقد تبعْتُ خطاهم.

* * *

في يناير 1909، كنتُ أمشي مرة أخرى في شوارع دمشق. كانت سوريا في ذلك التاريخ مكاناً مختلفاً جداً عما هي عليه الآن. لم تكن السيّارات قد وصلت بعد، وكانت القوافل ما تزال تمرّ في مدينة القوافل، شمالاً، وجنوباً، وشرقاً، وغرباً إلى حدود العالم. كانت الصّحراء تحيط بدمشق. مرّت قافلة الحج المتجه جنوباً نحو مكّة للمرة الأخيرة خلال زيارتي الأخيرة، وكان الخط الحديدي الحجازي قد اكتمل في ذلك الوقت أو كان على وشك أن يصل إلى المدينة المنورة. ولكن كانت تلك الوسيلة السهلة للانتقال حكراً على المسلمين إلى حدّ ما، كما أنها كانت لا تُقارَن في سوئها

كوسيلة نقل إلى الداخل.

كانت جزيرة العرب مقطوعة عن سوريا كما كانت في أيام النبي إبراهيم، وربما أكثر من ذلك. ولم يتقدّم استكشاف شبه جزيرة العرب إلى الأمام منذ ربع قرن، فقد غادر داوتي Doughty منذ واحد وثلاثين سنة، وأوبير⁽¹⁾ (هوبر) Huber قُتل عام 1884، ومنذ ذلك الحين لم يظهر على السّاحة أيّ مسافر غربي، لم يغامر أحد بالدّخول إلى عرين الإسلام. كان عصر العرب العظماء من ابن بطوطة قد اكتمل بداوتي وأوبير (هوبر)، وتلاه بعد ذلك صمّتٌ طويل، فلم تجد صحراء شبه جزيرة العرب من يتحدث عنها، وعن شعبها وعن سياساتها.

لقد كُتب عليّ أن أفتح المرحلة الثانية من استكشاف جزيرة العرب، التي بلغت ذروتها في نهاية المطاف في الدور الذي لعبته في الحرب العظمى، وفي الاهتمام المُبالغ به نوعاً ما بكل ما يتعلّق بجزيرة العرب. ولسوف تُظهر مقارنة بين خريطة جزيرة العرب عام 1909 وخريطة لعام 1919، التغير الذي حدث خلال السّنوات العشر تلك. كان وسط جزيرة العرب عام 1909 معروفاً بشكل أفضل من أطرافها. ولم تكن الصّحراء السّورية سوى بقعة بيضاء واسعة، وآبار الرّطبة المعروفة الآن في منتصف الطّريق بين دمشق وبغداد لم يكن لها اسم. فلم تحظ الرّطبة على اسم على الخريطة حتى ذكرها ليتشمان Leachman هناك عام 1912. وأما المناطق على جانبي الخط الحديدي الحجازي فلم تكن تُعرف على نحو أفضل مما كانت عليه قبل بناء

(1) شارل أوبير (أو هوبر بالألمانيّة) رحّالة فرنسي من مقاطعة الألزاس شمال شرق فرنسا المحاذية للحدود الألمانيّة، قام برحلة إلى جزيرة العرب عام 1878 قادماً من دمشق إلى الجوف، فزار حائل ومكة المكرّمة وتعرّض لمصاعب جمّة. ثم قام برحلة ثانية في عام 1883 بصُحبة المُستشرق يوليوس أويتنغ Julius Euting (من ستراسبورغ Strasbourg) وجرى ما جرى حول حجر تيماء (المسلّة) ومقتل أوبير في العام التالي 1884. وصدرت عن رحلته نشرتان في الجمعيّة الجغرافيّة الفرنسيّة، ثم نشر أويتنغ وقائع رحلته بجزأين بالألمانيّة : «سجلّ رحلة في البرّ الداخلي لجزيرة العرب»:

Euting, Julius: *Tagbuch einer Reise in Inner-Arabien*, Leiden, 1896-1914.

الخط الحديدي، وأصبح الوضع أكثر خطورة مع قدوم جحافل الحجاجين الطليان، وغيرهم من العناصر الأجنبية التي تجمعت حول الخط الحديدي أثناء عملية بنائه.

لم تكن الأنباء الواردة من داخل جزيرة العرب مطمئنة، فأمرء حائل كانوا ولفترة طويلة العنصر المهيمن في نجد، غير أن المدّ كان قد تحوّل بالفعل لصالح ابن سعود، الذي أدهش حتى هذه الأرض صاحبة التغيرات السياسية بعودته الدرامية إلى السلطة بإحكام سلطته في الرياض. كان ابن سعود في البداية يُدعم موقفه؛ فقد كان يستجمع قواه ويتلمس طريقة، ولكن حتى تلك اللحظة لم يتجاوز بعض المناوشات مع منافسه في جبل شمر، ولم يكن في وضع يمكنه من القيام بالمزيد عن ذلك.

بدأ مذهبه السلفي شيئاً فشيئاً يكسب أرضية له في المنطقة، وفي غضون سنوات قليلة تحتم على ابن سعود أن يضرب ضربته الرئيسة ويطرد الأتراك خارج الأحساء Hasa، ليبدأ بعد ذلك بمتابعة أهدافه بديناميكية انتهت بسيطرته الفعلية على كامل بدو جزيرة العرب، وكذلك منطقة نجد وجميع الأماكن الإسلامية المكرّمة، وبعبارة أخرى أصبح أميراً على جزيرة العرب. في تلك الأثناء كان قتلة حائل مستمرين في حمام الدّم، فقد قُتل آنذاك الأمير سعود بن خُمود، قبل وقت قصير من وصولي إلى سوريا، فكانت ثالث حادثة اغتيال في غضون عامين، وحتى مجتمع شمر الذي اعتاد على النزاعات داخل عائلته الحاكمة شعر بالصدمة! فقد كان الشاب سعود بن رشيد⁽¹⁾،

(1) هو سعود بن عبد العزيز بن متعب بن عبد الله بن رشيد، ولد على الأرجح عام 1898 في حائل، وكان عمره عند مقتل أبيه 8 سنوات، ولم تكد تمرّ سنة على مقتل والده حتى قتل إخوته الكبار (متعب حاكم حائل آنذاك، ومحمد ومشعل) على يد خالهم سلطان الحمود الرشيد، بينما نجا هو من المذبحة عندما هرب به أخواله السبّهان إلى المدينة المنورة، فعاش هناك حتى أرسل أهالي حائل إلى حمود السبّهان عام 1908 طالبين عودتهم مع الأمير سعود لأخذ القيادة، مع العلم أن الأمير سعود لا يستطيع تقلد مقاليد الحكم حسب الدستور المتعارف عليه في حكم حائل، بعد أن ساءت الأوضاع تحت حكم الأمير سعود الحمود الرشيد.

وصل سعود إلى حائل عام 1908 وعمره 11 سنة، فتولى الحكم تحت وصاية خاله الأمير حمود بن سبّهان السبّهان الذي مارس دور الحاكم الفعلي للإمارة (وهم أبناء عموم آل الرشيد)، وبعد وفاة الأمير حمود السبّهان عام 1909 تولى دور الوصاية على سعود الأمير زامل (الثاني)

الناجي الوحيد من المجزرة الأخيرة، قد أعيد مؤخراً إلى حائل من مكة، حيث كان يعيش برعاية آمنة لبضع سنين. وكان خاله حمود بن سبهان، الذي كان يقوم بدور الوصي، قد توفي خلال فترة سفري، وحلّ مكانه زامل من آل السبهان.

وتبعاً لذلك، لم يكن الوضع يبشر بالخير! فجزيرة العرب كانت على ما يبدو تمرّ في مرحلة صراع. كان المدّ الوهابي (السلفي) يتعرّز يومياً؛ وأخذ آل الرّشيد يشعرون بأن يومهم قد اقترب؛ فيما راح ابن سعود يفرض القوانين في الرياض كالأسد في عرينه متحفزاً لينقضّ مجدداً على عدوه، بينما كانت قبائل البدو الرّحل منغمسة في لعبتها المعتادة في المناطق الحدودية، فقبيلة شمّر تحارب قبيلة الرّولة، وقبيلة بني عطية وقبيلة الحويطات تحاربان بقيّة القبائل.

اعتادت شرّ القبائل التجوال في نفس المنطقة التي اتخذتها المّهارة ملجأً لها! وليس ذلك من قبيل المبالغة، لأنه إذا ما عدّ جبل طويق - حيث وجدت المّهارة أخيراً وبكثرة - مركزاً، فيكون محاطاً من جهة الغرب والشّمال الغربي بالحويطات وبني عطية، وهما قبيلتان تشتهران بالعتوّ والقتل، ومن جهة الجنوب الشرقي بقبيلة شمّر وقبيلة الرّولة من الشرق. ثلاث قبائل لا يمكن التوفيق بينها وتمكث في حالة حرب دائمة، فهل يمكن أن تجد مكاناً أكثر حراسة من ذاك، أو أكثر صعوبة على شخص غريب اختراقه؟

كان عام 1909 عاماً مميزاً بالنسبة للتاريخ التركي، فلقد كان عام الحرية. فقد تم آنذاك إعلان الدّستور ولم يعد السّلطان عبد الحميد رجل إسطنبول المرعب. لم يعد أحد يخشى رجال الشرطة في الأسواق، كان كل إنسان يفعل ما يحلو له، وبدا الأمر كما لو أن الجميع يعيش في يوم عطلة دون أن تكون هناك مظاهر للفوضى ولا حتى على مشارف الإمبراطورية. في هذه الدّوامّة من العناصر المتضاربة وصلت في يناير

السّالم العلي السّبهان (زوج الاميرة فاطمة بنت زامل الأول بن سبهان)، حيث قتل بعد عدة سنوات بمؤامرة. ثم أصبحت جدته فاطمة السّبهان تدير الحكم بالوصاية بعد اختيارها من قبل الجماعة، وظلت كذلك من عام 1910-1911 حتى 1914، حيث تولى الأمير سعود العبد العزيز الحكم رسمياً في حائل وما يتبعها، حتى اغتياله في مارس 1920 على يد ابن عمّه عبد الله الطلال الرّشيد.

1909، دون أن يكون لديّ الكثير من الأمل بالنجاح، أنا أعترف بذلك. لكنني كنت أعرف أن هناك بعض الأماكن الخالية في شمال غرب جزيرة العرب التي اخترتها كانت قد تحولت إلى أراضٍ غير مأهولة بسبب عمليات التصفية بعد أن كانت المناطق الأقلّ كثافة سكانية.

كنت أتمنى لو استطعتُ مراوغة المسؤولين الأتراك لأنجو من غارات البدو على المناطق الحدودية، وكذلك الابتعاد عن طريق الشيوخ المتنافسين في المناطق الداخلية، فقد أصل إلى المنطقة المحرّمة التي كنت أتوقع أنها قد تكون الملجأ الأخير لذلك الحيوان الخرافي بعيد المنال.

على الرّغم من مرور خمسة وعشرين عاماً على تلك المغامرة العربيّة، فإنّ البلد لم يتغيّر وكذلك ظروفه بعد تلك الفترة الطويلة. لم ير المَهْاة في الشّمال أحدٌ سواي، ما عدا لورنس الذي شهد على وجودها خلال رحلته من الوجهه Wjijh إلى الصّحراء السوريّة مع عودة عام 1917، وقام رجاله بقتلها في نفس المنطقة التي تبين أنها تحتوي على أكبر عدد منها.

مملكة جديدة، تمّ تشكيلها عبر الأردن تشمل أرض مؤاب وجنوباً إلى البلقاء Belqa، وقد أحببناها جداً. تحكم تلك المنطقة اليوم حكومة مستقرّة للمرة الأولى منذ الاحتلال الرّوماني، وتضاءلت عدد الغارات على الأرجح عما كان عليه الوضع في أيامي. غير أن الصّحاري الداخليّة الواقعة بين تلال طُبَيْق Tubaiq والنّفود الغربيّة مازالت مُتتهكة كما كانت عندما قمت بزيارتها سابقاً، في حين مازالت قفار الشّارات Shararat تفتقر إلى التّوصيف.

علاوةً على ذلك، فإنّ مطاردة المَهْاة عملٌ رائع، إنه أكثر من مجرد صيد حيوان نادر جداً في بلد شديد المشقّة، إذ أنه يقودنا إلى منطقة تراكم فيها التراب والغبار لسنين طويلة، وإلى مجتمعات تكاد تكون خرجت للتوّ من عصرها الحجري. علاوةً على ذلك، فإن هذا المخلوق الأسطوري البدائي يغرينا في التوغّل إلى مراحل أبعد من مجرد مطاردة المَهْاة العربيّة، من أجل اكتشاف سرّ الأسطورة الأولى والخرافة،

وبعبارة أخرى، الطريدة التي نجحت في الإفلات من براثن الأسر حتى الآن. ولكن من المؤكّد أن هذا الحيوان الأسطوري الرائع هو أئمن من أن يسقط ضحية لبندقيتي أو بندقية أيّ صياد آخر؛ وكما قال أوديل شيفارد Odell Shepard لسوف ندعه «يختال في مشيته بعيداً... إلى المجاهل من حيث أتى»!

* * *

الفصل الأول

بداية متعثرة

تبوك

جرت الأقدار بأن فرصة اللقاء بمايسنر باشا Meissner Pasha المتعهد الألماني الذي بنى الخط الحديدي الحجازي، دفعني جنوباً إلى تبوك. قد لا تكون تلك مقاربة جيدة لهدفي، أي صحراء النفود، ولكنها قد تعلمني شيئاً عن أحوال تلك المنطقة. على أي حال، تُعدّ تبوك من أراضي جزيرة العرب وليست جزءاً من برّ الشام، إنها واحة تقع على أعتاب الأراضي المقدسة، وهي الحدود القصوى التي يمكن أن يصل إليها مسيحي، ولقد وصلتُ إليها بوساطة الخط الحديدي وبتكلفة بخسة.

صحيح أنّ داوتي Doughty استطاع الحصول على إذن بالذهاب مع قافلة الحجّاج إلى مدائن صالح التي تمثل بوابة الحجاز، ولكن كلما ازداد اقتراب العالم الخارجي من مجتمع منطوي على ذاته مثل المدينة المنورة ومكة، ازداد عزل الأجنبي في داخله صرامةً. كان من صلاحية مايسنر أن يُعطيني تصريحاً أصل به إلى تبوك وليس أبعد من ذلك، كما سيزودني أيضاً برسالة تعريف مقدّمة للشيخ حرب، رئيس قبائل بني عطيّة، المسيطر على السّهول المحيطة بتبوك. أصبحت تبوك الآن محطة للخط الحديدي الجديد، وقد كانت دوماً إحدى مراكز السّقاية المحروسة على طريق قوافل الحجّ القديمة إلى المدينة، وبالتأكيد يتبع الخط الحديدي بطول ثماني مئة ميل تلك الدّروب التي اختطّتها واحدة من أقدم طرق القوافل في العالم.

قبل بعثة الرسول محمّد⁽¹⁾ بفترة طويلة كانت المدينة موثلاً للحج، وقبل ذلك ومنذ فجر التاريخ استُخدم هذا المسار كطريق رئيسي بين جزيرة العرب والسّواحل الفينيقية. غادرتُ دمشق في الثامن والعشرين من ديسمبر 1909، على متن أحد القطارات الأسبوعية الثلاثة ووصلتُ جنوباً إلى معان في الليلة التالية. وتبيّن لي أنّ مدينة الخيام كما كانت معان عند زيارتي السّابقة عام 1906 قد اختفت من الوجود. عادت تلك الواحة الصّغيرة لتغفو ثانية بعد الإثارة التي عاشتها كإدارة للخط الحديدي لبعض الوقت، بسبب المسافة الطّويلة التي تمتدّ لنحو 144 ميلاً من الأراضي الجدباء، التي ينبغي أن تمتدّ خلالها قضبان السّكة الحديد للوصول إلى المحطة اللاحقة تبوك. لن تشهد معان الكثير من الإثارة حتى يتم إيقاظها بفضاظة في عام 1917 بسبب الثورة العربية⁽²⁾ التي أكسبتها بعض الشّهرة.

كانت معان في أيامي تتألف من قريتين شاميتين فقيرتين تقعان على حافة الفلاة، وكانت مختلفة جداً عن واحات النّخيل الواسعة في جزيرة العرب. وعلى الرّغم من قربها - لم تتأثر أكوأخها المبنية من الطّين وحدائقها المسوّرة ومساحات الزّراعة الصّغيرة فيها بمحطة الخط الحديدي بمبانيه القبيحة، وبأبراج المياه وحظائر القاطرات. توقفت في معان لألتقي مايسنر باشا Meissner Pasha وهناك رأيتُ المّهارة الأولى، فقد كان هناك زوج من حيوان المّهارة أسيرين، لا يزيد عمرهما عن سنة واحدة في باحة منزل مايسنر.

كان الفضول دون سواه سبب أول اتصال بين داوتي Doughty وأهالي معان، والأكثر إثارة كانوا أولئك الأشخاص بيض البشرة الذين نشأوا بين الشّرارات Shararat. استمتعتُ بأمسية مشابهة في طريقي إلى تبوك وكلّي أمل أن ألتقي بتلك الأبقار الوحشيّة في أقرب وقت ممكن.

(1) عليه أطيب الصّلاة والسّلام، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(2) حول ذلك راجع في هذه السّلسلة كتاب «ثورة في الصّحراء» لتوماس إدوارد لورنس (لورنس العرب)، وكتاب «مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب» للويل توماس.

مع مغادرة معان سرعان ما أدركتُ مدى التغير الذي أصاب طبيعة البلد. فمِنذ غادرتُ أراضي حوران المزروعة بالذرة، بدت لي السهول الشاسعة اللامتناهية جنوباً حيث مراعي الإبل في البلقاء Belqa وأرض مؤاب. ولكن اليوم ينساب القطار جنوباً في السهول الجرداء، ثم يصل فجأة إلى تخوم ما كان يدعى بسهول النبطيين، ثم تنخفض الأرض الصحراوية قليلاً لتفسح المجال للاستمتاع بمنظر واسع جداً. إنه الاقتراب من جزيرة العرب «حاجب سوريا» كما يحلو للقادمين من الجنوب أن يسمّوا تلك المنطقة. والسحر وحده هو القادر على جعل أحدهم يترك العالم الزاخر بالحياة ليدخل عالماً من العقم المُطلق. ولا يمكن حصول ذلك سوى بعد أن يمرّ أحدهم بتجربة السفر بعيداً وعلى نطاق واسع، وبعد أن يكون قد عرف الصحراء، وأدرك أن الزاوية الشمالية الغربية من شبه الجزيرة في غاية الغرابة. وفي الغرب تسمو هضبة حِسمى Hisma، التي تحتوي على أروع مشهد في جزيرة العرب، بشهادة لا تقل عن شهادة شيكسبير ولورنس. بينما لا يبعد وادي رَم Rumm العظيم سوى 30 ميلاً غرباً.



وادي رَم العظيم

تمتدّ قفار الشّرات مئتي ميل شرقي الخط الحديدي حتى أول واحة الجوف، التي أدهشت في قحولتها جميع من رآها من المسافرين، وحتى أولئك الذين خبروا جزيرة العرب. والأرض هناك تنحدر جنوباً حتى يخيّل لأحدهم أنها تنحدر بهم إلى الجحيم. وليست الحرارة هي السّبب ولا طبيعة المكان القاسية هي التي تعطي ذلك الانطباع، إنما هو أكثر من ذلك. إنّ الجو المميز للمكان، حيث يشعر الإنسان هناك أنه بحضرة شيء بالغ القدم. وعلى الرّغم من أن المنطقة لا تحتوي على آثار تدلّ على أناس قد سكنوا ذلك المكان، فإنّ الإنسان يُدخله شعور بأنّ هناك مَنْ خَبِرَ هذه الطّريق منذ عصور قديمة، وهذا العمري أمرٌ أكيد فهي الطّريق التي مرّت بها قوافل البخور واللّبان في عصور سبقت طريق الحرير، فتجّار سبأ كانوا ينقلون الذهب والمِرّ على طول هذه الطّرق الصّحراوية إلى ممالك البحر الأبيض المتوسط. ولا زالت أرواح الملايين ممن عبروا تلك الطّريق المحفوفة بالمخاطر تسكنه، لذا دعت العرب «بطن الغول». كما ازدادت عزلة المكان بسبب الخط الحديدي الطّويل وأعمدة التلغراف الملتوية على طول ذلك الطّريق الطّويل. يبدو أن دخول الحداثة، لا سيّما الخط الحديدي، يتعارض مع بيئة هذه المنطقة.

إنّ هذا يحمل في طيّاته أكثر من مسألة تناقض، بل إنّ القبح بعينه، عندما يدرك المرء أنّ الخط الحديدي ينتهي في الصّحراء، أي أنه يحملك إلى غير مكان مخصوص، إنما ينتهي بك في مدينة محرّمة طابعها التعصّب يحيط بها سور على جنباتها! فالمشهد المنبسط أمامك بقدر ما هو متألّق تراه بالقدر ذاته منفراً. إذ يكاد يكون من المستحيل التصديق إن هذه المساحات الواسعة من الرّمال الصّفراء النّاعمة، وتلك الجلاميد السّوداء اللامعة، وتلك الآكام والذّرى والبطاح الرّمليّة الحمراء وتلك التلال المتعرّجة تنتمي حقاً إلى هذا الكوكب. ومع ذلك نهرع إلى هذا العالم الجديد، ومع تقدّم القطار وعويله باتجاه أسفل وادي الجان راسماً دائرتين كبيرتين قبل أن يصل إلى الأراضي المنبسطة، نألف محيطنا الجديد والغريب.

نحن الآن في جزيرة العرب وعلينا أن ننسى أننا عرفنا في أي وقت من الأوقات

الغابات الخضراء والأنهار المتدفقة أو شممنا رائحة المحاصيل . فهذه الأشياء محظورة في الصحراء . هنا تتضائل حاسة الشم بينما تتضخم حاستا البصر والسمع بشكل لا يُصدّق . فالعينان هنا تجولان في المسافات الشاسعة فتصبح بالممارسة قادرة على التركيز على الأجسام على مسافات واسعة لم تكن قادرة على الوصول إليها من قبل . تتضاعف حدّة البصر والسمع عشر مرات ، وتزداد حدّة الملاحظة بالنسبة ذاتها . شعرتُ خلال التوجه جنوباً إلى تبوك بالفعل أنني وصلت إلى خارج حدود العالم .

من استكشف أرض مدين الواقعة في الغرب سوى بُرتون Burton ومن استطاع دخول جزيرة العرب من ذلك الجانب سوى فالين Wallin ؟ وشرقاً هناك مناطق مجهولة وغير مطروقة ، وعلى الرّغم من عدم معرفتي بها في ذلك الوقت ، فقد كان قدري أن أراها في نهاية المطاف . المَعلم الوحيد في ذلك الأفق الشرقي بين معان وتبوك كان صخرة شامخة على سلسلة من التلال الصّخرية تُدعى « منبر النّبي » بسبب شكلها ، والسّبب الآخر وفق ما ورد في التاريخ أن الرّسول العربي العظيم دعا قومه من هذا الموقع .

وصلنا منطقة تبوك في صباح اليوم التالي ، ووجدتها مشغولة في الاستعداد لاستقبال الحجاج العائدين من مكة . تطهّر حجاج بيت الله الحرام قبل شهرين من سفرهم عبر الصحراء (أو قتلوا) ، ولكن الآن بعد أن اختصرت الرّحلة لبضعة أيام ، أضحى من الضروري جداً إجراء حجر صحي في محطة تبوك . تقع القرية وبساتين النّخيل والقصر على بعد مسافة لا بأس بها إلى الجنوب الغربي ، وإلى هناك انتقلت وخادمي وكذلك أمتعتي .

ساعدتني رسالة مايسنر Meissner في الحصول على غرفة فارغة في الطابق العلوي في ذلك السّجن ، الذي كان حتى وقت قريب يستخدم لحجز المجرمين المحليين . ولكن مع إزالة الحاجز الحديدي وتنظيف الغرفة جعلت ذلك منزلي . من هذه النّقطة على سور القصر قمت بإجراء استطلاع لموقفي .

* * *

كانت القلعة عبارة عن كتلة سكنية مبنية من الحجر مشابهة للمجمعات السكنية المنشأة لحماية طريق قوافل الحج ولحماية موارد المياه على الطريق. بُنيت القلعة بقاعدة مربعة الشكل، متينة، تحتوي على فتحات إطلاق للبنادق والمدافع، وتسيطر على إمدادات المياه الرئيسية الواقعة تحت سورها. ويقال إن قلعة تبوك هي إحدى أكبر القلاع على طريق قوافل الحج، وخلفها تنتشر بساتين النخيل المحيطة بالقلعة بقوامها النخيل وقممها المزركشة، ومن ثم الصحراء وراءها. الواحة التي كان بمقدوري رؤيتها كانت صغيرة جداً على شكل دائرة متكاملة تحتوي على حوالي ألف شجرة نخيل وتعادل مساحتها ثلاثة أمثال مساحة ساحة ترافالغار سكوير Trafalgar Square.

تخيّلوا عالماً صغيراً بهذا الحجم يحتوي على قرية فيها ما يقارب الخمسين بيتاً وقلعة وواحة من أشجار النخيل دائرية الشكل تقع في هذا الخضمّ الواسع من القفار المترامية الأطراف، فيكون لديكم فكرة عن المنظر الذي أشرف عليه من القلعة. يمكنني القول إنها الصحراء الممتدة إلى الأفق من جميع الجهات، ولكن تحرياً للدقة لم تكن الصحراء ممتدة هكذا إلى ما لا نهاية، فبعيداً إلى الشمال وعلى بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً كان هناك خطّ من التلال المنخفضة المنتهية بصخرة ناتئة في جبل مخطب Mukhtab، بينما إلى الجنوب وإلى الجنوب الغربي تبدأ الصحراء المفتوحة بالتفكك إلى بلدان مجزأة، مدعومة من قبل أعلى المستويات، وبعيداً جداً يُمكن أن ترى الخطوط العريضة - حدود الحرّة Harra.



قفار الشرارات

لم تكن تلك المتاهة من الصّخور والرّمال سوى معالم الحجر⁽¹⁾ Hejr المحفورة في الصّخر والعامل الرّئيس الذي جذب داوتي Doughty إلى جزيرة العرب، والتي نعتبرها سبباً لرحلته بأكملها. ذهبت إلى القرية، ولدهشتي وجدتُ أنها كانت مسكونة من قبل جماعة كانوا في الأصل عبيداً من ذوي أصول مختلطة تمّ تحريرهم، يبدو على بعضهم أنهم من أصول سودانية نقيّة. قيل إنهم لم يسكنوا تبوك منذ فترة طويلة. حتى أن أوبير (هوبّر) Huber اعتبر أن القرية ذاتها بنيت فقط قبل ثلاث سنوات من زيارته في عام 1884. والحقيقة هي أن حركة سكان القرية كانت مرتبطة بحماية من البدو الممنوحة لهم من قبل القوى المهيمنة على حركة قوافل الحجيج. قدّر فالين Wallin، على سبيل المثال، أن منازل القرية لم تكن تتجاوز السّتين في عام 1848، في حين وجد أوبير (هوبّر) Huber وأويتنغ Euting تبوك خالية من السّكان في عام 1884،

(1) هي حالياً مدائن صالح، واسمها القديم حجر، الذي يعني بالأرامية والنبطيّة: الحصن.

فكانت المنازل مقفرة والقصر يضم خمسة حراس لا غير. بينما عند زيارتي كان هناك حوالي 200 نسمة، وقد يكون عدد السكان تزايد منذ ذلك الحين بسبب تزايد أهمية تبوك كمستودع للسكة الحديد ومركز للحجر الصحي، ومما لا شك فيه أيضاً بسبب عامل الأمان الكبير الذي توفره الصحراء المحيطة بها. فاق اهتمامي بالواحة تصوري عما سيكون عليه الحال في البداية.

تُعدّ العين أو نبع الماء، أساس الحياة بأكملها ودوماً نقطة اهتمام وجذب في أي واحة. والعين هنا تنبع من تحت سطح الأرض (وليس عميقاً كما هي حال البئر المشهورة في تيماء)، وتجري إلى خزانات إسمنتية كبيرة ذات جُدر عالية بما يكفي لتحميها من التلوث. تلك العين قديمة جداً بشكل يدع المرء يتساءل عما إذا كانت هذه المصادر المائية العربية قد عاصرت بدايات الإنسان الأول. تجري المياه الفائضة من الخزانات في قنوات صغيرة إلى الزوايا الأبعد من الأراضي المزروعة. كانت تلك البساتين مزروعة بالتين والخوخ والعنب، بالإضافة إلى مساحة صغيرة مزروعة بالذرة خلف بساتين النخيل.

قضيتُ الأيام التسعة التالية إما في غرفتي في أعلى القصر أو مستطلعاً الجوار بقدر ما كان ذلك ممكناً لي. وقد وجدت مصدرين مائيين آخرين، أحدهما يبعد نحو ساعة ونصف، والثاني يبعد ساعتين ونصف سيراً على الأقدام إلى الجنوب والجنوب الغربي⁽¹⁾. النبع الأول كان عين الرئيس، وقد كانت ماءه كافية لري مساحة جيدة من الأراضي المزروعة وقد وجدتُ عند ذلك المعين عدداً من الطيور والحيوانات. وقد جمعت هناك بعضاً من قُبَرَات الصحراء النادرة، وبعض طيور السَّمَن، والصَّرد والطَّيُور المغردة التي كانت تأتي بأسراب كبيرة من القفار لتشرب الماء من الحفر.

ليس هناك من علامة على هجرة الطيور حتى الآن، ولكنني شعرتُ أن تبوك هي

(1) كتب المؤلف: قد تكون تلك المواقع هي موقع تبوك الأصلي المعروف أنه كان في مكان ما في هذه الناحية. وضع أوبير (هوبر) Huber علامات في موقع خرب إلى الجنوب الشرقي، غير أنني لم أصل إلى ذلك الحد.

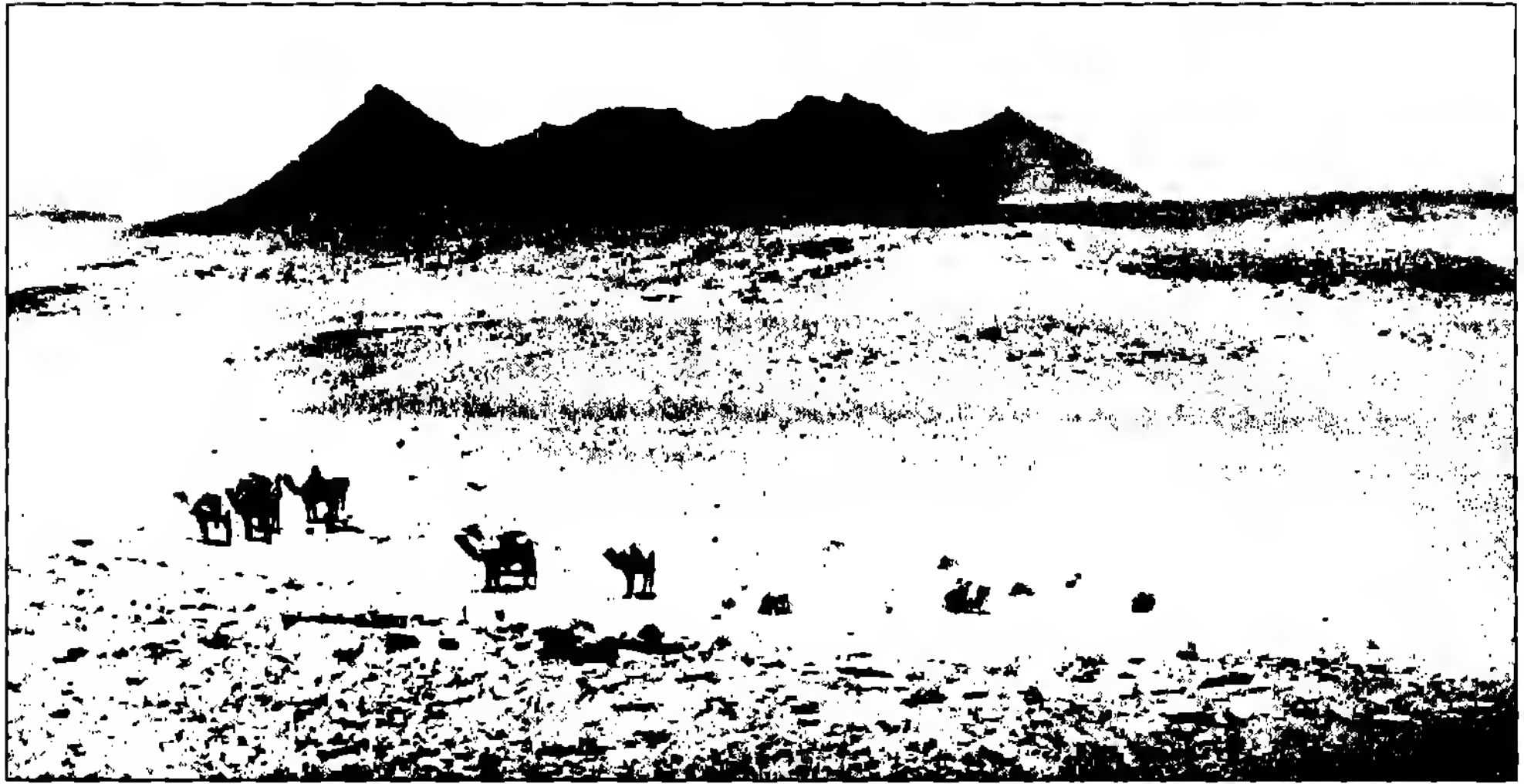
المكان المناسب للبحث في هذه الظاهرة. كنت قد وجدت سابقاً بأن القريتين وهي واحة صغيرة في الصّحراء السّورية قرب تدمر، بمثابة أرخبيل أخضر (هليغولاند)⁽¹⁾ Heligoland حقيقية في شهري مارس وأبريل. أسفرت بساتين النّخيل في تبوك عن وجود بعض من الفئران الشّوكية الغربية نصفها فأر ونصفها قنفذ، وتلك هي إحدى سمات هذه المناطق القاحلة.

خلال هذه الأيام كنت أجمع المعلومات عن المَهْاة بهدوء. فوجدت أن موطنها الحقيقي يقع بعيداً إلى الشّرق، في منطقة تبدو نائية عن تبوك بقدر بعدها عن أي مكان آخر. ليس هناك من أحد ذهب إلى الشّرق من تبوك سابقاً. ذهبوا شمالاً إلى سوريا وجنوباً إلى الحجاز وغرباً حتى البحر الأحمر ولكن ليس شرقاً. يسيطر بنو عطية على جميع البلاد غرباً وجنوباً، وأخضعوا لهم الأرض حتى السّاحل وكانوا مسؤولين عن حماية خط السّكة الحديد من معان في الشّمال إلى دار الحمرا في الجنوب بأكمله. غير أنهم كانوا يُعدّون أعداءً إذا ما ذهبوا شرقاً. وكان ذلك محرّجاً! وكان من الواضح أن بني عطية لن يكونوا ذوي فائدة كبيرة بالنسبة لي. وبالإضافة إلى ذلك كان زعيمهم يسكن جنوباً بالقرب من المعظم Muadhdham، ولم يكن هناك مخيمات للبدو في جوار تبوك.

كان أيّ اقتراح أقوم به للقيام باصطياد المَهْاة يُقابَل بازدراء. لا أحد يخرج من الواحة أبداً باستثناء البدو عندما يقدمون إليها! وأما بالنسبة للذهاب شرقاً فإنها ليست من ديرتهم وليست من ديرة أي قبيلة أخرى على وجه الخصوص. كان فالين Wallin، الذي لن يغيب عن خاطر والذي عبر جزيرة العرب بسهولة جيئةً وذهاباً، قد وجد سكّان تبوك عصبي المزاج.... فخلال الأيام العشرين التي مكثتها هناك، لم أستطع إقناع أيّاً منهم بمرافقتي كدليل إلى القرية Guraya أحد المواقع الأثرية في هضبة حِسمى Hisma شمالي تبوك (وهو موقع لم يتم بحثه بشكل جيد بعد) أو حتى إلى منطقة القصير Koseir الأثرية.

(1) يشبّها المؤلف بأرخبيل هليغولاند الأخضر الواقع قبالة السّاحل الألماني على بحر الشمال.

كانت قبيلة الشرارات Shararat سيّدة تلك القفار حتى الشرق، تستخدم أراضي جبا Jaba وطَبِيق Tubaiq النائية للرّي والصّيد! غير أنها كانت أراضي بوراً حتى مقارنة مع أراضي الجزيرة. لم تكن الشرارات Shararat بالقبيلة القوية، لذلك أضحت براريها عرضة للغارات المتكرّرة ومن قبل الجميع. هكذا بدأت أدرك بدقة ما لذي أنا بصددّه، إذ أن المَهارة تقطن حقيقة في أرض غير مأهولة ومحايدة، غير أنها لا تعني بأي شكل من الأشكال أنها محايدة بالنسبة للأعداء التقليديين قبائل شَمَر Sharnmar والرّولة Ruwalla والحويطات Huwaitat حلفاء بني عطية.



جبل طَبِيق

تصوير المرحوم الكابتن دبليو هـ شيكسبير

تم جلب لحم وجلد مَهارة مؤخراً إلى تَبوك، وبناءً على كمية أطراف بقر الوحش التي عرضت لي خلال فترة تواجدي هناك تأكدت أنها ليست ببعيدة. وجدتُ بين القرون التي أحضرت لي زوجاً طويلاً جداً من القرون، من أطول ما رأيت. لن يرضيني شيء حتى أذهب شرقاً لأرى بنفسني، وأخيراً حانت الفرصة مع قدوم بعض البدو إلى الواحة على أباعرهم، فاتفقتُ مع اثنين منهم على الذهاب معهما. توجهنا إلى الجنوب الشرقي وسرعان ما وصلنا إلى وادي إثيل Ithil، وهو منخفض بسيط لا يتجاوز عرضه

مئة أو مئتي ياردة مليء بالعشب وبيعش أشجار السنط.

وخلف ذلك الوادي يقع مجرى مائي أعرض - الوادي الأخضر - غير أنه أقل عشباً، وهناك وجدت آثاراً للنعام والمهاة والغزلان بالإضافة إلى آثار للبدو. وجميع المصارف المائية الآتية من التلال البركانية إلى الجنوب تجري في منخفض يقع شمالي شرق تبوك. تغمر المياه هذه الأودية القاحلة الآن في بعض الأحيان. تقع خلف الوادي الأخضر هضبة قاحلة جداً ليس فيها أثر لأي نبات، وهي منطقة واسعة تُسمى الرُّفَيْعة⁽¹⁾ Rufaiya، وقيل إنها ترتبط مع طُبَيْق Tubaiq. أُسرعت في هذه المنطقة بقدر الإمكان حتى وصلت إلى نقطة تبعد تقريباً ثلاثين ميلاً عن بئر فجر Fajr، والتي كان مقدراً لي أن أصلها بعد بضعة أشهر في ظل ظروف مختلفة جداً. وجدت هنا آثاراً وفضلات للمهاة، غير أنها قد تكون قديمة جداً.

أدركتُ على الفور أحد أسباب تسمية بقر الوحش، ذلك لأن مسارها يبدو دائرياً وأشبه ما يكون بمسار البقر. لم أكن أعتقد أن دليلي العربيين كانا سيذهبان معي إلى هذه المسافة البعيدة، بل ربما اعتقدا بأنني سأرغب بمعاودة أدراجي قبل أن يفعلوا هما. كنتُ قد قرّرت بالفعل، وقبل أن يزعجاني، أنه من العبث بمكان الاصطياد في ظل هذه الظروف، لكنني سمحت لهما بالاستمرار حتى أصبحا في نهاية المطاف عنيدين بما فيه الكفاية لإعطائي سبباً للتراجع.

مع ذلك، كنت قد رأيتُ مسارات المهاة والنعام، وتأكدت الآن أنني إذا استطعت الذهاب بمفردي فقد أحصل على ما أريد. وأيقنتُ بشدة بأن ديرة الشرارات Shararat جديرة كبلد بالتعرّف إليها عن قرب أكثر. وأن رحلةً إلى هضاب نجد لن تكون حدثاً أو أكثر إنتاجيةً من التحقيق في هذه البقعة الضيقة من الأرض، التي تقع إلى الشرق من الخط الحديدي الحجازي. عُدتُ إلى تبوك وفي ذهني فكرة واحدة فقط، وهي أن أعود إلى دمشق للبدء من جديد.

(1) الرُّفَيْعة تقع على بعد 3 كم إلى الشمال من قرية الناصفة في ديرة قبيلة الشرارات.

الفصل الثاني

البداية

قدّمت لي دمشق أهم أسس الرّحلة إلى جزيرة العرب، ألا وهو «الدليل»، والفيلسوف، والصّديق» شخص قادر ومستعدّ لأداء دور الوسيط بين المسافر والفصائل المختلفة التي سيجتمع بها على الطّريق. شخصٌ يعرف وبشكل شخصي العشائر الكبيرة وذو اسم معروف ومحترم من قبل الجميع. كان ذلك الشّخص هو محمّد بن مراوي؛ المتعهد السّابق لقوافل الحجيج، سمسار جمال وتاجر أغنام وتاجر. رجل ناضج وذو خبرة كبيرة، عالمٌ بأمور جزيرة العرب بطولها وعرضها. قال مراوي بأنه قادر على الذهاب بي إلى أي مكان أرغب به، وربما أمكنه القيام بذلك، في ظل ظروف عادية، ولكن عام 1909 لم يكن بالعام المناسب للرّحلة في جزيرة العرب. كما أنه ارتكب خطأً جسيماً بالدخول إلى تيماء المتعصبة، ولكن هذه قصة أخرى. بنيتُ آمالاً عريضة مع كفيلي مراوي، وبدأت أتوسع في برنامجي.

كان لديّ بالتأكيد آمال مشروعة ومعقولة لتأمين المَهارة، كما القيام بنوع من استكشاف للشرارات، وربما الوصول إلى نجد بحدّ ذاتها. غير أن عدداً قليلاً جداً من الأوروبيين هم الذين نجحوا في تنفيذ المهام التي وضعوها لأنفسهم من خلال سفرهم إلى جزيرة العرب. كان طموح معظمهم أبعد من توقعاتهم المعقولة بالنجاح. والعديد من الرّحالة بدأوا من الشّمال يحدوهم الأمل بحلّ لغز الصّحراء الجنوبية في نهاية رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر إلى قلب تلك البقعة، ولكن أحداً لم ينجح في تحقيق ذلك.

والحقيقة هي أنه كلما تضائل التخطيط لأهداف الرحلة إلى جزيرة العرب من قبل المستكشف ازدادت إمكانية نجاحها. القليل فقط استطاعوا بلوغ طموحهم، ومعظمهم حقق نصف مخططاتهم، والعديد فشل تماماً. إنّ المغامرة في جزيرة العرب عملٌ حسّاس ومحفوف بالمخاطر. لا يمكنك عن طريق المال التوغّل في جزيرة العرب؛ قد يكون المال مفيداً، لكنه من ناحية أخرى قد يعوّق حركتك. كان معي فقط مئة جنيه استرليني ولكن كان معي أمر آخر ألا وهو المتسع من الوقت. فقد وضعت برنامجي بما لا يقل عن ثلاثة أضعاف المدة التي كان عليّ قضاؤها! أمضيت في تلك الأسواق الدمشقية، التي لا وجود لها الآن، عدة أيام أتسوّق فيها الأشياء القليلة الهامة جداً التي يحتاجها المرء في رحلته عبر الصحراء.

سروج الجمال وأحلاسها، قرب المياه والحبال لسبر أعماق الآبار، الخروج ذات الأكياس الكبيرة ومواد غذائية مناسبة سهلة الطهي والحمل - الأرز والدقيق والسكر والبن كان يأخذ حيزاً كبيراً، وكنا نتأهب لسفر عسير. كان من المميت محاولة جلب أوروبا إلى داخل جزيرة العرب، لذلك حظرنا على أنفسنا بعضاً من الأشياء مثل الخيام والأغذية المعلبة، جهاز الطهي وأسرّة المخيمات. وسمحنا لأنفسنا بتغيير ملابسنا.

كان كل شيء علينا حمله يجب وضعه في الخُرج أو في أكياس منفصلة، وذلك لجعل الأوزان تبدو كحمل واحد عند ركوب الجمال، لأننا ما إن نبدأ بالحركة فسنتحرك بسرعة. لذا يجب أن تكون حمولة الإبل متساوية على الطرفين مما يجعل الحمل على الطرفين يبدو وكأنه وحدة متكاملة واحدة. إنّ البعير، والخرجين وكذلك الرّاكب ينبغي أن يشكلوا وحدة واحدة مستعدة للانطلاق إلى الصحراء. اشترينا بعض الهدايا القيمة ليتم تقديمها إلى رؤوساء القبائل الذين قد يساعدوننا، وإلى المضيفين الذين سيقوموا بالترفيه عنا. أخذت بندقيتي المانليخ⁽¹⁾ Mannlicher القديمة،

(1) بندقيّة المانليخ النمساويّة هذه طراز عام 1903، تم صنعها للجيش النمساوي الهنغاري، وتعرف باسم: Mannlicher-Schönauer طول سبطانها 72.5 سم ولذا فهي مثاليّة للرميات البعيدة في البادية. وتميّزت هذه البندقيّة بصفيتين: عيار المقذوف صغير 6.5x54 (أي 6.5 مم) مما يرفع من السرعة الابتدائيّة وبالتالي طاقة الصدمة، ثم مخزنها الدّوار rotary الذي يتسع لخمس طلقات.

وقمت بتسليح مراوي بغرض الاستعراض ببندقية مارتيني يونانية مع حزام عريض لوضع الرصاص فيه. كانت المعاطف المصنوعة من جلود الأغنام رخيصة ودافئة، لذا اشتريت واحداً، إذ ستكون الرحلة في بدايتها باردة جداً في الأرض المرتفعة، كما ستكون طريقة مناسبة لإخفاء ثيابنا العادية تحتها.

بهذا الشكل مع الكوفية التي تغطي الرأس إذا أراد المرء أن يضع شيئاً ما على رأسه بما يماثل القبعات الغربية، يكتمل التنكر الآن! وبمناسبة الحديث عن التنكر في جزيرة العرب، لا يوجد هناك حقاً أي شيء من هذا القبيل. فالأوروبي اللغوي الجيد، والدارس لطباع وعادات العرب يمكنه المرور بحرية ودون أي إزعاج إذا كان يلبس ملابس السكان الأصليين، غير أن ذلك لا يعتبر تنكراً. فهو مكشوف تماماً بحقيقته. ينبغي أن يكون هدف أي شخص عند دخوله إلى جزيرة العرب أن يمرّ دون أن يلاحظه أحد، وتجنب جذب أقل قدر ممكن من الاهتمام؛ لذلك ينبغي أن يظهر بشكل أشبه ما يكون لشكل مضيفه، ويتصرّف كما يتصرّفون، بقدر استطاعته. أمّا أنا فقد ارتديتُ خلال رحلتي بزة قديمة خاكية اللون ومعطفاً من صوف الخرفان. ولففتُ رأسي بقطعة من القماش عندما كنت أتجول غير حاسر الرأس وبحذاء مصنوع من النعل المخيط. أما في واحة تيماء فارتديتُ العباءة العربية، وبدوتُ بذلك كما كنت آمل ألا أبدو غريباً!

كان المال أكثر تعقيداً من اللباس. والعملية الوحيدة المستخدمة بين القبائل في الواحات العربية وخارج حدود السيطرة التركية هي الدولار النمساوي ماريا تيريزا أو الريال بالإضافة إلى الذهب. كان وزن تلك العملة كبيراً عند حملها ولكنها كانت العملة الوحيدة المتاحة. أخذتُ كيساً فيه من الدولارات ما يساوي 15 جنيهاً استرلينياً. وأودعتُ ما تبقى من المئة جنية استرليني بالعملية الذهبية التركية في حزام حول خصري.

لسوف أرتاح قريباً من كم كبير من ذلك المبلغ، لأن نسبة كبيرة منه سيتم دفعها ثمناً للإبل لدى وصولنا إلى المخيمات حيث ننوي الشراء. بالإضافة إلى هذا المبلغ،

أخذتُ رسالة من محمّد البسام وهو تاجر ومصرفي معروف في دمشق تمكّني من سحب حتى عشرين جنيهًا استرلينيًا في حائل، فيما إذا وصلت هناك وكنت بحاجة للسيولة النقدية. تجري الأمور بشكل جيد حتى الآن ولكن ينبغي لنا تجنب عيون المسؤولين الأتراك. في الواقع إنّ التهريب من قنصل بلد المسافرين بالإضافة إلى التهريب من حاكم دمشق كان أمراً يؤرّق جميع المغامرين الذين ذهبوا إلى ذلك الحدّ، اعتباراً من داوتي Doughty وانتهاءً بغرترود بل⁽¹⁾ Gertrude Bell.

أما الحيلة التي اتبعتها والتي لم أكن أتوقع لها النجاح فقد كانت في غاية البساطة: فقد اقترح مراوي Marawi أن يذهب لمطاردة الغزلان مع بني صخر لبضعة أسابيع! لقد كان الهدف من إقتراح مراوي هو الوصول إلى مخيمات تلك القبيلة، والتي كانت في ذلك الموسم في مكان ما على المناطق الحدودية الشرقية من أرض مؤاب. كانت زيزا⁽²⁾ Ziza استراحة على خط سكة الحجاز تقع على الطريق إلى الجنوب من عمّان وقد اعتُبرت نقطة البداية، فقد كانت مقراً لبني صخر (الصّخور) Sukhur خلال أشهر الصيف. سذهب إلى زيزا بوساطة السّكة الحديد ومن هناك سنسلك طريقنا. كان بنو صخر من أسوأ الغزاة السّلايين وكانوا يتمتعون بسمعة مخيفة، ولكن مع توقيعي على تعهّد خاص بعدم ملاحقة السّلطات لأيّ شخص في حال عدم عودتي وجدتُ نفسي طليقاً. لقد حصلت على إذنٍ من والي دمشق.

ولكنني كنتُ أدرك تماماً أننا إذا ما واجهنا مديراً محلياً أو دوريةً عابرة فستسبب لنا

(1) غرترود لوذيان بل Gertrude Lowthian Bell رحّالة وسياسيّة وعميلة استخبارات بريطانيّة مشهورة (1868-1926)، قامت برحلة شهيرة في سوريا عام 1904 من جنوبها إلى أنطاكية في شمالها، دوّنت أخبارها في كتابها «العامر والغامر» *The Desert and the Sown* (قيد النشر في سلسلتنا هذه). عيّنتها الحكومة البريطانيّة في العراق إبان الحرب العالميّة الأولى فكانت مهندسة سياسته ولُقِّبت بـ «السّت خاتون». وبقيت في العراق بأيّام الملك فيصل الأول كما أسهمت إلى جانب لورنس العرب بإنشاء المملكة الهاشميّة في شرقي الأردن. توفيت متحررة في بغداد ودُفنت بها. من كتبها أيضاً: «من مُراد إلى مُراد» و«ألف بيعة وبيعة».

(2) بركة زيزاء (وتسمّى بالعاميّة: زيزيا) يعود تاريخ إنشائها إلى العصر الروماني، وفي العصور الإسلاميّة كان الحجّاج يمرون بها للتزوّد بالماء.

بالكثير من المتاعب والتأخير. غادرنا دمشق في أسرع وقت ممكن، بعد أن استقلينا الأماكن الوحيدة المتاحة على متن القطار المتجه جنوباً. كانت العرببة من الدرجة الثالثة وقد كانت مكتظة بتسعة وأربعين راكباً مع أمتعتهم. ولسوء حظي التقيتُ في القطار بقائم مقام السُلط وكذلك بمدير عمّان اللذين أكدا لي أنه لن يكون هناك شيء يمكن اصطياذه بالقرب من زيزا فيما إذا كنت أسعى لمطاردة الاوز البري، ولكنهما سوف يضعاني تحت المراقبة! لحسن الحظ غادر الاثنان عند محطة عمّان، فكان بإمكانني تنفس الصّعداء بعد أن تخلصت من برائتهما.

في الثانية من صباح اليوم التالي نزلنا نحن الثلاثة مراوي وأنا وخادمي السّوري ونمنا حيث نزلنا من القطار بين مباني محطة زيزا. ذهب مراوي في الصّباح الباكر ليستطلع المنطقة، بينما استلقيت أنا أرضاً لتفادي أية تعقيدات ممكنة مع السّلطات المحلية. ولقد حالفنا الحظ في ذلك. في القلعة العربية القديمة كان هناك بعض من رجال بني صّخر الذين جاؤوا لشراء مواد غذائية وهم الآن في طريق عودتهم إلى القبيلة مع جمالهم المحمّلة. لسوف يحملون متاعنا بالإضافة إلى متاعهم بأجر بخس غير أنهم لا يستطيعون حملنا. تستقرّ قبيلة الزّبن، أو بالأحرى هي فخذٌ تابع لقبيلة بني صّخر، بعيداً بعض الشّيء إلى الجنوب الشرقي، ربما عشرين ميلاً وراء خط السّكة الحديد. كان علينا القبول بأي شيء يبعدنا عن المنطقة بأسرع ما يمكن، لذا قبلنا عرضهم رغم أنه ينطوي على المسير مشياً على الأقدام.

اختبأنا ذلك اليوم بطوله في القلعة، متخفين داخل القلعة إذ لم تكن لدينا الجراءة على إظهار أنفسنا. ولكنني تمكنت من رؤية محيط زيزا السّاحر وهي مدينة رومانية عربية عظيمة في وسط مقاطعة كانت تعجّ بالسّكان في ربح مضى من الزّمان، وقد تعود مستقبلاً لتستعيد مجدها وازدهارها. رأيتُ خزانات المياه الرّومانية الضخمة التي قدّر تريسترام Tristram أنّ طولها يبلغ 140 ياردة وعرضها 110 ياردات، والتي لا تزال قيد الاستخدام لجمعها وتخزينها أمطار الشّتاء، وبهذا الشّكل كانت توفر المياه لبني صّخر خلال فصل الصّيف. استطعتُ أن أرى أننا كنا قريبين جداً من الأراضي

المزروعة، حيث يتناطح المحراث مع الصّحراء القاحلة لترويضها. كان بنو صّخر يسيطرون على بعض من هذه الأراضي المزروعة ليستقرّوا حولها في فصل الصّيف.

* * *

عند الغسق في اليوم الثامن والعشرين من شهر يناير قمنا بتحميل الإبل وبالتسلل خارج زيزا، مشينا بمحاذاة سكة القطار لمدة ساعة ونصف الساعة، ثم غفونا حتى بزوغ الفجر. كان الطّقس بارداً جداً، ومن عادة العرب أن يجلس بعضهم قبالة بعض للحفاظ على الحرارة بينهم. عاودنا المسير في اليوم التالي متبعين درب قوافل الحجيج ولكن كلاب قلعة ضبا⁽¹⁾ Qalat adh Dhaba نبحت علينا، فركضنا نحو عصابة من الرّجال كانوا يعملون على خط تحت الحراسة التركية، تدثرنا بمنعطفنا الصّوفية وحيّنا الجمع بصوت مرتفع وشققنا طريقنا على عجل قاطعين السّكة الحديدية باتجاه الصّحراء الواسعة.

استطعتُ أن أرى خان الزّيب Khan Zabib - وهي المحطة المقبلة على طريق قوافل الحج - بعيداً إلى يميني بينما كانت سكة القطار قد اختفت تقريباً عن النّظر! كنا أحراراً! في بلد جميل لا حدود له، في صحراء شاسعة بحوافها النّاعمة الجميلة، كانت الصّحراء مكسوة بغطاء أخضر بفعل الرّبيع الزّاهي وكانت الحبارى والطّيحون الرّملي وكذلك الطّيور الصّغيرة، ولكن لا أثر للإنسان.

يُشبه ذلك الهروب من حدود الحضارة هروب التلاميذ من أسوار المدرسة! سنكون من الآن فصاعداً نحن أنفسنا. لن نعتزف بمعلّم ولن يحكمنا قانون ما عدا قواعد الصّحراء القاسية. لن ندفع الضرائب، ولن تشغلنا العودة، لن نجيب على الرّسائل، ليست الحضارة لنا بذات أهمية. فقد نشأت لدينا مسؤولية جديدة ألا وهي الانضباط الذاتي بأكثر صوره صرامة.

(1) تعرف بقلعة الأزلّم، تقع على بعد 45 كم إلى الجنوب من بلدة ضبا (ضباء) بمحافظة تبوك شمال غرب المملكة العربية السّعودية، وهي من محطات الحج المصري في العهد المملوكي، شيّدت في عصر السّلطان الناصر محمّد بن قلاوون.

كنا في تلك اللحظة نبعد عن شرقي البحر الميت حوالي خمسة وثلاثين ميلاً في الحدود الشرقية القصوى لأرض مؤاب، وهي أرض يمكن أن يقول عنها المرء إنها استطاعت «المزج بين الصحراء والزراعة». إذ يمكن زراعة قسم من هذه الأرض بينما تُظهر القصور القديمة أو نُزل الصيد والتي يعود تاريخها إلى العصر الأموي⁽¹⁾، أن الأرض في تلك الأيام لم تكن كما هي عليه الحال اليوم.

تحدّد هذه الآثار الحدود القصوى التي وصل إليها المدّ السكاني، أمّا ما بعدها فهي أراضٍ بور غير قابلة للاستصلاح. تشير الأرض أننا كنا في مركز تجمع مياه تلك الأودية العظيمة، التي تغذي البحر الميت من سهل مؤاب. لا يوجد في هذه المنطقة مياه دائمة بالتأكيد بل مياه الفيضانات الناجمة عن الأمطار في فصل الشتاء، ولكن على بعد خمسة عشر ميلاً إلى الغرب من هذه الأودية الجافة توجد هناك الجداول الدائمة الجريان وعلى ضفافها شجيرات الدفلى وتملأ مياهها الأسماك. ومن هناك تشق طريقها عبر الوديان العميقة، لتهبّط من هضبة يصل ارتفاعها إلى 1500 قدم فوق المحيط منحدره على شكل شلالات رائعة وصولاً إلى البحيرات الراكدة في الأسفل؛ يصل ارتفاع ذلك المنحدر ما يقارب 3000 قدم وبطول 20 ميل. وهكذا نجد أن أرض مؤاب مليئة بالتنوع.

استطاع مراوي Marawi العجوز امتطاء ظهر الجمل المحمّل بالأثقال في حين تابعت بقية المجموعة السير على الأقدام. واصلنا المسير طوال اليوم حتى وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم حين وجدنا عدداً من الإبل الضالة، عندها وكأنما هو

(1) أقام بنو أمية في بوادي الشام وشمالى جزيرة العرب قصوراً شتوية بقصد الخروج إلى البادية والصيد والسمر، ومنها: المشتى، خربة المفجر، الحُرّانة، قُصير عمرة، قصر جبل سيس، قصر الحير الشرقي والغربي، قصر الرُصافة، وفي مشارف البقاع بلبنان قصر عنجر. والخروج إلى هذه القصور في رحلات البحث والصيد بفصلي الخريف والشتاء من أمتع ما يكون، ويعيد المرء إلى أيام الخلفاء الغابرة. ولهذا الموضوع تنمة هي زيارة الخلفاء للديارات النصرانية ببلاد الشام وأخبارهم الأدبية فيها. وأجمل ما كُتب حول ذلك كان كتاب «الديارات» للأصفهاني ومثله للشابشتي.

سحرٌ أصبحت القفار الخاوية غنية بالحياة وبالقطعان التي ترعى العشب. ومن قمة الهضبة التي تلتها رأينا أمامنا مخيماً كبيراً، حوالي الخمسمئة بيت شَعر تمتدّ موزّعة على عدة أميال من الصّحراء. لدى انخفاض قرص الشّمس تتداخل الألوان التي تلقيها التلال وتلقي الخيام بظلالها الدّاكنة الطّويلة، ويرتفع الدّخان الأزرق من جميع المواقد وتساق القطعان إلى حظائرّها. كان مشهداً مشيراً، تلك المقدّمة المفاجئة لذلك المجتمع المتوغّل في القدم والمنطوي على ذاته، مجتمع الإسماعيليين في قفار جزيرة العرب.

«أبناء سام! الابن البكر لنوح،
سابقون دوماً أبناء على باب
جنّة عدن، غير مُدركين للشّمار،
متسكّعين في حين غادر الآخرون؛
متعالين على الفلاحة؛ غير عابئين بالفقر؛
غير شاكرين للهبّات الإلهية،
أداؤهم غناء، ودعاؤهم هباء،
لا يجادلونه عندما يشيح بوجهه.
أشعة الشّمس والمطر لكم،
من حكمة قديمة نسيها عالمنا،
وكذلك الشّجاعة في يوم لا موت فيه.
نحن أبناء يافث Japhet نقف بفرع
يجري في عروقنا اضطرّامٌ للحياة والنّفس،
أمام وجهك، أنحنّي ولا أبالي».

لعلك تطلق أيّ لقب على البدو، تقول إنهم مخفقون وغير أكفيا، شعب بلا طموح، مقدّر عليهم الحياة البائسة في أرض قاحلة، ربما تدعوهم قطاع طرق، غزاة، آفة على المجتمع، ولكن الحقيقة تبقى أن لديهم القدرة على الاستمرار كما عاشوا منذ أيام النبي إبراهيم! حقاً أنهم لم يتطوّروا غير أنّهم بالمقابل لم يتدهوروا أيضاً، ونحن نعلم تمام العلم أنهم بمقدورهم تحسين أنفسهم إن هم رغبوا بذلك⁽¹⁾.



بنو سام

نصوير: كارل رضوان

(1) كلام المؤلف فيه دفاع ضمني عن البدو، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن كلامه كان في عام 1909 فعلى أن نتذكّر أن حياة البداوة في جزيرة العرب آنذاك كانت مثلاً للبساطة وشظف العيش، ولكن عندما ظهرت في تراب الجزيرة في القرن العشرين ثروات الأرض، سرعان ما قامت بين شعوبها البدويّة حضارة باهرة، لا ريب أن أرفع مثال لها هو في أرض الإمارات العربيّة الزّاهرة.

عندما ابتعد عن صحرائه بنى المدن، وبالإيمان وحده غزا العالم. أصبح من الأغنياء عندما أراد، غير أنه قادرٌ على احتقار الغنى والسلطة معاً وبالقدر ذاته، وقادر أيضاً على العودة إلى قفاره ليعيش هناك ألف سنة أخرى. قد يكون ما يزال هناك عندما لا نكون نحن هنا! «لنفترض أن سام ما زال حياً وليس يافث Japhet، ستعيش مكة عمراً أطول من مانشستر وعندما تتحول أوروبا إلى قارة خربة سيكون العرب مازالوا في خيامهم في الصحراء، «متعالين على الحفر؛ غير مباليين بالفقر؛ جاحدين للهبات الإلهية، أداؤهم غثاء، ودعاؤهم هباء، مستمرين في حياتهم كالأهرامات التي رأى أسسها عنما وضعت!»⁽¹⁾.

ذلك الشعور بالتحمل والاستمرارية بالتأكيد ليس عادياً بالنسبة لتلك المضارب الرُّحَّل. ذلك الانطباع يبدو متناقضاً مع تلك القرى المؤلفة من بيوت الشعر، ولكنه حقيقي. يبدو البدوي وكأنه خالدٌ وغير قابل للتغيير كما هي صحراؤه الأبدية. ذلك الانطباع منحنا ما يكفينا من الغذاء للفكر. ماذا عن تلك القلاع العملاقة الخاصة بالصليبيين وراءنا على تلال مؤاب؟ لقد رأى أسلاف بني صخر تلك القلاع عندما جرى بناؤها، وكانوا بلا شك مصدراً للمتاعب الجمة بالنسبة للبناة. تهاوت القلاع وما زال العرب هنا. ماذا عن قصر المشتى Mashatta الأموي، وماذا عن قصر الخرانة Kharana؟

يرعى بنو صخر قطعانهم في ديارهم بين الأنقاض! وقد بنى شيخ قبيلة بني صخر لنفسه منزلاً صيفياً من بقايا قلعة القسطل الرومانية! أين حسابان Hesbon، مدينة سيحون Sihon، التي وقفت في طريق بني إسرائيل؟ لم يبق سوى اسمها، بينما بقيت قبيلة بني صخر تعيش بنفس الطريقة التي كانت تعيش فيها عندما مرّ بنو إسرائيل عابرين حدودهم. رأيتُ خيام بني صخر وقد نصبت إلى جانب آثار الموقر⁽²⁾ Mukawer حيث حكم هيرود وحيت رقصت سالومي!

(1) كتب المؤلف: ميريديث تاونسند Meredith Townsend.

(2) الموقر موقع لقصر أموي يبعد عن قصر الخرانة 35 كم غرباً، و10 كم جنوب غربي قصر المشتى. لكن كاروثرز يكتب اسمه بالغلط: Mukawer.

مرّت بهذه الدّيار حضارات عديدة، كالمصرية والآشورية والفارسية واليونانية والرومانية، وتركت آثاراً لها ثم غادرت. شهدت قبيلة بني صخر على جميع تلك الحضارات من مرصد عُزلتها في الصّحارى الخاصة بها. سمعوا الإسكندر الأكبر وهو يرعد ويزبد وربما طعنوه في خاصرته وضايقوه. ولا شك أنهم شاركوا في جيش خالد بن الوليد عندما هزم الفيالق الرومانية على ضفاف اليرموك، كما شهدوا بعد ثلاثة عشر قرناً وفي المحلة ذاتها تقريباً إبادة الجيش التركي الرّابع.

* * *



مع بني صخر



خيمة حَتمَل الكبيرة

أقمنا تلك الليلة في الخيمة مع العربان الذين أتينا بصحبتهم، والتي اقتصرت ضيافتهم على الخبز وحليب التّوق. وفي اليوم التالي انتقلنا إلى خيمة الشّيخ حَتمَل Hathmel رئيس هذا البطن من قبيلة بني صَخر، حيث شهدنا الضيافة البدوية بأبلغ صورها. كان طول خيمة الشّيخ حَتمَل يبلغ ثمانين قدماً وبدأ أنه كان يبقّيها مفتوحة دوماً. جلسنا على السّجاد، وبينما كانت فناجين القهوة تُدار كان الحديث يأخذنا شمالاً وجنوباً، من الغارات في حلب شمالاً إلى المتاعب في الحجاز، من المؤامرة الأخيرة لابن رَشيد في حائل إلى ما تردّد عن غموض ما يجري في الرّياض. تتداخل تلك الأحاديث السّياسية العربية الخالصة بقدر كبير مع بدعة الأتراك وخطهم الحديدي، الذي لم يزل يعتبر في ذلك الوقت من قبل العرب إهانةً كبيرة لصحرائهم، وعنصرأ يُقلص من حرّيتهم.

عاشتُ للأسبوع التالي الحياة الطّبيعية للبدو خلال فترة الرّكود في فصل الشّتاء. كنا نجلس طوال الوقت ونمضي أياماً طويلة لا نعمل شيئاً سوى الاستماع إلى الحديث اللامتناهي، الذي كان لا بدّ من تحمله، لأنّه كان السّبيل الوحيد للقيام بالأعمال، غير أن الوضع كان مزعجاً للغاية بالنسبة إلى العقلية الغربية. «العجلة من الشّيطان» كلما أسرع الأجنبي في تعلم هذا الدّرس كلما كان ذلك أفضل له لتحسين قدرته على التعامل

مع العرب. وما إن تم التلميح إلى رغبتنا بشراء الإبل حتى بدأ سرد القصص عن سباق الهجن وعن المسافات غير العادية التي تم اجتيازها دون ماء وعن أفضل سلالات الإبل. وكان ذلك بمثابة الفنون الجميلة بالنسبة لتجار الإبل، فالإبل بالنسبة للعرب هي بمثابة الذهب بالنسبة لنا. فهو يعيش عليها ويسيطر كذلك عليها، أما معاييرنا فلا يمكن السيطرة عليها! كانت إبل بني صخر جيدة، ولكن إبل الشرارات أفضل، ولحسن الحظ كان قسم من مضارب أولئك العربان متصلاً بمخيم قبيلة صخر.

هنا اجتمعتُ للمرة الأولى بالشرارات Shararat، وأعترف أنهم لفتوا انتباهي فهم ليسوا بالأناس التقليديين، يعيشون دون مظاهر، ويقومون بالعمل بأكبر قدر ممكن من الكفاءة ليعيشوا حياة متقشفة في أصغر الأراضي مساحة. أظهروا صفاتٍ تفوق المعدلات الطبيعية لقبائل البدو الكبيرة التي كانت تزدرهم لأنهم ليسوا منها. كانوا شعباً بلا أرض ولم يدعوا حقهم بملكية أي أرض، ما خلا تلك الأرض البعيدة جداً والقاحلة في جبل طبيق Tubaiq.

يعطي أبناء الشرارات انطباعاً عن الفقر المدقع ولكن قيل إنهم لم يكونوا بمستوى ذلك الفقر الذي يبدو عليه، واستناداً إلى نوع الإبل التي يمتلكونها فقد كان باستطاعتهم أن يعيشوا على نحو أفضل. لم يكن فرش بيت الشعر البدوي فاخراً، ولكن خيمة الشرارات كانت تعوزها ضروريات الحياة الصعبة، حتى أنها كانت تفتقر إلى القهوة في كثير من الأحيان. غير أن سمعتهم كصيادين كانت جيدة، وكما هو حال جبل طبيق Tubaiq الذي يعتبرونه محمية خاصة بهم، فقد كان ملعباً جيداً لذلك المضممار، يبدو أن ذلك كان سبب إعجابي بهم وبالتالي كانوا ذوي قيمة خاصة بالنسبة لي. فقد كانوا معروفين أيضاً بسادة الإبل، فليس هناك أفضل من أرضهم لشراء الإبل. لقد كانت قفار الشرارات موئل التيه⁽¹⁾ Tih، أيّ الجمل العربي البرّي الحرّ الذكر، كما أخبرنا داوتي Doughty: «له فقط ثلاثة أضلاع، ويركض بسرعة مذهلة قد تفوق سرعة أيّ حصان».

(1) وقد يسمّى: التيه الوحاشي. وهو من أفضل النجائب وأسرعها جرياً.

ويقال إن قبيلة الشَّرارات كانت تسمح لجمالها بالشروود في الصَّحراء شريطة أن تكون محمية من قبل التَّيه؛ ويدَّعون أنهم قادرون على تمييز ذريته بناءً على الأضلع الثلاثة. أما نوق الذَّلُول theluls من الشَّرارات فيُشاد بها من بين جميع إبل غربي جزيرة العرب⁽¹⁾. وهكذا فقد استقرَّ خيارنا على الإبل الشَّرارية، وبعد أسبوع من المفاضلة البطيئة ومن المناقشات الكثيرة اشترينا ثلاث ذلائل أو نياق بـ 11 و 14 و 16 جنيهاً استرلينياً على التوالي. كانت تبدو أصيلة، صغيرة ولكنها قوية وشديدة التحمّل.

أدّت مطاردة ناجحة مع الشَّيخ حثمل إلى رفعت مقامي في نظر البدو، إذ يعتقد العرب أن لا أحد سواهم يستطيع ركوب الإبل وإطلاق النَّار. انطلقنا في أحد الأيام أنا والشَّيخ حثمل وخادم واحد للصيد، ولم يكد يمض وقت طويل حتى أبصرنا قطعياً من الغزلان على بعد ميل واحد من حافة تلّ. استدرنا حولها من أجل تحويلها إلى التلال، وخلال حركتها وجدت الفرصة السانحة والسهلة التي وصلت فيها إلى مرمى النَّار لدي، فعلى الرَّغم من عدم القدرة على مجازاة الغزال في العراء في المنحدرات، فإنّ لديه نقطة ضعف فهو أعمى تماماً على حدود الأفق ولا يمكنه معرفة ما سيجده على الجانب الآخر، أبطأ القطيع مسيره دون أن يدري واجتاز القمّة بحذر، مما أعطى المطارد الفرصة لربح الجولة على أرض الواقع، وأحياناً كانت الفرصة تصل لحدود أن يترجّل المطارد لإطلاق النَّار.

وهكذا استمرّينا بين ركوب صعب ثم ترجّل وإطلاق النَّار ثم معاودة الامتطاء والعدو وإطلاق النَّار مرة ثانية، وهكذا دواليك حتى اصطدنا تسعة غزلان. كان صيداً جيداً بما ينطوي عليه الأمر من ركوب صعب وإطلاق سريع للنار. في لحظة واحدة وقفتُ على مقربة من القطيع بما يقارب الثلاثين ياردة من آخره. تعلّق قلب حثمل فوراً بمخزن بندقيتي⁽²⁾ التي أطلقتُ منها خمس طلقات بينما كان يذخر بندقيته للمرة الأولى!

(1) يتغاوى العرب بالنوق الشَّرارية، ويدفعون بها أثمناً باهظة.

(2) يعني بندقيّة المانليخَر النمساويّة، وهي طبعاً ليست نصف آليّة كما قد يظن القارئ من وصف كاروثرز، بل تعمل بمغلاق يدوي Bolt Action أو كما تُعرف بالألمانيّة بتعبير: Repetier-büchse.

احتفلنا لدى عودتنا إلى المخيم مساء ذلك اليوم بوليمة ضخمة، في نهايتها عرض عليّ حثمل أن يحملني في رحلة الصيد المقبلة على واحدة من أفضل إبله الذلول إذا ما أعطيته بندقيتي لدى عودتي - التزم كلانا بالصّفقة، وأكثر من ذلك فقد منحني زوجاً من سروج الإبل التي كانت موضع حسد نساء البدو اللاتي رأينه في طريقي إلى تيماء وعند العودة بسبب تصميمهما ولونهما. كانت مستضيفتي، قبيلة بني صخر، قبيلة نموذجية على المناطق الحدودية العربية. منذ وقت ليس ببعيد، وذلك قبل أن يفرض الأتراك سلطتهم، كان بنو صخر يشكلون تهديداً للأراضي الآمنة.

وصفهم داوتي Doughty بأنهم «قبيلة قوية ثم قال عنهم فيما بعد بأنها هائلة، بعدد فرسانها، لذا لم يكن لدى أحد الجرأة بعبور تلك المنخفضات إلا ليلاً أو بحماية عصبة قوية. تم اختبار غطرستهم البدوية التي لا تُطاق من قبل حملة عسكرية بقيادة محمّد سعيد⁽¹⁾ القائد لقافلة الحج الآن، القائد الظافر الذي تمرّس على هذا النوع من الحرب الأهلية منذ شبابه. شعر العرب بالإحباط، فمعظم قوتهم تكمن في ألسنتهم وقد مضت الأيام التي لم يكن فيها من يقودهم، صادر لهم الپاشا الخيول والماشية.... أما فساد العرب المقيمين على الحدود فمزدوج، فهم أقرب للاستقرار بينما يقيمون في الصّحراء: والبدو الآخرون يتحدثون عنهم بمقت».

(1) يقصد محمّد سعيد پاشا شَمْدِين كبير عشيرة الدّقورية الكرديّة، الذي ولي إمارة الحج في أيام السّلطان عبد الحميد خان الثاني.



رعاة قبيلة بني صخر



ذلائل وفلاتها

لبنى صخر سمعة مفزعة، فالقبائل التي تتراوح على مشارف الحضارة تكون أكثر عدوانية وأكثر خطورة من تلك التي تعيش منعزلة في الداخل ولا تتصل بأي نفوذ أجنبي. والحقيقة هي أن بني صخر ليسوا مستقلين تماماً، فرغم سيطرتهم على أراضٍ صحراوية شاسعة يمكنهم التراجع إليها، غير أنهم يعتمدون على مراعيهم الصيفية وعلى الرّي في الأراض التي يستقرون بها بشكل مؤقت في البلقاء Belqa، وبالتالي يدخلون في حيز تطبيق القانون. ولذلك يهذبون من تصرفاتهم كي لا يتعرضوا لملاحقة الأتراك. هناك قبائل بدوية أخرى «خطيرة إذا تعرضت للاستفزاز وعقيمة إذا تعرضت للهجوم»، لأنها تبقى على مدار السنة بعيدة عن متناول السلطة، فقد أوجدت قانوناً لنفسها.

ولكن بني صخر ليسوا كذلك. فعلى الرغم من تجوالهم في المناطق الداخلية حيث ينعدم القانون خلال ستة أشهر في السنة، يقضون الجزء المتبقي من السنة في مضارب في البلقاء Belqa حيث ينبغي لهم التعايش مع الفلاحين بسلام نسبي. ولكن الصحراء تبقى دوماً قريبة هناك خلفهم كالملاك الحارس، حيث يمكنهم اللجوء إليها في حالات الطوارئ. فعلى سبيل المثال أثناء الحرب، عندما تعرضت قبيلة صخر لخطر فقدان قطعانها من الإبل بسبب حاجة الأتراك لها، قامت بمصالحة وتسوية خلافاتها مع أعدائها والتراجع مع جميع القطعان إلى أغوار القفار المنيع.

نظرنا ونحن نجلس هناك في خيمة لبني صخر مرة أخرى إلى الأراضي المسكونة بعين جديدة. لقد اكتسبنا إحساساً غريباً من الحرية يقارب الاستعلاء. لا يمكن لأي نفوذ أن يصل إلينا، فقد كنا بعيدين عن متناول أطول ذراع للقانون. نظرنا إلى العالم وراءنا تماماً كما يفعل متسلق الجبال عندما ينظر من أعلى قمة وصل إليها حديثاً إلى الأرض أدناه بشيء من اللامبالاة لما يحدث هناك، شعور مريح بالعزلة.

عندما قلّ الماء أو المرعى تحركنا كالطيور البرية المهاجرة بحثاً عن مصادر أفضل للغذاء والماء، وبعد عدة تنقلات وجدنا أنفسنا على بعد حوالي 30 ميلاً إلى الشرق من القطرانة Qatrani، وهي المرحلة التالية إلى الجنوب من خان الزبيب Khan Zabib

على طريق الحجّ. كانت البلد هنا أعلى فنحن على ارتفاع حوالي 3000 قدم. نظرنا شرقاً إلى الأفق البعيد، كانت طبيعة قاسية، صعبة، عديمة اللون وبغيضة.

وعلى النقيض من ذلك، كنا ما نزال نرى خلفنا خطاً أزرق خافتاً يدلّ على جبال مؤاب وتلال القدر hills of destiny، وحدود المسيحية والإسلام التي كانت في السابق محمية بالقلاع الصليبية مثل قلعة الكرك Karak وقلعة الشوبك Shaubuk، المنتصبتين كمنارتين على ساحل الصحراء، حيث المدّ والجزر المستمرّان يمدّان حياة البدو الرّحل بحركة لا تهدأ. هاجت العواصف وتكسرت في فترات معينة من التاريخ، فتجاوز رجال الصحراء الحواجز إلى الأراضي السّكنية. لقد حدث ذلك سابقاً وقد يحدث مرة أخرى، إذ لم يكن عرب الصحراء أكثر اتحاداً منهم اليوم منذ عهد النّبي!

إلى الجنوب منا وليس بعيداً يقع وادي باير Bayir، الذي يعتبره بنو صخر مقدّساً بالنسبة لهم لأن قبر جدّهم الأعلى يقع في ذلك الوادي. وقد قيل إن أحداً لا يجرؤ على دخول الوادي دون التّضحية مسبقاً ببعير. كان مقدراً لي أن أرى قبر جدّهم الأول في وقت لاحق في ظل ظروف مثيرة، عندما كان من المقرّر أن أقدم ندوري المعلّقة. صحيح أنهم من سلالة العرب الشماليين، ولكن داوتي Doughty كان يعتقد أن أصلهم يعود إلى أبعد من ذلك جنوباً عندما يقول «حتى بنو صخر فقد كانوا من العرب الجنوبيين القدامى، وديارهم القديمة كانت مدائن صالح نفسها، حيث رويت عنهم الأساطير بأنهم من ذرية تلك الصّخور».

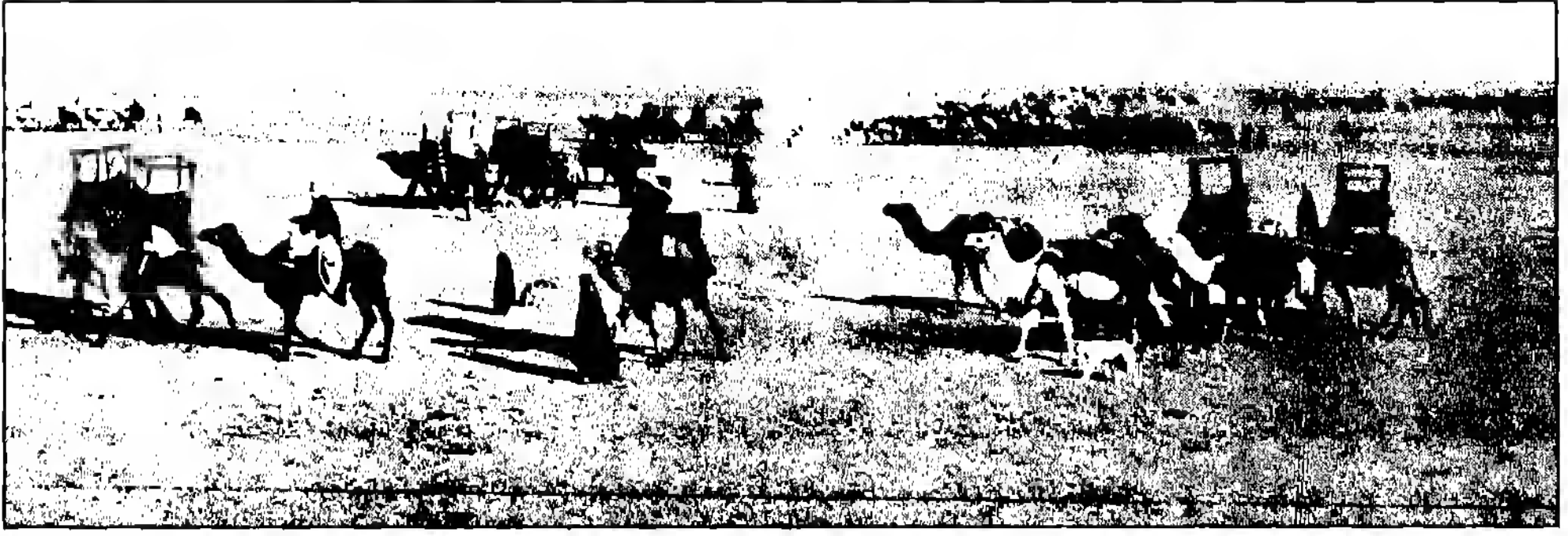
«أبناء الصّخور» هو لقبهم، بينما يقول آخرون أن أصل اسمهم نابع من الصّخور⁽¹⁾ البركانية السّوداء التي تحمي أراضيها. لو أن بني صخر عاشوا في مسار تلك الصّخور البركانية حول جبل الدّروز وخلف وادي السّرحان فقد يقبل المرء تلك النّظرية، ولكن ليس هناك من منطقة بركانية في أراض القبيلة في الوقت الحاضر. إنّ داوتي

(1) كلام مضحك، فنسبة جميع القبائل تكون إلى اسم جدّها الأعلى، و قبيلة صخر تتسب إلى صخر بن جرم، وهو ثعلبة بن عمرو بن الغوث بن طيء.

Doughty على حق، ما لم يكن هناك مصدر ثانٍ للاشتقاق، ذلك بأن مرابعهم الصيفية تضم المنحدرات الصخرية لجرف جبل مؤاب المنحدر باتجاه غور الأردن.

على أي حال، كانت قبيلة بني صخر في فترة من الفترات سيّدة لرقعة أوسع من البلاد، بما في ذلك وكما يقال أراضي تبوك وتيماء. في عملية الترحيل الأخيرة شاهدتُ القبيلة المهاجرة بكامل أبتها. وبتقدّمهم على جبهة واسعة أعطوني انطباعاً حياً كيف كان يبدو بنو إسرائيل، عندما تجولوا قديماً من بئر إلى آخر في هذه المنطقة وإلى الغرب قليلاً. لقد كان مشهداً مشيراً أن ترى تحرك قبيلة بأكملها، تتحرك أولاً قطعان الإبل يحدوها الفتيان والفتيات، ثم تتبعها الأباعر المحملة بالمتاع من خيام وأغراض منزلية وأطفال صغار، بينما تمشي الحريم أو تمتطي أعلى الأحمال وهي تنشد الأغاني البدوية أو تتحدّث إلى جيرانها.

أما الرّجال المسلّحون فيمتطون صهوات جيادهم تتقدّمهم الكشافة أو تسير في المؤخرة لمراقبة الأعداء، والانخراط بين الحين والآخر في مسابقة الكلاب السلوقية أو في إرسال صقورهم لصيد الحُبّارى والأرانب البرية. عندما وجد الشيخ أرضاً مناسبة للتخييم أشعل ناراً في إشارة منه إلى بقية القبيلة المنتشرة على نطاق واسع من الصّحراء. يدلّ الدّخان إلى موقع خيمة رئيس القبيلة فيجتمعون حولها على شكل مجموعات، عموماً في الأغوار أو على حواف الوديان كي يكون مأوى لهم ليتجنبوا الرّياح. رُفعت المقصورات السّوداء، وبدأت كل أسرة حياتها الخاصة من جديد، كما لو أنها لم تنتقل أو لن تتحرك مرة أخرى. اجتمع الرّجال حول القهوة وعادوا يمارسون خمولهم المعتاد من جديد إلى أن تتحرك فيهم روح الحماسة للخروج في غزو، أو للانتقال إلى مكان تخييم آخر حسب الضرورة.



القبيلة المرتحلة

تصوير: كارل رضوان

كُسرت الرّتابة في إحدى الأمسيات بسبب الخوف من هجوم قد تشنه قبيلة معادية. وعَلّت الصّرخات مستدعية الفرسان من خيمة إلى خيمة عبر المخيم بسرعة مدهشة. تحوّل الخمول البدوي إلى إثارة محمومة. أسرع كل من يملك جواداً أو يستطيع استعارة جواد إلى التسلّح وامتطاء جواده والانطلاق، وخرجت النّساء أمام خيامهن لتوديع رجالهن، بينما انطلق الرّجال الذين لا يملكون جواداً على أقدامهم، بينما ينشغل الفتیان والرّجال المسنّون برعي الإبل قرب الخيام.

نادراً ما يتم دخول المخيم في الحروب البدوية أو أن يتم انتهاك حرمة الخيام. لذلك يغادر جميع الرّجال القادرين على القتال المخيم دون خوف من أن تنهب ممتلكاتهم أو تُنتهك حرّمات نسائهم. الغارة العربية هي نوع من أعمال الخطف والاستيلاء من خلال الانقضاض المفاجئ على العدو الغافل وجمع كل الإبل التي تقع تحت سيطرته والهروب قبل القبض عليهم. تحوّل الذعر في هذه الحالة بالنسبة لنا إلى سراب. غامر الغزاة في الهجوم على مخيمنا ولكنهم أعطونا الفرصة لمعرفة عدونا وقوتنا. سمعنا بعد يومين عن معركة جرت بين الحويطات Huwaitat وعرب الحسا⁽¹⁾ Al Hasa

(1) ليس المقصود بالحسا هنا منطقة الأحساء على السّاحل الشرقي لجزيرة العرب، بل هو وادٍ في الأردن يقع إلى الجنوب الشرقي من جبل مؤاب وإلى الجنوب من القطرانة، وإلى جهة الشرق منه باير.

مما أدى إلى وقوع عدّة إصابات. وعلى الأرجح كانت تلك الغزوة استمراراً للغزوة الفاشلة التي وقعت عندنا.

لم تكن قبيلتا الحويطات وبني صخر على مودّة، وكلّ منهما كانت تُحسب على قبيلة من القبائل المتحاربة. قبيلة بني صخر قبيلة قوية يمكنها حشد الرّجال المسلّحين والخيول التي تعدّ أعظم مصادر القوة في حرب الصّحراء. والإغارة على الهجن عامل ضعف تسهل مهاجمته من قبل الفرسان البدو، لذا تجد الغازين المنظمين يستخدمون الخيل والإبل معاً، بحيث تباشر الخيول الهجوم إلى أن تنعقد المعركة الفعلية.

هذا ويبلغ تعداد إبل قبيلة بني صخر بحدود العشرين ألف رأس، وهي ربما قادرة على حشد خمسمئة رجل مسلّح.

* * *

انتهت ترتيباتي الآن تقريباً، وما من سبب يمنعنا من البدء باستثناء أحد أهم أولويات السّفر في الصّحراء ألا وهو الرّفيق أو جواز السّفر البشري. نظام الرّفيق رائج عند البدو الرّحّل غير قادرين على القراءة والكتابة، فإلى من ينبغي أن نقدّم جواز السّفر أو رسالة التعريف؟ لذا يأخذ البدوي رفيق سفر لضمان سلامة درب المسافر في أراضي عشيرته. وفق العرف، إذا عزم عبد الله المرور عبر أراضي قبيلة حُمود ينبغي أن يأخذ رجلاً من قبيلة حُمود ليكون في أمان، وبالتالي تكون سلامة عبد الله هي مركز اهتمام أعضاء هذه القبيلة.

لا أعتقد أنه ينبغي لي الاعتماد سوى على رجل من الشّرات أو ربما من المخيم المشترك بين الرّولة والشّرات في رحلتي. أما الخطر الوحيد الكامن فهو من الغزاة الممارسين للنّهب من قبائل شَمَر Shammar والحويطات Huwaitat وبني عطية Bani Atiya، الأمر الذي لا ينفع معه حارس. لذا اتخذت من رجل من الشّرات رفيق درب لي وأخذت أرجو حصول الأفضل. كنا في ذلك الوقت في السّادس من فبراير، وقد كان الطّقس بارداً جداً مع القليل من الثلج.

على الرّغم من إظهار الصّحراء لبعض علامات اقتراب الرّبيع، لم تكن المراعي كافية لتمكين الجمال من الاستغناء عن المياه فترة طويلة كما سيكون عليه الحال بعد شهر من الآن. لذا كانت قطعان بني صّخر ترعى في مناطق تتوفّر فيها المياه على بعد حوالي ست ساعات عن القبيلة، وقد أرسلتُ إبلي معهم لتمكن من شرب كميات كبيرة من الماء لآخر مرة قبل مباشرة السّفر، لأننا سنمضي لمسافة لا تقلّ عن 100 ميل قبل أن نصل إلى أيّة منطقة يُتوقع أن يكون فيها ماء مرة أخرى، وحتى توفّر الماء هناك لم يكن مؤكّداً. كان بحوزتنا أربع قِرب من جلود الماعز مليئة بالماء لتكفيّنا نحن الأربعة ولمدة خمسة أيام.

كان القمر بدرًا، وقد هدّنا إلى الاستفادة من ذلك لعبور المنطقة الخطرة، لذا وعند غروب الشّمس تسللنا خارج مخيم بني صّخر وتوجّهنا صوب الجنوب الشرقي.

* * *

الفصل الثالث

الانطلاق إلى تيماء

«في أرض البرية والحفر، في أرض الجفاف وظلال الموت. في أرض خواء لم يمر
أو يسكن بها إنسان». - إرميا

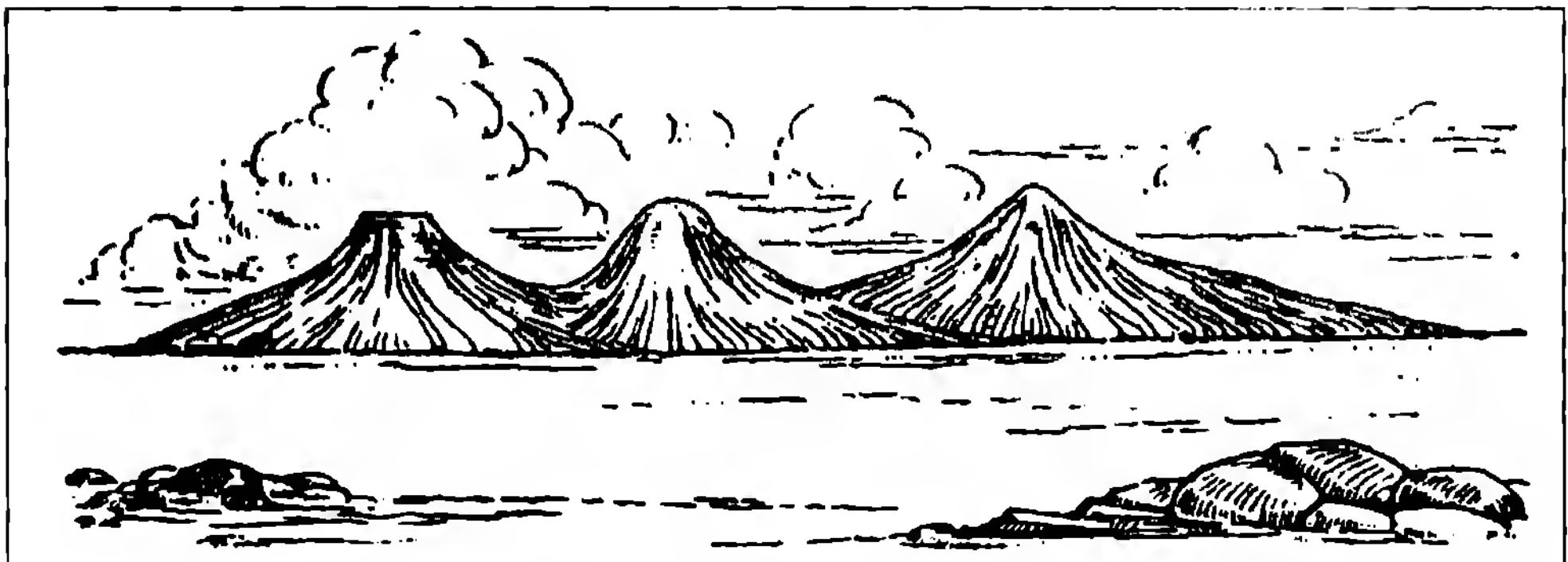
ليلة صحراوية تزحف السحب في سمائها تحت أضواء القمر المتقطعة لتفتح أمامنا
الطريق. كان علينا قطع حوالي مئتي ميل للوصول إلى أرض النفود الكبرى حيث كنا
نأمل في العثور على المَهَاة، قد نجد لها قبل الوصول إلى الرمال، ولكننا كنا نعرف أننا
سنصل إلى النفود. ارتحلنا سريعاً حتى منتصف الليل ثم أنخنا جمالنا ونمنا بجانبها
حتى بزوغ الفجر، ثم عاودنا الحركة مع بزوغ الفجر ولبضع ساعات قبل التوقف
لتناول بعض الطعام. تلك هي عادة العرب عند السفر عبر المناطق الخطرة، فقد
علّمتهم الخبرة الطويلة أن أسلم خطة هي «مواصلة التحرك». فإذا ما ناموا في منطقة
ما عليهم أن يتحركوا ويغادروها سريعاً قبل أن يأكلوا شيئاً؛ أما إذا أكلوا مساءً فعليهم
مغادرة تلك المنطقة ليناموا في مكان آخر.

كنا نعرف الجزء الذي أمامنا أنها أرضٌ خاوية ليس فيها من أحد، ولم يكن هناك
مَن يستفيد من تلك البقاع سوى قبيلة بني صخر التي تركناها وراءنا، إنهم ينزلون في
هذه القفار للاستفادة من الرعي في فصل الربيع. كُنَّا نأمل ألا نرى أحداً، لأننا إن
التقينا بأحد فلا بدّ أنه سيكون عدواً مما سيثير المشاكل. نحن نعبّر الآن نقطة اللاعودة،
حيث اعتاد الغزاة ghazzus المرور جيئةً وذهاباً إلى سوريا، لذا أسرعنا في اجتياز تلك

المنطقة. كان لدى الوديان والمنخفضات البيضاء ذوات الصخور الكلسية الأثر الوحيد على بقايا المراعي. لاحظتُ أن جميع مسایل الماء تجري الآن باتجاه الشمال الشرقي إلى أراضي السرحان، ذلك الحوض الواسع والقائم بحد ذاته هو السمة الرئيسية في صحراء الجنوب السوري. يجمع حوض السرحان بالإضافة إلى غور الجوف المياه المتجمعة من حوالي 36,000 ميل مربع.

في تلك النقطة ودّعنا وراءنا كل ما هو معروف من معالم واتجهنا إلى الجنوب والجنوب الشرقي عبر القفار المجهولة، كما كانت. إلى أن التقط رفيقي الشراري بوصلته، إلى يميننا تقع الثلاثاوات (الثلاث أخوات) Thulaithukhwat، أما أمامنا فصخور وقف Waqf الناتئة التي مررنا بينها كحجر الصوّان. تضائلت المراعي بالتدريج إلى أن غابت تماماً عن النظر وأصبحت السهوب البيضاء المتموجة أراضي صخرية سوداء.

أخذت التموّجات تنبسط شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت الأرض منبسطة تماماً، أسرعنا للدخول في الأراضي الواسعة المفتوحة، المسطحة والملساء كطاولة البلياردو والسوداء كقبعتك. هذه هي الأرض المعروفة بأرض الصوّان. اعتقدت أن البلقاء Belqa أرض جميلة مفتوحة ولكن هذه الأرض تبدو كالمحيط مقارنة ببقية الأراضي. عندما تلاشت أراضي ثلاث أخوات Thulaithukhwat والوقف Waqf عن النظر، جالت العيون شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً في الأفق فلم تقع على شيء. تحركنا نحن الأربعة في تلك القفار مثل النمل في ملعب كرة التنس!



وحتى هذا الفراغ لم يكن كما بدا عليه الأمر لأول وهلة، فقد وجدناه يتقاطع مع أودية جافة استمدّت منه وجودها حتى وقفنا على حافتها. وصلنا أولاً إلى وادي باير Bayir وفيه استرحنا قليلاً وتناولنا طعامنا، لا بدّ أنه كان مسيلاً هاماً. بلغ عرض المنحدر 300 ياردة وفيه كانت المياه قد شقت قنوات عميقة.

كان هناك الكثير من الشجيرات الصغيرة والقليل من أشجار السدر، وبعيداً إلى الغرب كانت هناك نقطة علامّ معروفة باسم «متاهة باير» Mataha Bayir تقوم بإرشاد المسافرين التائهين إلى مواقع الآبار وإلى أطلال موقع باير Bayir. قطعنا وفي الوقت المحدد الرّؤوس الثلاثة لوادي غرا Ghara وفي نهاية المطاف وصلنا إلى وادي رسا Rasa حيث بتنا لليلتنا في ذلك الوادي الرّملّي العميق. لقد كان منخفضاً واسعاً من الأرض يحتوي على بعض النباتات لتغذية الإبل وعلى عددٍ محدودٍ من الأشجار وعلى الكثير من الحيوانات.

حافظتُ على إخلاصي للمتاحف التي وظفتني، فقد كنت وعلى الرّغم من الرّكوب شبه المستمرّ للإبل أنصب الفخاخ كل ليلة لصيد حيوانات صحراوية قليلة في الصّباح. كانت المسألة الأكثر صعوبة التي واجهتني حينها هي المحافظة على تلك الحيوانات إلى أن أجد نفسي قادراً على سلخها، وقد عفوت عن عدد منها لأنها لم تكن بالمستوى المطلوب! كانت المنطقة مليئة بالحياة البرّية للحيوانات الصغيرة حتى بدت بعض الأماكن وكأنها أقراص من الشّمع بسبب الحفر التي تحتويها، والتي كانت تغور تحت وطء أرجل الجمال لتصل إلى ركبها. كما كانت هناك أيضاً جحور معزولة تدلّ على وجود الجرابيع أو فئران الكنغر. كان الغزال غائباً تماماً عن هذه المنطقة لأسباب واضحة وهي عدم وجود مرعىّ له، وحتى أرانب الصّحراء الشّائعة عادة، تجدها نادرة هنا. حتى الطّيور كانت نادرة أيضاً باستثناء غرابيين تبعانا عدة أيام على خجل ناعقين وكأن لسان حالهما يقول:

«إنه من عادة المسافرين في هذه المنطقة ترك مكافأة على شكل جيفة للغربان!».



بادية أرض الصّوّان

قريباً من هنا وإلى الشرق تقع مسارات اثنين ممّن سبقني إلى هذه المنطقة وهما فالين Wallin وبالغريف Palgrave، وعلى الرّغم من أن بداية كلّ منهما كانت مختلفة فالأول باشر رحلته قريباً من الطّفيلة Tafilá والآخر من معان، غير أن كليهما سعى لتحقيق نفس الهدف في وادي السّرحان: آبار أويسط Waisit التي تقع على بعد حوالي 40 ميلاً إلى الشرق من مخيّمي في وادي الحّسا⁽¹⁾. لكن أياً منهما لم يستطع إضافة الكثير إلى خريطة المنطقة؛ في الواقع فإنّ خريطة عام 1909 لم تقدّم سوى جزء كبيراً من بقعة بيضاء اللون، جاء فالين ليشير في تلك البقعة إلى بركة بايق⁽²⁾ pond of Baig وهي بركة ماء تشكّلت بسبب مياه المطر في الجزء العلوي من وادي باير Bayir، لأنّه لم يأت على ذكر الآبار أو الأطلال. أما الأسم الآخر على خريطته فقد كانت البسيطة

(1) ذكرت أعلاه أنّ الحّسا وادٍ في الأردن يقع إلى الجنوب الشرقي من جبل مؤاب وإلى الجنوب من القطرانة، وإلى جهة الشرق منه باير.

(2) هكذا يبدو لي الاسم كما كتبه المؤلف بالإنكليزية نقلاً عن فالين، ولعلّ القصود به باير. ولا أدري إن كانت هذه البركة ما تزال موجودة.

Albuseita، وهي نقطة علام مميزة على الأرض وسنلتقي بها مرة أخرى.

أما بالغريرف Palgrave فقد أضاف اسم قبيلة واحدة وهي قبيلة الشرارت Shararat وصفة واحدة وهي «رملية»! أما غوارماني Guarmani الذي اتبع الطريق جنوباً إلى تيماء بخط مواز لمساري ولكن إلى الغرب قليلاً، فقد أضاف أسماء كثيرة ومعظمها يمكن التحقق منه اليوم. ارتحنا الآن من الشعور بأننا معروضون للاجتياح في أية لحظة عابرة من قبل الغزو، وما عدا شعورنا بنقص المياه لكننا شعرنا بالكثير من الراحة في سفرنا ذاك.

أسرعنا الخطى، ولكن ليس كمن يدفعه حافظ ما بحيث يتم حساب كل دقيقة. سافرنا لمدة اثنتي عشرة ساعة من أصل أربع وعشرين، كنا نتناول وجبتين: الأولى في التاسعة صباحاً والثانية في السادسة مساءً، وكنا ننام بجانب إبلنا في العراء. لم يكن هناك رتابة في الحدث على الرغم من تشابه الأيام، غير أن كل يوم كان يمثل حياة جديدة. عند بزوغ فجر يوم جديد فوق حافة العالم الأسود كانت تبدو لنا نفس المساحة اللامتناهية أمامنا كما لو أنها ستدوم إلى الأبد. بدت عند الفجر بأفضل حللها، صخور الصوّان بدت زرقاء اللون، ومناطق واسعة بدت وكأنها بقعة ماء تشع تحت أشعة الشمس، سراب كان قد لقه الصمت. حتى الفجر كان قد لقه الصمت كبقية اليوم دون أن يتم كسر حاجز ذلك الصمت حتى بصوت طائر مغرد. أما قُبَرَات الصّحراء القليلة فكانت وحيدة وأصواتها تشبه محيطها في كآبته.

بدت تلك الطيور الصغيرة وكأنها تغرد خارج سربها في ذلك الخواء، ولكن في اليوم التالي رأيت الحيوانات النموذجية الخاصة بتلك المنطقة الصخرية، ألا وهي النعام. ونحن ننحدر إلى أسفل وادي هدرج Hedrij أفرعنا ثلاثة من تلك الطيور الهجينة، فقد أخذت على حين غرة، لم أرى سوى ثلاثة أعناق طويلة تختفي عن الأنظار؛ حقاً، «متى تناولت إلى هذا الحد فهي أعلى من الفرس وراكبه»، كانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة التي ألمح فيها ذلك الطائر النادر والمثير للاهتمام، رغم أنني قطعت ستمئة ميل في أكثر مناطق لجوئها سريةً.

على الرغم من قيام الآشوريين بصيد النعام منذ زمن بعيد، وقد ورد ذلك في تاريخ زينوفون⁽¹⁾ Xenophon، لم يتم الاعتراف بها كجنس مستقل إلا في أواخر عام 1909، ومن المؤكد أنها ستضاف إلى قائمة المخلوقات المعرضة للانقراض. خلافاً للمهاة التي تبحث عن حماية لها في تلك القفار الرملية الشاسعة، تعيش طيور النعام في السهول المفتوحة، لذا فاصطيادها أسهل بكثير ولم توفر لها الصحراء الجنوبية الكبيرة الحماية، إنه طائر نادر جداً إن لم يكن قد اختفى من تلك البقاع. قيل لتشيزمان Cheesman من قبل دليله العائد لقبيلة مُرّة Murra إن النعام «قد اعتاد القدوم إلى صحراء يبرين في أيام جدّه، الذي كان آخر من اصطاد نعاماً من قبيلة مُرّة»، وأضاف قائلاً: «إن النعام ما زال موجوداً في الصحراء الجنوبية العظمى بالقرب من نجران وفقاً للتقارير المحلية».

وتدلّ تجربة توماس Thomas على أن النعام كان قد تم اصطياده في السهول جنوبي الصحراء من قبل أفراد حراستي في السنوات الماضية، ويرجع سبب انقراض النعام في السهول الجنوبية إلى مطاردته من قبل البدو المسلحين ببنادق حديثة. أخبرني فيلبي Philby أنه لم يسمع عن النعام (في العصر الحديث) في جزيرة العرب جنوبي صحراء «فقد انقرضت في الربع الخالي منذ أربعين أو خمسين سنة وفقاً لما يرويه البدو». ولكن تم الحفاظ عليه في الحِماد الشمالي على الرغم من عمليات الصيد الجائرة التي قامت بها قبائل الصُّلُبة Suluba والشرارات Shararat.

أصبحت طيور النعام معروفة لنا مثل المها بشكل رئيسي كأجناس معرضة للأسر تم جلبها إلى بغداد ودمشق. فقد تبين من خلال المعلومات الشخصية أن مشاهدة تلك الطيور بحالتها البرية أقل بكثير مما كان عليه الوضع في الماضي. عندما كان النعام يجول في الأيام الماضية في جميع أنحاء الصحراء السورية حتى ضفاف نهر الفُرات،

(1) زينوفون (وباليونانية: كسينوفون) 430-354 ق.م. مؤرخ يوناني من أثينا، كان تلميذ سقراط. اشترك مع الفرس في حروبهم، وله كتاب شهير يعرف بالأناباسيس Anabasis (الزحف إلى داخل البلاد) أرّخ فيه تفهقه مع رجال قورُش الأصغر آلاف الكيلومترات.

شاهدها العديد من الإنكليز العاملين لدى شركة الهند الشرقية. فعلى سبيل المثال شاهد السيد بارثولوميو پليستد Mr. Bartholomew Plaisted العامل لدى شركة الهند الشرقية خلال عودته الى إنكلترا عن طريق البصرة و«عبر الصحراء الكبرى إلى حلب» عام 1750، شاهد النعام الى الشمال من وادي حوران الذي يبعد 25 ميلاً من نهر الفرات.

وفي عام 1771 قام السير أير كوتي Sir Eyre Coote بالرحلة نفسها ووجد بيض النعام قرب الطيبة Taiyibe الواقعة قريباً من طريق القوافل العابرة من تدمر إلى دير الزور على ضفاف الفرات، بينما في عام 1774 أُهدي إلى أبراهام پارسونز Abraham Parsons الذي كان يشغل سابقاً منصب القنصل في إسكندرونة، خمس عشرة بيضة ساخنة (تحتوي على أفراخ نعام) أُتي بها من أقصى الشمال - إلى الشمال من الطيبة Taiyibe والتي لا يزيد بُعدها عن ثلاثة أو أربعة أيام إلى الجنوب الشرقي من حلب. وقد أُكّد ذلك بوركهارت Burckhardt بقوله «كان أهل حلب يجلبون معهم إلى بيوتهم في بعض الأحيان نعاماً قد تم اصطياده في رحلات تستغرق يومين أو ثلاثة أيام شرق حلب».

بعد بضع سنوات، انطلق السيد إروين Irwin العامل لدى مؤسسة مدراس Madras على عَجل، في مهمة لا تحتمل التأخير، من حلب الى البصرة مباشرة، فقد عثر فريقه على عش يحتوي على خمسة عشر بيضة نعام في 1 مارس 1781 بالقرب آبار جبّ الغنم⁽¹⁾ Jubb al Ghanam في منتصف الطريق بين حلب وبغداد. وقد سافر الميجور جون تايلور Major John Taylor التابع لمؤسسة بومباي عام 1789 خارج الهند براً بالطريق الصحراوي وسجل مشاهدته للنعام والبيض في ذات المكان الذي ذكره د. پليستد ولكن إلى الجنوب وليس الشمال من وادي حوران.

(1) كتب المؤلف: موضع مائي يقع على بعد حوالي 25 ميلاً إلى الجنوب والجنوب الغربي من الرّحبة، و45 ميلاً إلى الشمال الغربي من البوكمال، وكلاهما على نهر الفرات. وقد غاب الاسم عن الخارطة منذ زمن طويل.

وثمة ذكر آخر للنعام كان عام 1797 عندما رأى أوليفيه Olivier، وهو مبعوث فرنسي إلى تركيا وبلاد فارس خلال فترة الاضطراب السياسي في الشرق الأوسط، رأى النعام في نفس المنطقة التي وجدها فيها إروين Irwin تعشش، أي إلى الغرب من الرّحبة Rahba على نهر الفُرات.



صيد الآشوريين للنعام

وفي وقت لاحق تمّ اصطياد النعام إلى الشمال من موطنها، ثم أصبح من الصعب جداً الحصول على معلومات جديدة عنها. رأى بالغريفث Palgrave مجموعة كبيرة منها في الجزء الجنوبي من وادي السرحان، وكذلك رأى داوتي Doughty آثار أقدام حديثة على الحافة الشمالية لحرّة خيبر Khaibar Harra، ويقول: «إنها تنحدر إلى سهل مدائن صالح، وقد رأيتُ آثار أقدامها في إثلب Ethlib» وهي هضبة في سهل هجر Hejr. فضلاً عن ذلك، حينما كان مقيماً في قلعة في مدائن صالح، أحضر

الصيادون بيوض نعام وتناولوها، «كان طعم العجة لذيذاً»، في حين أن الدّخل السنوي لأحد معارفه من صيادي قبيلة الهتيم Heteym كان يحصل عليه من جلدين لدى وصول الحجاج من مكة. كان يبيع الجلد الواحد بـ 40 - 45 ريالاً. وقد أمسك ذلك الصياد نفسه رألين⁽¹⁾ كانا قد تربيا في ساحة القلعة.

لا شك أن الخط الحديدي الحجازي قد ساهم في إبعاد النعام عن المنطقة المحيطة بالشبكة الحديدية. ومن المسافرين المعاصرين توصلنا إلى بعض المعلومات، فقد أخبر أحد صيادي قبيلة الشرارت موزيل Musil أن النعام يتردد على منابع وادي طبّال Wadi Tabbal في أشهر الربيع، وأنه قد تم العثور عليها في الشمال بالقرب من عدرا القريبة من دمشق. وتم جلب رألين صغيرين لشيكسبير Shakespear في 24 أبريل 1914 إلى مخيمه على الحافة الشمالية للنقود على بعد مسيرة يومين إلى الشرق من الجوف، كما تم تقديم جلد وبيضتي نعام إلى غرترود بل Gertrude Bell في منطقة طُبِق Tubaiq. وتناول ليتشمان Leachman بيض نعام طازج في الصحراء على بعد مئة ميل إلى الغرب من كربلاء، وكذلك على بعد 200 ميل إلى الغرب من البصرة خلال وبعد الثورة العربية كما ذكر ضباط بريطانيون. كما تم إحضار بيضتين إلى لورنس Lawrence في سهل البسيطاء Bisaita إلى الغرب من الجوف، نجح في طهيهما على نار الجيلاتين المتفجر!

تعرف جويس Joyce إلى النعام في وادي السرحان الشمالي؛ وهولت Holt في صحراء سوريا الجنوبية، في حين رأى فيلبي Philby آثارها في وسط وادي السرحان، ووجدها رتر Rutter في بلد الحمم شمالي الوادي. وأخيراً عام 1922 وجد أحد صيادي الصلبة Suluba بيضتين في حيّ الوديان في الجنوب الشرقي للحماد السوري، وأحضرهما إلى بغداد. ولكن على الرغم من أنهما وصلتا إلى بغداد في غضون 11 يوماً من تاريخ أخذهما من العش، وعلى الرغم أيضاً من الإسراع بهما وبوساطة البريد الجوي إلى حديقة حيوانات لندن ووضعهما هناك في الحاضنة، فإنهما لم تفقسا.

(1) أي زوج من صغار النعام، مفردة رأل.

وفي تلك السنة قَدَم ابن سعود هديةً إلى السيرِ پرسی كوكس أول مفوض سام للعراق، كانت عبارة عن اثنين من طيور النعام لتعيش في بغداد. وهكذا يبدو أن موطن النعام العربي يقتصر على الصحراء الجنوبي سوريا وعلى المنطقة الواقعة بين النفود والخط الحديدي الحجازي. وربما كانت أعدادها أكبر في السهول الواقعة شمالي الجوف وغربيته. في الغرب، أي بين وادي السرحان والخط الحديدي الحجازي أي بين خطي العرض 31 و32 وعلى الجانب الشرقي من وادي السرحان تنتشر شمالاً حتى خط العرض 33 وأحياناً تصل إلى الـ 34.

كانت أماننا وإلى الجنوب من وادي هدرج Hedrij نفس الصحراء السوداء عديمة الملامح، ولكن في اليوم التالي شاهدنا دلائل على تغيير مقبل. فقد بدأت الصخور السوداء تندمج مع الحمراء وتحولت صخور الصوان إلى رمال وتحولت الأراضي الملساء إلى تموجات ارتفعت في بعض الأحيان لتشكّل هضاباً.

قيل إنّ هناك بئراً أماننا، ولكن كان هناك شك في وجود ماء في تلك البئر. فإذا ما كان الغزاة قد سبقونا وتزوّدوا بالماء فستكون البئر قد جفت ولكن ليس لدينا خيار آخر فقررنا كاد الماء فيها أن ينفد ولذلك علينا المحاولة. كان اسم البئر حوزة Hausa على اسم التلال التي تقع فيها، تلال صخورها ناتئة تقع في نهاية الطرف الجنوبي للصحراء الصوانية ذات 70 ميلاً. من آداب البدو عدم التسكع بالقرب من الآبار، لأنها، كما هو معلوم، مصدر لمعظم المتاعب المتكررة، وخاصة عندما تكون معزولة وتوفر الماء فيها أمر غير مؤكد. لذا تسابقنا إلى البئر للتزوّد بالماء والتحرك مباشرة.

تبعنا الوادي الذي كان لنا بمثابة البرّ بالنسبة لمسافر طال غيابه في البحر، كان الوادي غاصاً بالأعشاب وبجميع أنواع الحياة المثيرة للاهتمام. وجدتُ هنا آثاراً للمهاة والغزال وحتى الفهد، ورأيتُ أيضاً الوعول الجبلية تتحرك هنا وهناك فوق الهضاب القريبة منا. إنّ هذه لعمرى هي المدينة الفاضلة مقارنة مع القفار الخاوية التي كنا فيها، شعرت حينها بالرغبة لقضاء بضعة أيام في هذا المكان. لدى وصولنا إلى البئر وجدناه وفيراً بالمياه العذبة وعلى عمق حوالي 40 قدماً. نزل ذلك الفتى الشراري إلى

أسفل البئر يملأ القراب بينما كنا في انتظاره في الأعلى. وكم استمتعنا بالماء بقدر ما استمتعت إبلنا.



الجبـال المسطّحة

وفجأة كسر تلك السّكينة صراخ أربعة فرسان عرب عُراة الصّدر والبنادق جاهزة في أيديهم، بدو وكأنهم يسعون لغنيمة ما! كان قد مرّ علينا خمسة أيام دون أن نرى أو نسمع أيّ إنسان، لذا كان ذلك اللقاء المفاجئ بالنسبة لزملائنا بمثابة صدمة! خصوصاً أن دليلنا الشّراري لهذه المنطقة كان في أسفل البئر في تلك الآونة! لذلك كان ذلك الشّراري بعيداً عن الخطر ولكن غير ذي فائدة بالنسبة لنا. كانت المسألة مجرد لحظات. التفت المراوي (الرجل من قبيلة مُرّة) ملتقطاً بندقيته وركض لمواجهة المتسللين. تحصنت أنا في موقع ممتاز خلف صخرة وأخذت أراقب المراوي، واستعدت لإطلاق النّار إذا أطلق المراوي النّار (تعلمت حينها ألاّ آخذ الحرب البدوية على محمل الجد).

أشرف العرب علينا وأعلنوا عن هويتهم بصوت عالٍ: «شرارت»، فأجابهم المراوي «مراوي»، وماهي إلا لحظات حتى كان الجميع يقبلون بعضهم على الطّريقة العربية.

عادت البنادق إلى جرائبها وخرج الشراري من أعماق البئر، واستمعنا إلى أخبار الطريق. لو كان هؤلاء اللصوص من قبيلة الرّولة Ruwalla أو الحويطات Huwaitat لكان الوضع مختلفاً جداً! كانت غرترود بل Gertrude Bell قد وجدت هذه المنطقة حافلة برجال الحويطات وذلك في ربيع عام 1914، ولكن كان برّقتها جواز سفرها إلى القبيلة فسافرت بأمان بين ظهرانيهم. وعلمنا أن الرّولة كانوا قد أجبروا على الرّحيل إلى الجنوب من قبيلة السّرحان، وقد يكونون في دربنا. كانت هذه الأخبار سيئة، فلم يكن معنا رفيق رويلي ولم نتمكن من الحصول على واحد. جعل ذلك من الطريق إلى تيماء طريقاً خطراً، والمنطقة الواقعة بين هذه المنطقة والجوف تكاد تكون مستحيلة.

قيل إن رجال الشرارت يهيمنون في مكان ما من القفار التي أمامنا، لذلك قررنا المضيّ قدماً أملاً باللقاء بهم. بقرابنا الجلدية المترعة وإبلنا المنتعشة، ودّعنا قطاع الطرق والمناطق الخلابية، واتجهنا جنوباً عبر الوادي الملتوي وفوق تلال الرّوزة Rausa إلى أن وصلنا في المساء إلى وادي رملي بعيد على الطرف الآخر. وضعنا خيامنا هناك على الرّمال الحمراء النّاعمة، التي فاحت منها رائحة المّهارة فأخذت أجوس في الأرض أستطلع معالمها. ربما لن يستطيع أحد سوى صياد أن يدرك معنى رؤية وحش نادر لأول وهلة في أرض يصعب الوصول إليها، يخالج المرء نتيجة ذلك شعوراً مفعماً بالإثارة دون شك. كلّما زادت الصّعوبات نأت المسافة، وكلّما ازداد مكر الطّريدة وخجلها ازداد معها وقع اللقاء بها أول مرة.

عندما يقوم الإنسان بكسر الحواجز وتقع عيناه لأول مرة على الكنز ينشرح صدره وتهدأ فورة رغباته، إذ يكون الخيال قد تحوّل إلى واقع ملموس. ثم تأتي بعد ذلك ردّة الفعل، وهذا ما حدث لي عندما كنت أراقب الكشبان الرّمليّة الحمراء وفجأة وفي مجال رؤيتي وقفت مّهارة بيضاء لامعة منفردة، كانت بمثابة الأسطورة بالنسبة لي، أعترف أنني لم أرغب في التطفل عليها أكثر، فقد توغلّت إلى داخل مكمن سرّها ورأيْتُها أخيراً وجهاً لوجه، ولكن تولّد لدي بعد ذلك شعوراً بالنفور منها، فرغبتُ بالزحف بعيداً على رؤوس أصابعي وتركها دون أن أتسبب لها بأي إزعاج. لقد رأيْتُها من خلف حجاب،

وعلى الرغم من تلك النعمة (أو اللعنة؟) فقد نزل على النبي نوح «ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الارض» سفر التكوين 9: 2. لكنني طاردت المَهاة بنفس الشكل معتقداً أنني قد تساويت معها الآن، ولكنني للأسف كنت مخطئاً.

أفضى بي التفافٌ طويل إلى كئبان رملية، وبالاقتراب منها أكثر وقعت عيناى على ما لم أكن أتوقعه، ليس وعلاً واحداً من فصيلة المَهاة بل قطعاً بأكملة من ثيران وأبقار وصغارها التي تركض بجانبها. بدا المنظر غريباً عند الغسق، بدت وكأنها اشباح حيوانات تتحرك بصمت في عالم خيالي. عالم من الرمال الحمراء صمته أشبه بصمت القبور لن يلبث أن يلفه جناح ظلام الليل ليتلعه بهدوء. لقد أصابني ذلك المشهد بشيء من التنويم المغناطيسي فلم أدرك الواقع إلا وقد حلّ الظلام، فتلاشت تلك الصورة، المَهاة وكل شيء، كما لو أنه السحر!

في اليوم التالي عدتُ إلى المطاردة وتبعْتُ ذلك القطيع حيثما حل، كان تتبّع آثارها على الرمال الناعمة أمراً سهلاً، تعقبها شمالاً، ثم تابعتُ غرباً وجنوباً إلى أن تورّمت قدماي، فقد كنت أجري حافي القدمين. كانت المَهاة تنتقل في دائرة هائلة وكذلك فعلتُ أنا. ثلاثة أيام مضت وأنا أتعقبها دون أن تقع عيناى على ذلك القطيع مرة أخرى! لقد فقدتها في مكان ما في الجوار حيث كنت قد وجدتُها أول مرة، ولكنني عزيتُ نفسي بتذكّر كيف حذّرني داوتي Doughty سابقاً بقوله: «لا يقع الوضيحي Wothyhi إلا بيد أشدّ الصيادين حرصاً»، وبناءً عليه قرّرتُ التزوّد بالماء وتعبئة قربتي الجلدية الفارغة مرة أخرى من منطقة الحوزة Hausa الخطرة والبدء من جديد.

اقتربنا من البئر هذه المرّة بمزيد من الحذر، إذ ينبغي لنا ألا نضيع الوقت. نزل أحد أفراد فريقى إلى أسفل البئر، وأخذ اثنان بسحب الماء إلى الأعلى بينما عملتُ على حراستهم. لم يحدث شيءٌ خطير هذه المرة. إنّ ضجة الوعول البعيدة على الصّخور سبّبت لنا الذعر، وكان عدد القبور حول البئر نذير شؤوم وتذكيراً لنا بأن هناك آخرين كانوا أقل حظاً منا. غادرنا البئر دونما عائق وركبنا متجهين جنوباً مرة أخرى، يحدونا الأمل بالعثور على الشرارت Shararat. رأيتُ أثناء عبور هضاب الحوزة الوعلَ مرة

أخرى، وكنت محظوظاً بما فيه الكفاية لقتل ذكر وعل جيّد، مما وفرّ لنا اللحم الطّازج الذي اشتدّت الحاجة إليه، ووفرّ لنا أيضاً عيّنة عن جلد كامل من هذه المنطقة البعيدة.

كان اسم نوع ذكر الوعل ذاك هو *Capra nubiana sinaitica* «العنز النّوبي السّينائي»، ما لم يتمّ التفريق بين هذه الوعول صغيرة الحجم واعتبارها أجناساً فرعيّة مشتقة من أبناء عموماتها التي تسكن الجبال الغنية. قد يكون من المؤكّد أن لهذه المنطقة الصّحراوية المعزولة حيواناتها الخاصة بها. أنا أذكر أن لون ذكر الوعل الذي كان يعيش في الصّحراء السّورية وحول تدمر فاتح جداً، قريب من الأبيض وصغير الحجم.

إن وعول هذه المنطقة صغيرة الحجم أيضاً ولكن لونها يضرب إلى الصّفرة. تعلّمت أمراً عن المّهارة حينها أنها إما أن تعيش منفردة أو بشكل ثنائي أو ثلاثي لا تتجاوز السّت حيوانات، أو على شكل قطعان كبيرة بين العشرين والثلاثين رأساً. رأيت ذكور المّهارة العربية وعلى غرار قريباتها الأفريقية تمتاز بقرونها الصّغيرة بينما تمتاز إناثها بقرونها الطويلة. أما الظباء الصّغيرة فقد كانت حديثة الولادة، ولدت في منتصف فصل الشّتاء، وتراوح حركتها بين الرّكض خبياً أو التكاسل كباقي الوعول.

تتغذى الوعول بشكل رئيسي على عشب أصفر طويل يدعى النّصي *Nussi* يصل طوله إلى 18 بوصة، وكذلك إلى حدّ ما على أغصان شجيرات الغضا *ghadha* فتضمّمها. وشجيرات الغضا هي نوع من أنواع شجر السّدر وتعدّ المصدر الغذائي الإضافي للحيوانات التي لا تشرب الماء في تلك المنطقة وتنمو على شكل طفيلي. تنمو هذه الأعشاب الطفيلية على جذور شجرة السّدر وترمي بطلعها الطويل المشبع بالعصارة، فتكون بالتأكيد أفضل شراب بالنسبة للمّهارة وحتى بالنسبة للرجل البدوي. تحفر المّهارة في الأرض مستخدمة حوافرها العريضة لتصل إلى الطّلح قبل أن يظهر على سطح الأرض. أخبرني العرب أن من عادة المّهارة تجهيز حفر عميقة من الرّمّل إما من أجل توفير الحماية لنفسها أو للحصول على سرير بارد بعض الشّيء، غير أنني لم أستطع اكتشاف ذلك. وهي عادة غريبة ينبغي البحث فيها.

لديّ الدليل القاطع على الحدس القوي الذي تتمتع به المهارة وأنا على استعداد لتصديق الاعتقاد بأن مجرد رؤية آثار أقدام إنسان في الرمال قد تدفع المهارة إلى سباق الريح إلى الأفق. كانت تلال الحوزة Hausa مقدّمة لهضبة طُبِيق Tubaiq وهي مزينة فريدة في طبوغرافيا شمالي جزيرة العرب. وقد ذكر دواتي Doughty ذلك بشكل مبهم، في التقرير الأصلي، معتبراً إياها معلماً رئيسياً على الطريق المباشر بين تيماء ومعان. «هو جبل، كما يقال، ينتصب بين الشرق والغرب وأكبر حجماً من عرنان Irnan. تتراكم الثلوج في الشتاء طويلاً على هضبة جبل طُبِيق J. Tobeych التي تبعد مسافة ليلتين عن معان».

كان غوارماني Guarmani الزائر الوحيد لهذه المنطقة، وقد مرّ عبر نهايتها الغربيّة، وما أورده كان مجرد: «إنه جبل عالٍ نوعاً ما، صخوره من البازلت وقمته متشققة تغطي جوانبه أكواماً من الصّخور التي تتكسر باستمرار وتنحدر إلى أسفل الجبل مشكلة أكواماً من الحجارة المتشظيّة»، وبعبارة أخرى تعاني المنطقة من تآكل شديد بسبب الرياح والطقس. تأثر شيكسبير Shakespear كثيراً لدى سفره على طول الجانب الجنوبي من طُبِيق Tubaiq عام 1914. وقد كانت تلك الأرض بالنسبة له «بلداً مخيفاً غير صالح للرعي بأي شكل من الأشكال». وقد ذكّرت التلال بتلك الواقعة خلف مضيق هرمز Hormuz ولكن هذه أكبر وأرضها صخرية أكثر، غير أنها متشابهة بلونها الأحمر، وقال إنه لاحظ «أن هذا البلد مُقفر غير صالح للرعي، ولا يجتازه سوى قطاع الطرق من أجل الإغارة على المسافرين».

وقد زارتها غرترود بل Gertrude Bell قبل بضعة أشهر من شيكسبير في طريقها إلى جبل شَمَر Jabal Shammar. وخلال فترة التأخير التي جرت في مخيم قبيلة الحويطات Huwaitat، اصطحبها محمّد أبو تايه Muhammad Abu Tayyi لرؤية الآثار في تلك الهضاب، التي سرعان ما كشفت عن طبيعتها الغريبة. «إنها أسطورية ومُفعمّة بالجمال البرّي»، كتبت مُعربةً عن أملها بالعودة في أحد الأيام لإجراء دراسة معمّقة عنها.

لقد ثبت أن آثار كلوة Kilwa تعود إلى المجتمع المسيحي، ربما حيث استقر النُساك،

وهي تعود إلى حوالي الألف ميلادية، ولكن وفق اعتقاد غرتروود قد يكون هذا موضعاً للساميين أيضاً. وصلت بعثة مشتركة تتألف من مدير الآثار في شرقي الأردن - Trans-Jordan ومدير مدرسة الأبحاث الشرقية الأميركية في القدس في نهاية عام 1932 إلى طُبَيْق Tubaiq من أجل استكشاف موقع كلوة خاصة. ذهبت البعثة بالسيارات تحت حماية سيارة مدرّعة من ذلول شراري dhulul Sharari! وكان الاكتشاف الأكثر إثارة للاهتمام هو الكشف عن آثار تعود إلى العصر الحجري ورسومات على الصّخور تبين أن إنسان ما قبل التاريخ وجد أرض طُبَيْق أرضاً مناسبة للصيد كما حدث لي. شكّلت الوعول والمهاة موضوع الكثير من صورهم، التي بدت تماثل قسوة وواقعية تلك اللوحات المعروفة في أفريقيا وإسبانيا.

حافظت أرض طُبَيْق على سرّيتها، جذباء تلفحها أشعة الشمس صيفاً ويلفها الضباب شتاءً، وليس ذلك مستغرباً. خلال مروري عبر تلك التلال كان الضباب يغطيها، ولم أكن أستطيع أن أرى سوى محيطي القريب، ولكن حتى ذلك القليل الذي رأيته بدا غريباً بشكل كافٍ ليبرهن على أن أرض طُبَيْق Tubaiq كانت مكاناً متميّزاً جداً، شعرت وكأنه قد تم زرع في فجأة في جبال القمر؛ لم يسبق لي أن تصوّرت وجودي على هذا الكوكب! وزاد تكاثف الضباب من غرابة المشهد. وأخذت التلال المخروطية تلوح في الأفق خارجة من الضباب وكأنها الحمم المندفعة من البراكين.

ظهرت قمم الجبال الهائلة السوداء الكثيبة فجأة من خلال الشقوق في الضباب، ثم ما لبثت أن اختفت مرة أخرى قبل أن يكتشف المرء كنهها. حفر عميقة غامضة فاغرة فاهها أمامنا دون أن نتمكن من الوصول إلى قعرها. تابعنا سفرنا خلال المناطق الجهنمية التي يلفها سكون الموت دون علامة على الحياة وفي جوّ مفعم بعدم الواقعية كما لو أنها كانت من عالم آخر. واجهت الإبل وعورة الطريق بصعوبة شديدة، على الرّغم من أنها كانت قد رعت في هذه المناطق سابقاً ويجب أن تكون قد اعتادت على وعرة الطّبيعة. تسلقنا المنحدرات الملساء الشّبيهة بأكوام الرّماد العملاقة وانحدروا نزولاً على جنباتها كالخبث المتصاهر.

شققنا طريقنا عبر متاهة من الممرّات الضيقة «البوّابات» كما يسميها العرب - أسوار رملية ضيقة لا تكاد تستطيع الأبل أن تعبرها إلا نادراً. وصلنا في نهايتها إلى الطرف الآخر. نظرنا خلفنا فرأينا ولفترة وجيزة سلسلة من الهضاب المسنّنة الشامخة، التي بدت من الجنوب وكأنها جُرف هارٍ نُحتت أدق تفاصيله وأضيفت عليه متاهة من الأخاديد ليزداد جمالاً حتى أن أحداً لا يستطيع أن يشيح ببصره عن ذلك المشهد الرائع في طُبيع ما إن يقع نظره عليه. لا يغطي النّطاق الفعلي أكثر من نحو 300 ميل مربع، يقع محورة الرئيسي كما قال داوتي Doughty بين الشرق والغرب ويرتفع إلى 1000 قدم فوق سطح الصّحراء المحيطة به.



كالقواطع الناتئة بخاصرة صخرة ساحلية

إنه مساحة واسعة رملية تغطيها الحمم البركانية، شكلها غريب، فقد تلاشت الرّمال وبقيت الحمم التي تغطي أكواماً من الرّمال فبدت الجبال مسطّحة القمة، بينما أخذ الحجر البازلتي المقاوم مكان الحمم الرملية في المنحدرات وتكدّست الرّمال المتهاوية في أسفل المنحدر مشكلةً آثاراً رائعة. في الأسفل وما بعده، تتكسّر الانجرافات على أعتاب الهضاب كالأمواج على شاطئ صخري وتتلاشى مبتعدة إلى

الشرق من طُبَيْق Tubaiq في أراضٍ صخورها رملية تتخللها الكثبان لتفرق أخيراً في سهل بسَيْطاء Bisaita. وترتفع في الغرب لتصل إلى أقصى ارتفاع لها حوالي 4000 قدم.

أُظن أن طُبَيْقاً Tubaiq هو استمرار لما يسمّى سلسلة هضاب شُرُوراً⁽¹⁾ Sharora المتاخمة للخط الحديد الحجازي في الشرق. تنحدر مياه طُبَيْق Tubaiq عند توفرها في ثلاثة منخفضات، إذ يجري الجزء الشمالي منها باتجاه مسيلات وادي عناب Wadi Anab ومنها إلى الحوض الكبير في جفر الذي يقع إلى الشرق من معان؛ أما الجزء الغربي فيتدفق في منخفض آخر في المدوّرة Mudauwara على الخط الحديدي الحجازي، والباقي ينحدر جنوباً وشرقاً، وربما أخيراً يصل إلى وادي السرحان.

ينبغي إعادة التدقيق في حيوانات هضبة طُبَيْق Tubaiq من جديد، ونودّ أن نعرف ما إذا كان طير الشوكور الكبير أسود الرأس (Alectoris Chukor blackheaded melanocephala) يعيش هنا، فقد وُجد في مكان غير بعيد عن هذا المكان في جبال مَدْيَن على ساحل البحر الأحمر. كما نودّ معرفة الصّنف الذي ينتمي إليه الغزال المحلي أو أنه فصيلة مستقلة بحد ذاتها. وأنا أوافق أنه ينبغي عدم ربط غزال داوتي Doughty's gazelle القوي والبازلي اللون بأيّ من الأجناس المعروفة. تعيش الوعول هنا بأعداد كبيرة ملاخقة من قبل النمر، أما الفهد فيعتمد على سرعته الكبيرة في السّهل للحصول على طعامه. ويعتمد القط البري ذو اللون الصّحراوي الجميل على افتراس الحجل الصّخري ويحافظ الوشق السنوري على استمراريته وهو قط بحجم الثعلب، لكنه ليس بفهد ولا بنمر وربما يكون قطعاً برياً.

تركنا طُبَيْقاً Tubaiq ودخلنا في مجال آخر من القفار King Desolation، «قفار شبه جزيرة العرب غنيّة في تنوعها» ولكن لم يكن لديّ أيّة فكرة أنها يمكن أن تحتوي على

(1) تعرف باسم: جبال شرورا، وهي تقع إلى الشمال من تبوك والشرق من هضبة حسمى. وينبغي عدم الخلط بينها وبين مدين شرورة الصّحراوية التي تقع في الطرف الغربي الجنوبي من صحراء الرّبع الخالي.

مثل هذا التنوع من الرّهبة، لأنها كانت بالتأكيد من أكثر الأراضي التي رأيتها ضراوة. لقد كانت منطقة قفار رملية جافة، صُقلت بفعل الرّياح الغربية على مدى عصور لا تُحصى وتُركت لتنهش وتلحق الضرر بالمنطقة منذ بداية الزمن لتخلق فوضى تفتقر إلى الوصف. تناثر في المشهد مزيج من الصّخور البالية بفعل الرّيح من كل شكل وحجم يمكن تصوره، وبكل تشكيلة رائعة يمكن تخيلها. كانت هناك ذرى معزولة وأبراج منفردة وقواميع هرميّة مهجورة.

كانت هناك جبال منبسطة القمّة كالأماكن المرتفعة عند الأقدمين، وكانت هناك أمكنة مرتفعة تبدو مشؤومة الشّكل كالقلاع الخربة. كانت هناك مساحات واسعة من الصّخور التي حتّتها الرّياح والطّقس فبدت على شكل فطر عملاق. كانت هناك صخور متداعية وكتل صخرية محطمة أثّرت بها الرّيح المحمّلة بالرّمال فبدت لا تشبه أي شيء آخر في الطّبيعة، بينما تظهر بين الفينة والأخرى صخور كبيرة أشبه بأبي الهول لتحرس وبصمت كامل مروّع مجموعة من الأشكال الغربية والبشعة. ملايين السنين من أعمال الحتّ أنزلت مستوى الأرض إلى ما هو عليه الوضع اليوم تاركة هذه الآثار البائسة واقفة وجارفة الباقي شرقاً لتشكّل ذلك المهاد الرّملي العميق المسمّى التّفود.

عبر هذا الهياج الشّنيع للصخور وانجراف الرّمال، حثّنا خطى إبلنا لأننا لا نعرف أين ومتى سنقع على الماء في قفار الشّرارات، أو أننا قد نفشل في العثور عليه، لقد أضحت الرّمال الحمراء النّاعمة هي مزيّة هذه المنطقة وصفة حياتنا اليومية التي نعيش وسطها. فكل هضبة وكل نتوء يجزّ وراءه شرقاً خطاً طويلاً من الرّمال، وكل صخرة، كل حجر وشجيرة تُخفي ورائها كومة صغيرة من الرّمال حمراء اللون. كان الرّمل في كل مكان بل وصل إلى أصغر الشّقوق، تغلّغت الرّمال حتى إلى ملابسنا ولم يخلُ منه حتى طعامنا.

طلب مني دليلي الشّراري في اليوم الثاني استطلاع الأرض التي نحن مقبلون عليها، فالأرض تقع في منخفض أمامنا ونحن قادرون على استشراف منظر واسع جداً منها. هيأت مجموعة من ثلاثة جمال، ومن أعلى قمّة أحد التلال رأيت قطعاناً كبيرة من

الجمال تتجه نحو المنطقة التي قيل إنها تحتوي على آبار مُغَيِّر⁽¹⁾ Mughaira. كانت تلك وبدون شك أراضي قبيلة الشَّرارات Shararat ولحسن الحظ كان دليلي منهم. انحدرنا باتجاه الآبار فوجدناها مجموعة من الموارد الضحلة جداً التي لا يزيد عمقها عن 10 أقدام تحت سطح الأرض. كان الماء جيداً ولكنه متغيّر اللون بشكل كبير. هنا اجتمعتُ بالمجموعة الرئيسية للأخوة من الشَّرارات Shararat الواردين على الماء، لقد شَكَّلُوا جمعاً غفيراً وكانت قطعانهم عديدة جداً، ولكن يبدو أنه حتى مع هذا التجمع الكبير من جماعات البدو الرَّحَّل بكامل رَحْلهم قد تاهوا في فضاء قفرهم الواسع فأخذوا يتدفقون قادمين من غموض الصَّحراء حتى بدا المشهد حول الآبار وكأنه أرضُ المحشر.

(1) يُكتب الاسم في خرائط شمالي المملكة العربيَّة السَّعوديَّة: المُغَيَّراء، لكن المنطوق العامي لأبناء المنطقة هو: «المُغَيِّر» ولا تُلفظ الهمزة الأخيرة.



الجمال المزينة بالسرايد الطويلة والجلود المدبوغة الحمراء

كان الرجال منشغلين في استحضر الألبان البرية ولكن الممتعة، والإبل تتزاحم على الماء بعد أن تمّ جمعه لها في أحواض كبيرة جلدية. قاد الأولاد العراة قطعان الإبل المؤلفة في معظمها من إبل الذلول الشرارية الشهيرة بالسباق dhululs Sharari، الصفراء داكنة اللون أو البيضاء، بينما كانت الإبل المختصة بالحمل سوداء اللون وقد ازدانت بشرابات طويلة من الجلود الحمراء المدبوغة. وكانت الإبل الأخيرة قد ركبها نساء تميّزن بشكلهن الصّحراوي مستخدمات العصي عوضاً عن القصب وقد حُمِلت صغار الجمال في خُرج شداد الإبل وأطفالها في الخُرج الآخر دون أي تمييز!

كان حشداً جذاباً، وفي تعارفي الثاني معهم شعرت أنني قريب منهم، وفي وقت قصير وجدت بينهم أصدقاء. ويبدو أنهم أفقر من فأر الكنيسة كما يُقال، خيامهم خرق واهية لا تستحق اسم خيمة، وفي كثير من الحالات لم تكن أكثر من بضعة ياردات مربعة من القماش المنسوج تدعمها ثلاثة عصي يلتمس شاغلوها الاحتماء بها من الرياح والمطر أو تجنّب أشعة الشمس الحارقة. «لا يحتاج المرء سوى للقليل هنا»، ولكن بمشيئة الله، استطاع هؤلاء المعدمون من الشرارات Shararat أن يخفضوا من احتياجاتهم إلى الحد الأدنى بشكل لا يُعقل.

حتى مشايخهم، الذين حلتّ عليهم ضيفاً، كانوا عاجزين عن تقديم القهوة، ومع ذلك كان لديهم فخذٌ غزال أولمنا عليه ذلك المساء، التهموا حصتي من ذلك اللحم الطازج بينما كنت أتناول لأول مرة هدية السّهل المتميّزة: حبوب نبات السّمح samh البعلي. كانت صفقتهم تلك رابحة فقد وجدتُ أن ذلك النبات من أكثر الأطعمة غير القابلة للهضم التي تناولتها في حياتي. لم أستطع هضمها لمدة أيام! وكما هي العادة تعدّ الشرارات أن ذلك النبات هو هبة السّماء لتلك القبيلة. إنه نبات صغير الحجم ولكن غنيّ جداً يتمّ جمعه بكميات وافرة تُمكن القبيلة من بيعها إلى الواحات التي تعتبره قمّة الرّفاهية. ويقال أيضاً إنه نبات غني جداً بالطاقة ممّا يشكل بالنسبة لهم قيمة كبيرة إضافية لنظامهم الغذائي المتسم بالحمية.

ينمو هذا النبات في التربة القاحلة جداً، في أكثر المناطق جفافاً لتميّز أرض

الشّارات الواقعة بين معان، والجوف وتيماء. وعلى الأرجح تُعدّ تلال طُبَيْق Tubaiq وسهول البَسَيْطاء Bisaita أكثر الأراضي التي يتم فيها جمع هذا النّبات. أينما ذهبت في هذه الأراضي الجدباء تجد انتفاخات في الأرض بسبب تلك الحبيبات التي يقوم العرب بجمعها. ولا يظهر من تلك النّبتة فوق الأرض سوى جزء قليل، مجرد ساق صغير مليء بالعصير يشبه إلى حدّ كبير نبات السّمفير samphire غير أن جذر هذا النّبات أطول في الأرض.. وله زهرة صغيرة صفراء تتحول في النّهاية إلى بذور بيّنة صغيرة الحجم.

تنمو هذه البذور قريباً من سطح الأرض وتُستخدم في صناعة الخبز والثريد أو يتم خلطها مع التمر. وهي نبات سنوي زهري ذو أزهار ملونة mesembryanthemum وقد فشلت جميع الجهود في استنباته صناعياً. يعتبر العرب أنه هدية من النّدى، ولكن قالين Wallin أخبرنا أنه ينمو مباشرة بعد هطول الأمطار عند ارتفاع الثريّا مباشرة بعد غروب الشّمس، ولا أعلم إذا كانت هذه اللحظة مؤاتية أم لا من أجل محصول جيّد من هذا المسمّى بـ «الخبز البري»، ولكن كان هناك القليل من المطر ونبات السّمح قد بدأ بالظهور.



خيامهم كانت خرقاً ممزقة



يملاؤن المياه في قرب جلدية

يُعتبر أفراد قبيلة الشَّرارات Shararat صيَّادين مهرة بارعين في التعقُّب وإطلاق النار مقارنةً مع باقي العرب، باستثناء أولئك الغجر الصَّحراويين الأكثر إثارة للاهتمام، قبيلة الصُّلْبَة Suluba، يمكنني القول إنَّ أفراد الشَّرارات هم الأفضل في شمالي جزيرة العرب بالصَّيد. منذ أن أقمت بينهم كصياد، التقينا وجهاً لوجه مع المَهْاة، وربما كان ذلك هو السَّبب الذي جعلهم يشنوا عليَّ عظيم الشَّاء. تمَّ نحر حوار صغير فقامت النِّساء بجمع الدَّم في وعاء، وبوساطة قشة رُسمت خطوطٌ حمراء على رقاب إبلي وأرجلها. يتخثر الدَّم ويجفُّ في هذا المناخ الصَّحراوي ويبقى لفترة طويلة. وهذه العلامة تُستعمل كتعويذة بين جميع العشائر في الشَّرارات Shararat: لقد أصبحت الآن شرارياً..

«وخذوا باقة زوفا واغمسوها في الدَّم الذي في الطَّست ومسوا العتبة العليا والقائمتين بالدَّم الذي في الطَّست. وأنتم لا يخرج أحد منكم من باب بيته حتى الصُّباح: فحين يرى الدَّم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرِّب عن الباب ولا يدع المُهلك يدخل بيوتكم ليضرب» الأصحاح 24 من سفر الخروج 12. لقد عاينتُ العناية الإلهية أكثر من مرة خلال رحلتي وخرجتُ سالماً، لأنه على ما يبدو مازال الأصحاح 24 من سفر

الخروج 12 يعني شيئاً بالنسبة لأولاد سام، وأنّ عهد الدّم ما زال قائماً.

أظنّ أن الشرارات Shararat ليسوا من ذوي الدّماء العربية النّقية، أي أن ذلك ليس من طبيعة البدو وهم غير قادرين على تتبّع نسبهم إلى إبراهيم. فجيرانهم من ذوي الدّماء الزّرقاء ينظرون إليهم بشيء من الدّونية ولا يتزاجون معهم. يلقي هذا الوضع الضوء على الدّيمقراطية العربية، والتميز بين أفراد طبقة البروليتاريا العاملة رائع حقاً. ليس هناك من مساواة في المقام هنا بل على العكس تماماً؛ فكلما زادت طبيعة العربي الصّحراوية كان أسرع في اتخاذ صاحب! ويقال إن الشرارات Shararat، مثل معظم القبائل، تكرّم جدها، وأن قبره موجود في هضاب طُبَيْق Tubaiq. فإذا ما كانوا سيّدّعون أحقيتهم بأي أرض لتكون ديارهم فستكون طُبَيْق Tubaiq بالتأكيد لهذا السّبب بالذات. ولكنهم ليسوا بالقوّة الكافية لفرض حقوقهم، خاصة وأن قبائل أقوى منهم تنتهك محمياتهم. وعلى الرّغم من هذه الدّونية للشرارات فإنها تتمتع بحكمة تفتقدها قبائل أكبر منها.

على الرّغم من عدم وجود أرض خاصة بهم، فقد نجحوا في التّصال من أجل الوجود. فقد ربّوا أفضل أنواع الإبل في شمال جزيرة العرب، والإبل الجيدة تعني المال الوفير. إنّ عددهم كبير وفي تزايد، وهم شجعان ورّماة مهرة، يُسعى لكسب ودّهم للمشاركة في المعارك الصّغيرة، إنهم طفيليّون على المجتمع ولكن بحكم الظروف وليس عن طريق الاختيار، وأتساءل فقط عمّا إذا كانت لهم أصول ساميّة تلك التي تجلب الرّخاء لجميع من يعيش معهم! وجمال نسائهم يفوق معدّل جمال نساء البدو، ويمتاز أغلبهم بمزيّة أخرى وهي استخدامهم لليد اليسرى في الغالب. لا يقومون بعروض كبيرة كالتي تأتي عليها قبيلة الرّولة Ruwalla، بل تراهم مغمورين، وكما وصفهم داوتي: «هادئون يميلون إلى الكآبة في سلوكهم» ولكن تكمن النّار وراء ذلك في داخلهم، فهم نشطون جداً يعيشون في الأماكن التي يندثر فيها الآخرون.

عندما ألححتُ على صياد شراري ليعمل على خدمتي، أتى إليّ مع بعيه بكامل أقتابه، يحمل بندقيته، وتجول معي لأسابيع عديدة، وعلى الرّغم من شدّة برودة

الطقس في بعض الأحيان لم يكن يتدثر بشيء آخر غير ملابسه في الليل. ليس لدى قبيلة الشرارات زعيم وهذا هو سبب خرابهم، فقد انقسموا إلى فصائل عديدة، فقد انقسم البيت على ذاته. وقد انعكس ذلك على سلوكهم عند آبار مُغَيِّرا Mughaira، لقد قرروا في البداية أن يقيموا عند الآبار، ولكن في وقت لاحق من ذلك اليوم بدأوا بتقويض مخيماتهم، وبعد بضع ساعات من تحرّكهم أخذوا بالتردد، فبعضهم يرغب بالرحيل جنوباً والبعض باتجاه الشمال، بعضهم يؤدّ الالتحاق ببني صخر وآخرون بالحوزة Hausa. أخيراً تفرقوا باتجاهات مختلفة وتركنا لوحدنا!

كان تردّد الشرارات Shararat سبباً لتراجعي أنا أيضاً. فقد قمتُ بخطوة خاطئة، لن أعرف أبداً لم بدأتُ بالرحلة ذات الـ 150 ميلاً باتجاه تيماء، ولكن تبقى الحقيقة الوحيدة هي أنني قمت بتلك الرحلة. لو أنني تمسّكت بالشرارات وارتحلتُ معهم بسلام لكنت وفرت على نفسي الكثير من المشاكل التي لا لزوم لها؛ ولربما كنت وجدت المهارة في مدة أقصر من الوقت وبأقل عدد ممكن من الضحايا الذين قدّمتهم من رجال وإبل. ولكن من ناحية أخرى، كنتُ افتقدت رؤية واحدة تيماء النادرة والأثرية، كان هناك بئرٌ وحيد بين مُغَيِّرا وتيماء يدعى فجر Fajr، ماءً غير مؤكد في مكان خطر لذلك لم نعول عليه كثيراً، بل انطلقنا جنوباً عبر نفس القفار الرملية والنتوءات الصخرية المخروطية ونفس التراكمات الرملية. خمسون ميلاً إلى بئر فجر ومئة ميل على امتداد الصحراء التي ندرك خلوّها تماماً من المضارب، قد تحتوي على المهارة.

حشنا خطي إبلنا واستجابت لإرادتنا، وكنا في الليلة التالية ننحدر إلى أسفل الوادي الذي يقع فيه البئر. يُعدّ بئر فجر ملتقى اللصوص، خاصة من الحويطات Huwaitat، الذين يجدونه مكاناً مناسباً للتزود بالماء قبل الشروع بغاراتهم الخاطفة على السرحان وما بعدهم. أدهشت الحويطات غرترود بل Gertrude Bell «كشعب عظيم، أغاروا على جميع القبائل المحيطة بنهر الفرات، إنهم مشهورون بشجاعتهم التي تميل إلى التهوّر والوحشية».



الفطر العملاق

اقتربنا من البئر بحذر شديد، فقد كنت أفقد إلى رفيق باستثناء الشراري. لم نكد نبتعد عن الوادي حتى رأينا أثاراً حديثة العهد تؤدي إلى البئر، مما جعل الفتى الشراري يحجم ويرفض الذهاب إلى أبعد من ذلك، فمشيتُ وحيداً واقتربت من البئر حتى سمعتُ أصوات سقي الإبل. هذا كافٍ! فعدنا أدراجنا وانطلقنا ولم نتوقف حتى ابتعدنا عنهم مسيرة عدة ساعات، علمنا بعد ذلك أنهم كانوا جماعة من الحويطات. استطعتُ تحديد مكان بئر فجر على الخريطة على الرغم من عدم تمكني من تذوق ماءها.

كان الزائر الأوروبي التالي لورنس Lawrence عام 1917، الذي اتجه من الوجهه Wijn إلى وادي السرحان برفقة عودة أبو تايه Auda Abu Tayyi وعصابته مثليي الجنس من قاطعي الطرق، وجد لورنس بئر فجر، كما قال لي، حيث توقعها مسترشداً بخريطتي، وكتب لي لاحقاً أن وصفي⁽¹⁾ للمنطقة «غطت المنطقة الصحراوية بين الخط الحديدي والسرحان بشكل جيد جداً، في رأيي». أجبرتنا هذه الحادثة على ضرورة التوجه مباشرة إلى تيماء سواءً أرغبنا بذلك أم لا.

(1) كتب المؤلف: صفحة الجوف من خريطة العالم.

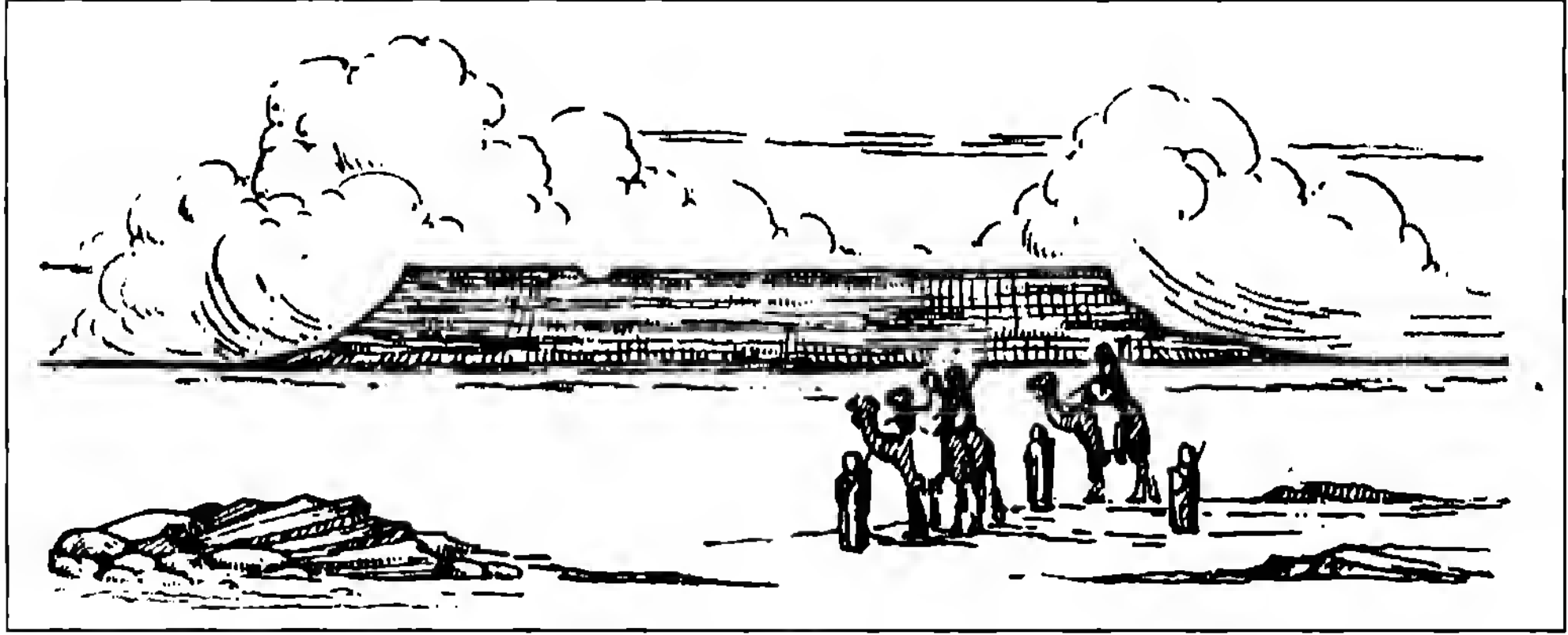
كان لدينا ما يكفي من الماء للإرتحال مباشرة ولكن لا يكفي إن حصل أي تلوّث، لذا ضاعت مني الفرصة الأخيرة لصيد المَهْاة قبل الوصول إلى واحة. يعتبر وادي فجر مسيّلاً هاماً يتفرع عنه ثلاث جداول⁽¹⁾ وفقاً للورانس، الأوروبي الوحيد الذي رآها في نقطة التجمّع القريبة من خط الحديد الحجازي، الذي يبعد حوالي خمسين ميلاً عن البئر الذي يحمل اسمه. ثم يسقط في نهاية المطاف في غور السّرحان على بعد مئة ميل إلى الشّمال. هذا على رواية عوده أبو تايه: «وجدنا تحت أقدامنا سواقي ضحلة تشق الأرض». وأشار عودة إليها قائلاً «إنها تجري إلى نَبْكَ⁽²⁾ Nebk في أرض السّرحان، ولسوف نتبعها حتى نلتقي بالحويطات في مضاربهم الصّيفية». غير أن موزيل Musil اعتبر أن وادي فجر ينتهي في خَبْرة الحاوي Khabra Hawi في أقصى غرب نطاق عريج Araiž الرّملي. قد يعتقد المرء أن أصل الاسم يعود إلى قبيلة الفقرا tribe Fuqara (فجر)، الذين يجولون في المناطق القريبة من تيماء، فقد كان ذلك هو الحدّ الشمالي لديرتهم.

* * *

(1) كتب المؤلف: وفقاً للورنس كانت الجداول الثلاث هي أبو عرادة Abu Arad، والكلب the Kalb ورياط الخيل Riat al Khail. تتحد هذه الشّعاب الثلاثة لمسافة قصيرة شمالي بئر فجر، ينحدر جنوبي البئر وادي خَبْرة عجّاج Khabrat Ajaz وهو منخفض من الأرض يمتلئ بالماء عند الفيضانات، وعلى الرّغم من تجفافه السّريع، فإنه يوفر في شهر مايو الماء الصّالح لسقي الإبل والبشر في بعض الأحيان. ومن هناك يتشكل سيل الحَوَيّة Seil Hawiya الذي ينحدر شمالاً إلى وادي السّرحان فيخترقه في نقطة تبعد حوالي عشرين ميلاً أو نحو ذلك إلى الغرب من مجموعة آبار عرفة Arfaja group of wells.

(2) تعرف باسم: النّبْكَ أبو قصر، إلى الشمال الغربي من الجوف.

يُستدل على الاقتراب من بئر فجر من قِبَل الجنوب بوساطة علامة الجرانيات
Jiraniyat الواضحة:



رأيتُ هنا أول مهاجر ربيعي، وهو طائر هُدُد hoopoo منفرد في البرية. عند غروب الشمس ودون قصد أتينا إلى مخيم صغير للرولة والشرارات حيث أمضينا تلك الليلة معهم. يتزوّد هؤلاء العرب بإمداداتهم المائية، كما أخبروني من مُليح Mulaih، وهو مصدر مائي يبعد حوالي الخمسين ميلاً إلى الشمال الشرقي من ذلك المكان.

استرعى أبناء قبيلة الرولة Ruwalla اهتمامي، فقد كانوا مختلفين جداً عن أفراد الشرارات وعن أبناء بني صخر حتى. لم أكن قد رأيت سابقاً بدواً بهذا السمو، لقد أدهشوني بكونهم أرسقراطي القبائل الرُحّل، إنهم قويو البنية ومستقلون، يدركون معنى القوة ويعرفون كيفية استخدامها، كانوا واسعي الثراء بالقطعان، ويعتبرون أن جزءاً كبيراً من الصحراء السّورية مُلكٌ لهم. امتطى الرّجال جيادهم وحملوا الرّماح الطويلة، بينما كانت نساءهم تغيب داخل هودج عالية مُزدانة قد تُثبت على ظهور الإبل، في الواقع منحتني قبيلة الرولة انطباعاً بأنها من نفس طبيعة كيبلينج Kipling، الذي كان يؤمن بما يلي: «أربعة أشياء هي أكبر من أي شيء، وهي النساء والجياد والقوة والحرب!». ويمتلك أمراء البدو هذه الخيول، وكلاب الصيد والصقور.

تقع بالقرب من المخيم بعض التلال المنخفضة، التي لا يزيد ارتفاعها عن 200

قدم فوق سطح الصحراء، وهناك كانت الوعول، وقد رأيتُ هناك أيضاً شابين من قبيلة الرّولة يقومان باصطياد الماعز البري على الأقدام مستعينين بالصقور والكلاب التي يطلقانها! واصلنا رحلتنا عبر أرض صخورها قرمزية قليلة الرّمال، أرض جرداء عارية لم تجد حتى الإبل فيها ما تأكله على الإطلاق، منطقة في منتهى القسوة تدعى الحل AI Hul، بدأت الأرض الرّملية السوداء تحتلّ مكان الصّخرية الحمراء مع المسافة ولم تلبث أن تغيرت إلى سهول بيضاء.

حشنا الخطى لنصل إلى وجهتنا، تيماء. ولم نلتقِ خلال طريقنا بأحد سوى بقايا جملين نافقين وبعض الثياب الملطخة بالدماء، وقد سمعنا لدى وصولنا إلى تيماء بأن هذه المنطقة كانت مسرحاً لمعركة جرت بين قبيلتي الرّولة وشمر. كانت الغلبة في تلك المعركة لشمر وقد استولت على عدد لا بأس به من جمال الرّولة Ruwalla. فاتتنا تلك المعركة التي جرت قبل بضعة أيام من مرورنا، وبقدر ما أكره حياة المدن، فإنني أعترف بأنني بدأت أشعر برغبة عارمة للتجوّل في شوارع تيماء.

* * *

رأيت في منطقة تبعد حوالي الثلاثين ميلاً إلى الشّمال والشّمال الغربي من تيماء، في وادي نَيّال⁽¹⁾ Nayyal حيوان مهّاة وحيد، وهو الأول منذ أن غادرنا طُبَيْق Tubaiq والوحيد الذي سأراه لأيام طويلة قادمة. وفي الثاني والعشرين من شهر فبراير أي بعد ستة عشر يوماً من مغادرتنا لمخيم بني صخر وصلنا إلى حافة جُرف. أمامنا وأسفل منا يمتدّ منخفض واسع أبيض اللون يبدو متلاًّلاً تحت أشعة شمس الصّباح، بعيداً وفي وسطه تقع بساتين نخيل تيماء الدّاكنة.

* * *

(1) يقع وادي نَيّال إلى الشّمال الشرقي من تيماء ما بين العسافيّة والجبعأويّة وشمالي وادي الخنافريّة.



هواذج مزينة رائعة

الفصل الرابع

تيماء

«الإغراء في تيماء القديمة»

كرؤية اليابسة بعد رحلة بحرية طويلة، كما لو أننا رأينا جزيرة وسط محيط موحش فتوجهنا إليها غير مدركين ماذا تخبئه تلك الجزيرة لنا. سادت الجو العام حالة من عدم اليقين، فقد كنا نقترّب من شيء مغاير تماماً لما عرفناه سابقاً: مستوطنة قديمة جداً ومعزولة، مجتمعها ربما كان الأكثر انغلاقاً على وجه الأرض. مجتمع يكره الغرباء ويستاء من التدخل بشؤونهم. وعلى الرغم من بُعد الخط الحديدي الحجازي مسافة ستين ميلاً عن تيماء فإنه اعتُبر تهديداً لخصوصيّتها. وأقرب أرض مسكونة لتيماء توجد في جبل شَمَر الذي يبعد 150 ميلاً إلى الشرق، بينما تفصلها عن وديان خيبر السبعة مسيرة أربعة أيام. قد يظنّ المرء أن تيماء أرض نائية لدرجة تجعلها بالنسبة للمرء الرّاغب بالاختفاء خشية التدخل بشؤونهم، مكاناً مرغوباً به!

ربما كان هذا الشعور بالعزلة التامة قد وُلد لدينا مزاجاً من العصبية والشك، شعرنا به ونحن في طريقنا إلى أسفل سفوح جريش Jarish بعد أن عبرنا سفوح الملح البيضاء واقتربنا من الأراضي الزراعيّة. التناقض الشديد هو مزيج آسيا بمجملها وجزيرة العرب على وجه الخصوص. بعد اجتياز 300 ميل من القفار الصحراوية، وجدنا أنفسنا وسط أشجار النخيل الشاهقة، وأشجار الفاكهة المزهرة، وجداول المياه الجارية والحقول الخضراء، لا بدّ أن هذه هي الجنّة، «إنها جنّة عذّن لعيون قد جفّت داخل الصحراء»،

كما أن صوت أي فلاح يعمل في التربة أو من سكان المدينة سيكون سماعه ممتعاً مقارنةً بصياح البدوي الأَجَش.

دخلنا تيماء من خلال ممرّات ضيقة تكاد لا تتسع لمرور الإبل، كانت أشجار الفاكهة المليئة بالبراعم تتدلى فوق أسوار الحدائق العالية والطّيور تغرّد بينما كان عبق رائحة النباتات والمحاصيل والتربة رطبة بمثابة النّبيذ بالنسبة لرجل متعب يُشعره بالنشوة. نادى المراوي صوتٌ من الحقول وخرجت قريبةً له راكضةً للقاءه، فقد اتّخذ المراوي زوجة له من تيماء. وهنا تكمن الحكاية، فقد اكتشفت لاحقاً أن زوجة المراوي في تيماء الآن. ولو لم تكن هنا لما استطعنا دخول عش الدّبابير هذا أبداً.

على أي حال، في المرة التالية التي مرّ فيها مراوي بهذه الطّريق برفقة مسافر أوروبي (غرترود بل Gertrude Bell في عام 1914⁽¹⁾)، تجنّب المرور في تيماء! ومع ذلك فأصهار المراوي العرب الذين يعتبرونه ذا مقام عالٍ بينهم والقادم من دمشق - جنة أبناء الصّحراء - أبدوا السّرور لرؤيته، تمّت مرافقتنا عبر الحوارى حتى وصلنا إلى بيت كبير لنسيبه في أفضل حي تحيط به حديقةٌ غناء. رحّبوا بنا أفضل ترحيب وأدخلونا قاعة فسيحة نظيفة تماماً برودتها منعشة.

كان تغيراً لطيفاً جداً عما شهدناه من حياة وحشية عشناها في الشّهر الماضي. وكان شعورنا أفضل بعدما تناولنا منسفاً من لحم الضأن النّجدي والأرز، تم تقديمه بطبق كبير يأكل منه عشرة أفراد معاً. كمية المياه غير محدودة وليست جيدة من الدّرجة

(1) كتب المؤلف: تعرفتُ بـغرترود بل في أبريل عام 1905، عندما أتيتُ دمشق بعد مرور مدّة عام لي في سوريا قادماً من تدّمُر، ولدى دخولي إلى فندق فيكتوريا، التقيت بسيدة إنكليزية تتحدث باللغة الفرنسية والعربية إلى بعض الأجانب المعتادين على التواجد في ذلك الفندق. كانت قد وصلت لتوها من جبل الدّروز. التقينا ثانية في لندن بعد عدة سنوات من رحلة صيد المَهاة هذه، وقد حاولت إقناعي مشاركتها في رهان على مغامرة جديدة في جزيرة العرب. أبديتُ ممانعتي ولكنني عرضتُ عليها اصطحاب دليلي المراوي الذي أخذته في نهاية المطاف. ولكن اللافت للنظر، أنها آلت إليّ بفكّ شيفرة جميع كتبها المتعلقة بالطرق وتحديد الطّرق المختصرة ووضع الملاحظات لمسافة 1500 ميل على الخريطة.

الأولى، فطعمها يشبه طعم الماء الدافئ المرتشح من قربنا الجلدية، والتّمر ذو النّوعية الاستثنائية والشّهرة الكبيرة عند تجار التّمور في الشرق الأوسط بأكمله، ممّا يمكن أن يفكر به المرء.

تستحقّ تيماء الزيارة على الرّغم من وعورة الطّريق وعدم وضوح رؤية المستقبل. بعد أن ألقى أقارب المراوي وأصدقائه النّظر علينا، وبعد أن استمعوا إلى جميع وآخر أخبار العالم الواسع وراء الصّحراء، ذهبنا بدورنا في جولة على منازلهم حيث قوبلنا وفي كل مكان بضيافة في منتهى الكرم والأصالة.

قالوا لي: اعتبر «بيوتنا بيتك»، ووعدوني بأن يطلبوا من الصّيادين أن يأخذوني في اليوم التالي لاصطياد بقر الوحش والنّعام، وبدأت التوقعات رائعة. غير أن العاصفة اندلعت في اليوم التالي، فقد تلقيتُ أمراً مبرماً من حاكم تيماء بمغادرة الواحة فوراً! لم أستسغ فكرة طردي إلى تلك القفار النائية التي وصلتُ منها لتوي. كنتُ قد بدأت للتوّ في الاستمتاع والشّعور بأنني في منزلي، فقد أحبتُ مضيفي واستمتعت بحسن ضيافتهم. كنت أرتاح من عناء السّفر المضني ومن ركوب الهجن لفترات طويلة. بمعنى آخر لم يكن بوّدي الارتحال لأي سبب من أول تقرّيع أسمع.

لذا قدمنا على الحاكم - رجل ابن رشيد - لتقديم احترامنا إليه وشرح سبب زيارتنا. أخبرناه أننا قدمنا إلى تيماء فقط من أجل شراء الطّعام وللعثور على دليل يدلنا على الطّريق إلى جبل شَمَر. ولكن كان الحاكم عنيداً، وأخبرنا أن الطّرق المؤدية إلى حائل مغلقة وأن علينا العودة من حيث أتينا، ناقشنا الأمر معه ولكن عبثاً.

حاولنا إثبات نوايانا السّلمية، في حين كان الحاكم ومستشاره يعزفون على وتر الافتراضات السّخيفة المعتادة بأنني كنت جاسوساً⁽¹⁾، أو كان في حوزتي سُم. أخيراً

(1) كتب المؤلّف: ليس بذلك السّخف الذي اعتقدته، فقد أتى توقّيت زيارتي سيئاً إذ كانت إمارة حائل تترنّج تحت صدمة التمرد داخل حدودها، والخوف من الهجوم من الخارج. فالجوف على حدودها الشماليّة قد قام باحتلاله النّوري الشّعلان زعيم الرّولة، وقد سرت إشاعات أن الأتراك كان قد خططوا لاستهداف تيماء. كانت الشّائعات تدوّي في الصّحراء، والواحات في

خرجنا من عنده، بعد أن وقع المراوي بإحراج لم ينفعه معه اسمه - المعروف في جميع أنحاء الصحراء - في تلك الواحة. تحققت أسوأ مخاوفنا في وقت لاحق من ذلك اليوم، عندما دخل الرجل العظيم وجواسيسه إلى مقر إقامتي عند مضيفي طالباً تفتيش جميع حاجياتي.

ببراءة عرضتُ عليهم أشياءي لأبرهن لهم أن اهتماماتي لم تكن تتعدى الأمور العلمية، ولكنني لم أتمكن من سبر غور تلك الحيل العربية، فعن طريق المكر استطاع الحاكم إبعادي عن مُضيفي وعن المراوي وعن خدّامي بينما كان رجاله السود ضخام الجثة ينهبون أمتعتي، إذ لم يكن السّم هو الشّيء الذي يبحثون عنه بل أكياس المال لدي! وما إن وضعوا أيديهم على أكياس الذهب حتى شهبوا أسلحتهم! لم يكن شعوري بالإهانة بسبب رفعي يديّ للأعلى أكبر من شعوري بالوحدة، إذ كنتُ أعزلّ دون سلاح وسط مجتمع متعصب، غير قادر على القيام بشيء.

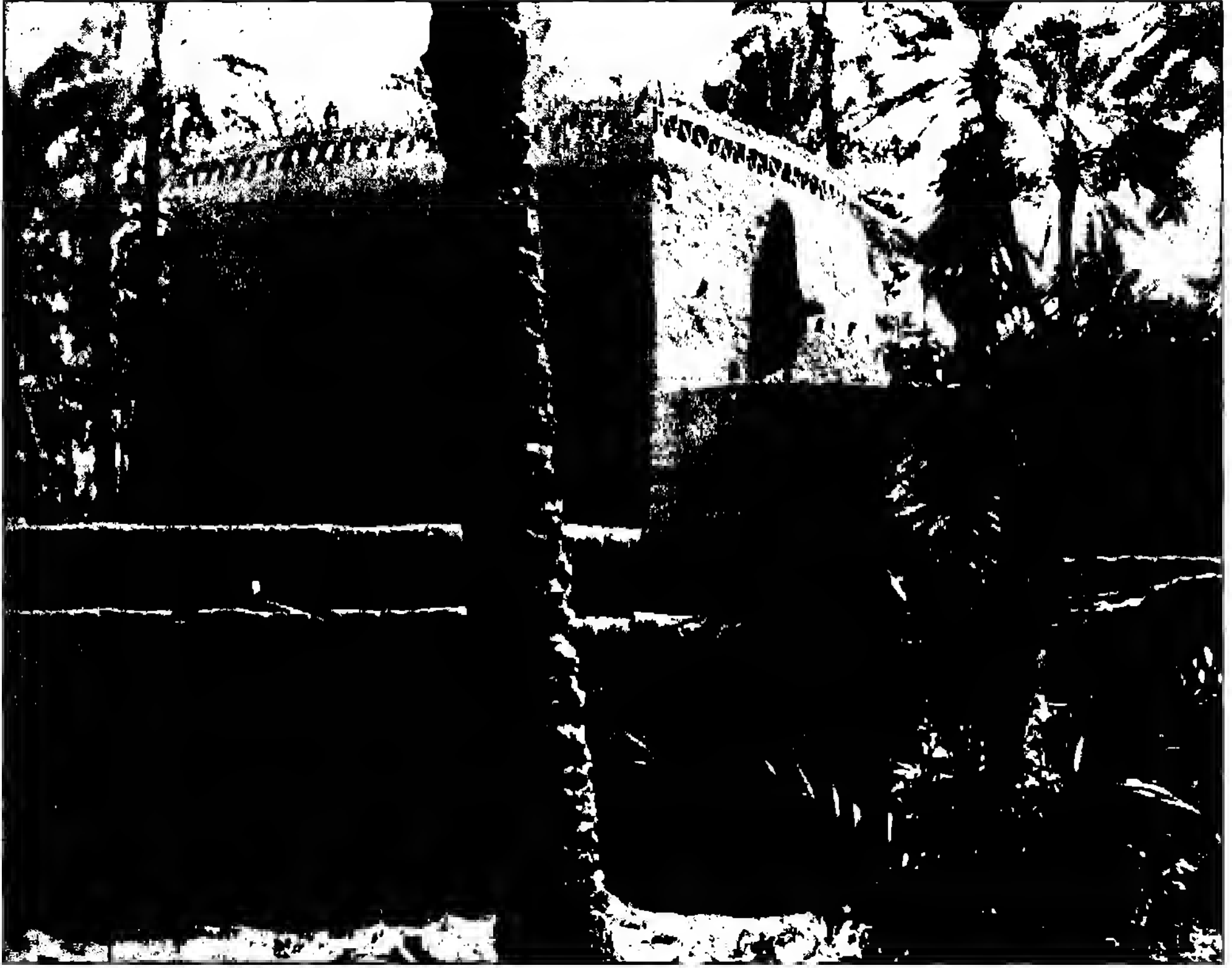
ولكن لم تكن الأمور بالسوء الذي بدت عليه، لأن بعض رموز الشرف مازال تمارس حتى هنا في تيماء، والتي تتجلى بتحريم السلوك غير اللائق مثل سرقة الضيف. ما إن سمع الحاكم بالعنف الذي تعرضتُ له حتى هبّ متفضلاً ليعلن عن تبرّئه من هذه الأفعال مدعياً بأن السرقة التي جرت لم تكن قد وقعت بأمرٍ منه، وأمر بإعادة جميع المسروقات، فأعيدت على الفور. احتطتُ للأمر ونقلت جميع أشياءي مباشرة إثر ذلك إلى حوزة حريم مُضيفي والتي تعتبر في جزيرة العرب «آمنة بمثابة البنك في إنكلترا».

ثم تلت ذلك فترةٌ من القلق، ولكن عن طريق الاحتيال والرشوة والخداع تمكنت من البقاء في تيماء لبضعة أيام أخرى. على فترات كانت تأتيني الأوامر بالرحيل غير أن المراوي كان على استعداد للمخاطرة بتجاهل الأمر، على الرّغم من أنه لو سارت الأمور على غير ما يرام لكان هو من عليه أن يدفع الثمن. كانت زوجته التيمانية الشابّة إحدى النّساء القلائل اللاتي يكشفن عن وجوههن ويتسمن لدى لقائهن الغرباء ولم

حالة انتظار وترقب نكد الجواسيس في كل مكان، وعلى الرّغم من عدم معرفتي بالأمر في ذلك الوقت فإن البلد بأكمله كان في حالة ثورة.

أكن قد رأيت مثل ذلك في جزيرة العرب. ولكن تبدو في بعض الأحيان أنها جريئة اللسان، متحررة أكثر من اللزوم، «وبعبارة أخرى كانت ذات شخصية مميزة، وسرت شائعة بأنها لا تنوي مغادرة موطنها في تيماء مرة أخرى والعودة إلى دمشق مع مراوي. لذا تسكعنا قليلاً هنا، وقد خدم ذلك الهدف الذي كنت بصددده! وما رأيت في تيماء خلال هذه الأيام كان يستحق ذلك العناء وتلك المخاطرة.

أول عجائب تيماء هو هَدَاج Haddaj، أو جُب بئر كبيرة معروفة في جميع أنحاء جزيرة العرب. فالمكان هنا مدينٌ بالفضل لنبع ماء رائع وصافٍ تتدفق مياهه من داخل الأرض. إنه منظر رائع ومثير للإعجاب في هذه الأرض القاحلة. بئرٌ عظيمة جداً تستطيع أن تُروي مئة جمل مرة واحدة، تُستجرّ منها المياه باستمرار ليلاً ونهاراً واهبة الحياة. كانت تستجرّ منها المياه منذ أيام كانت تيماء تدعى تيماء؛ منذ ذلك الحين وهذه البئر في استخدام مستمرّ تقريباً ولم يُعرف عنها أنها توقفت عن العطاء أبداً. إنها موردٌ لا ينضب أبداً ذو طبيعة أرتوازية، فالبئر بمثابة خزان مائي ضخم بعرض يصل إلى خمسين قدماً وبعمق حوالي ثلاثين قدماً. تحافظ مياه البئر على مستواها بغض النظر عن كمية السحب التي تجري منه فلا تزيد ولا تنقص.



دور في تيماء

وعلى الرغم من جمال منظرها فإنها فاترة ولا طعم لها، وقد قيل إنها تسبب المرض إن لم يتم تبريدها في أباريق خزف قبل الإقدام على شربها. لقد كانت بئر هَدَاج Haddaj بمثابة القلب من تيماء بأكثر من معنى، فهي التي تزود شريان الصحراء بدم الحياة، وهي أيضاً مكان الاجتماع العام لسكان المدينة. «عندما تغرب الشمس في المساء، يأتي إلى هناك مواطنو البلدة الصحراوية وسيوفهم مشرعة في أيديهم، للاستراحة على حواف البئر الطينية ولساعات طويلة؛ وهو المكان الذي يتسكع فيه البدو الرُّحَّل الغرباء في هذه الواحة».

تمثل هذه البقعة مشهداً مُفعماً بالحركة خلال بعض ساعات اليوم، وخاصة عندما تأتي الإبل لتشرب، إذ يبدو أنها تبقى البعض في حالة عمل دائم. في واقع الأمر يتوقف عمّال البئر عن العمل عادةً عندما تزداد حرارة الشمس خلال النهار وفي أوائل المساء،

ولكن عموماً العمل لا يتوقف فأنين بكرات البئر تحت وطأة الجبال التي تسحب الماء من البئر لا ينقطع، حتى غدا هذا العويل هو الصفة الملازمة والسمة المميزة لهذه الواحة الخرساء، قد يسبب هذا الصراخ بعض الضرر بالنسبة للوافد الجديد على المنطقة، غير أن أهلها لا يعيرون ذلك الأنين أذناً واعية.

أحصيتُ 60 جملاً تسحب الماء من هذا البئر في وقت واحد، وقد سجل غوارماني Guarmani أن «48 بغيراً كانت تعمل بشكل مستمر». وقال داوتي Doughty إنه كان هناك ثمة ستين بكرة لسحب الماء ولكنها نادراً ما كانت تعمل في آن معاً، وعلى الرغم من تصدّع جزء من جدران البئر كان لا يزال هناك أربعاً وأربعين بكرة عاملة وقت زيارته. وقال أوبير (هوبر) Huber إنه رأى خمساً وسبعين بكرة فوق البئر وقد قيل له إنّ العدد يرتفع إلى المئة عند الحاجة، بينما أحصى أويتنغ Euting ثمانين قناة تخرج بالماء من حفرة البئر.

أما الدّلاء الجلدية فهي ضخمة جداً لدرجة تعجز الحيوانات عدا الإبل عن سحبها وهي مملوءة بالماء من هذا العمق. قد يصل حجم الواحدة منها إلى عشرين غالوناً بما من شأنه أن يصل وزن الواحدة إلى 200 ليبرة. دعنا نعتبر أن هناك ما معدله خمسين رأساً من الإبل تعمل على رفع المياه لمدة اثنتي عشرة ساعة في اليوم، نجد أن معدل الماء الذي يتم سحبه من البئر يصل يومياً إلى مئة ألف غالون يتم تحويلها إلى قنوات الرّي، لا شك أن ذلك يمثل إمكانات غزيرة لمساحة أرض صغيرة.

تتألف تيماء من ثلاثة أفرع منفصلة، أما المستوطنة الرئيسية والتي تقع في الوسط فوحدها تتم تغذيتها من ماء هَدّاج، أما الاثنتين الأخريين ففيهما آبارهما الخاصة بهما. يصل عدد مصادر المياه إلى لعشرين ولكنها أقلّ مردوداً من هَدّاج. وعندما يتم رفع الدّلاء من هَدّاج لمستوى سطح الأرض، تميل تلقائياً لتسكب المياه في أحواض حجرية ومنها لتجري في شبكة من قنوات الرّي حتى تصل إلى بساتين النّخيل والحقول. ويتم تخزين جزء من هذه المياه في أحواض طينية من أجل توفير مناخ رطب لأشجار النّخيل. ففي كل حائط يوجد تقريباً واحد من هذه الأحواض الصغيرة

المتعة نحت شجرات النّخيل، تجتمع عليه الطّيور كما الحشرات والذباب وكذلك طائر السنونو والمارتيني. ونتيجة لهذه الإمدادات الوفيرة بالمياه كانت جنة حقيقية من النباتات الفاخرة لا يمكن أن تتوصل إليها إلا بتربة صحراوية مروية بمياه الآبار الجيدة.

يشمخ النّخيل الباسق لارتفاع يصل إلى نحو 90 قدماً، ليهب عطائه على شكل أفضل وأحلى أنواع التمور وبشمن يقارب العشرين ريالاً أو حوالي 2 جنيه استرليني لمحصول الشجرة الواحدة. لكن هذه التمور شهية المذاق أصبحت لعنة على السكان الذين يستخدمونها بشكل رئيسي كوسيلة لمقايضة السلع التي يرغبون بها ولكن لا ينتجونها مثل اللحوم الطازجة والسمن. تذهب معظم مقايضات التمور إلى الشرارات التي تأتي بالأغنام والطرائد البرية والسمن. وإلى جانب النّخيل رأيتُ أشجار التين والليمون والرمان، الدراق والخوخ، والأترج العملاق، والعنب والبطيخ بكميات صغيرة، بالإضافة إلى التبغ وهو منتج غريب عن واحة يعدّ سكانها عموماً من الأتباع المتشددین للمذهب الوهابي (السلفي) الذي يمنع الانغماس في مثل هذه الكماليات. ويوجد أيضاً محاصيل أخرى كالشعير والقمح والدّخن.

وعلى الرّغم من ارتفاع تيماء الكبير الذي يصل إلى أكثر من 3000 قدم، فلقد وجدتها تبث على الاكتئاب، خاصة عندما يلفحها الهواء الصّحراوي. يشعر الإنسان الأجنبي القابل للتكيف بذلك، ولكن البدوي يعير ذلك اهتماماً أكبر. قد يرجع سبب هذا المناخ إلى موقع الواحة في أسفل المنخفض. وعلى الرّغم من أنها بالكاد يمكن ملاحظتها للعين العارضة، فالتجويف الذي تقع تيماء فيه يكاد يغرق بأكمله عند هطول المطار الغزيرة لعدم وجد مصارف لمياه الأمطار. وقد سجل أوبير (هوبر) Huber أنّ تيماء تعرّضت للدمار ثلاث مرّات بسبب الفيضانات، وأنها هُجرت في إحدى المرات لعدة قرون إثر أحد تلك الكوارث.

اعتقد داوتي أن تيماء «تفوق ازدهاراً أيّ مكان آخر رأيته خلال ترحالي في جزيرة العرب»، وقد أشار أنه «لم يرَ منزلاً خرباً، حائطاً مهدماً أو أرضاً مهجورة في معظم

أنحاء جزيرة العرب». بينما قال أوبير (هوبر) Huber من ناحية أخرى إن الواحة في تراجع، مؤكداً أن جميع السكان، عدا عدد قليل من الأسر الكبيرة، مجبرون من قبل البدو على تأجير إبلهم ليتم استخدامها لاستخراج الماء من البئر، الأمر الذي من شأنه أن يستنزف رؤوس أموال أولئك الناس ويصيب مواردهم بالشلل.

ومع ذلك، وفي عام 1909 أيقنتُ أن المساحة المزروعة من الواحة في ازدياد، فقد رأيتُ أشجار نخيل صغيرة مزروعة حديثاً تحيط بتلك الكبيرة وقد بُني سورٌ حديث ليحيط بها. وتيماء القديمة⁽¹⁾ أكبر مساحةً وليس هناك من مانع يحول دون ازدهارها واستعادة مجدها مرةً أخرى طالما أن أهلها أذكاء ونشيطون بما فيه الكفاية للعثور على الماء. ينبغي أن تكون الموارد التحتأرضية غير محدودة. وعند زيارتي لتيماء كانت المساحة المزروعة منها حوالي 2000 فدان وعدد سكانها، وفقاً لعدد الأسر، حوالي المئتين وخمسين أسرة.

عودة إلى البئر وقصصه. لقد تم ترميم الجزء الذي انهار من جدار البئر عند زيارة داوتي Doughty، ويبدو أن الجدران الأربعة للبئر قد جرى تدعيمها. يبدو أن الانهيار العرضي للجزء المتبقي من الجدار أدى إلى اكتشاف المعجزة الثانية لتيماء والتي تدعى حجر تيماء. «ذلك النصب التذكاري الآرامي الشهير الآن» أحد أنفس الكتابات السامية في العالم. علم داوتي Doughty به من قبل زيدان Seydan، الحداد في المنطقة، الذي هداه لرؤية «الألواح المكتوبة»، كان «النقش طويلاً على حجر من جدران بئر هَدَاج Haddaj التي انهارت إلى الأسفل». أدرك داوتي Doughty مغزاها، فتلك الكتابة مختلفة كلياً عن أي نص رآه في الحجر Hejr. كما كان هناك أيضاً رسمٌ بالإضافة إلى الكتابة.

(1) كتب المؤلف: تُعدّ تيماء واحدة من أقدم المواقع المأهولة في جزيرة العرب. عُرف اسمها من خلال النقوش المسمارية، والملك البابلي الأخير، كما قال لي الآثاري الفرنسي رنيه دُسو René Dussaud، كان قد أقام لعدة سنين في تيماء. وقد ذُكرت تيماء في العهد القديم في عدة أسفار مثل إشعيا وإرميا وأعمال الرُّسل.

لكن قبل أن يقوم بنسخ هذه الكتابة أصيب بالرَّمد، ولم يُعد له بصره قبل عشرة أيام وبعدها غادر تيماء. كان التقرير الذي قدّمه داوتي إلى المستشرقين الأوروبيين عن الحجر هو سبب الزيارة المستعجلة التي قام بها الفرنسي الألزاسي شارل أوبير (هوبّر) Charls Huber متتبّعاً أثر داوتي في العام التالي. نزل أوبير (هوبّر) في تيماء في نوفمبر 1880، وكتب شارحاً «النقوش التي جمعتها لم تكن كثيرة ولكنها بالغة الأهمية بقدر قدمها ولغتها المندثرة، أحد تلك النقوش كان نبطياً والآخر آرامياً والثالث لم يتم فكّ حروفه بعد».



حجر تيماء (الجانب الأيسر)

دون شك، إحدى تلك النقوش وعلى الغالب أنها الآرامية، كان هو الحجر الذي كان ذكره داوتي. لم يتحدث أوبير (هوبر) بالمزيد عن الموضوع بل عاد إلى أوروبا طلباً للاستشارة وما لبث أن عاد مرة أخرى عام 1883 إلى جزيرة العرب مصطحباً معه عالم آثار من ستراسبورغ هو يوليوس أويتنغ Julius Euting، وصل الإثنان إلى تيماء في الخامس عشر من شهر فبراير 1884 وأقاما هناك لمدة خمسة أيام. هناك شك كبير فيما يتعلق بالمكتشف الحقيقي لحجر تيماء.

يقول داوتي إن الحجر ذا النقش الطويل الذي تم العثور عليه في أنقاض انهيّار جدار بئر هَدّاج Haddaj والذي كان هو أول من كتب عنه، هو الحجر «الذي أراه أوبير (هوبر) لعالم الآثار أويتنغ بعدي بضع سنين. يعتقد أويتنغ أن النقش، والإهداء الذي يحتويه، والذي قد كتب بنفس الحروف الآرامية للنقوش الأخرى التي وجدتها في تيماء، قد يعود تاريخه إلى أربعة أو خمسة قرون قبل المسيح». ويضيف أويتنغ قائلاً: «تؤسفني حقيقة أن التّريب والتّريب لم يفلحا في الحصول على أحد الألواح المنقوش عليها، والتي كانت قد استخرجت من بئر هَدّاج الكبير قبل بضع سنين، حتى أنه لم يُسمح لنا حتى النّظر إليها من أجل نسخها». يتحدث أويتنغ عن الحجر الذي يصفه بأنه حجر تيماء، قائلاً إنه اكتشفه وقد زُيّنت به عضادة باب منزل في الجانب الجنوب الغربي من المدينة. وقد اهتدى إلى هذا البيت بفضل زيدان Seydan نفسه، الحداد من حائل والمقيم في تيماء، الذي اتخذ من داوتي Doughty صديقاً له وقاده إلى العديد من الحجارة التي نُقش عليها وأخبره عن آخر.

ذكر أويتنغ في تقريره الخاص بتلك اللقى قائلاً: يوم الأحد 17 فبراير 1884، كنا قد انتهينا للتوّ من تناول طعام فطورنا عندما أتوا لنا بوجبة طعام مع ثويني الرّمان Tueni Er-Rumman، حيث تم تقديم التّمر والفطير والسّمن الطّازج المُذاب الذي قُدّم وحده في اثنين من الأطباق الصّغيرة، أما مشروبنا فاقصر على اللبن الرّائب.. كنا بالكاد قد انتهينا قبل أن يتم اصطحابنا من قبل فهد الطّلق Fahad Talak إلى منزله لتناول الطّعام، حيث تناولنا مرة أخرى التّمر والخبز والسّمن والحليب. كان

بين المدعوين رجلٌ خبير ماهر بالأسلحة يدعى زيدان، استعنتُ بخدماته كدليل في المدينة نظراً لمعرفته بطبيعة الأرض واهتمامه بمخططي. ولم أشعر بالأسف لقراري ذلك.

ما إن انتهت وجبتنا حتى انطلقتُ معه إلى الجزء الغربي من المدينة، حيث، ووفقاً له، غاصت تيمما القديمة مقدار قامتين في باطن الأرض. التقط من الأرض خلال مشينا السريع عبر تلك الأراضي الرملية بعض القطع الزجاجية وبعض القطع الصّدية من البرونز مع بعض الرّكام للأرضيات الإسمنتية وعقيق أحمر. أدهشتني القناة المتجه شمالاً والجدران الكلسية، التي كان المقصود منها أصلاً تصريف المياه إلى السّبخات. وإلى الجنوب وصلنا إلى قصر الدّير Kasr ed-Dair، وهو مبنى مربع كبير تحتلّ الأبراج زواياه بالإضافة إلى أنقاض بئر متداعية.

من هنا قادني لمدة خمس دقائق أخرى باتجاه الجنوب إلى دار تُدعى دار طليحان⁽¹⁾ Tlehan التي فيها قمْتُ بأعظم اكتشاف لي خلال جولتي في العالم العربي. فعلى الباب الثاني من النّاحية الدّاخلية للدّار وعلى عضادة الباب الأيمن رُكز حجرٌ رأساً على عقب وقد نُقش على الجانب الضيق منه بحيث لا يمكن ملاحظة النّقش للوهلة الأولى. يُعرف هذا الحجر في الوسط العلمي بإسم مسلة تيماء. بالكاد استطعتُ السّيطرة على مشاعري ما إن وقعت عيني على تلك الحروف؛ وبهدوء مُختلق تناولت ورقة نسخ «كالك». ولكن صاحب الدّار طلب المال نقداً، فمنحّته المال وبكل سرور.

ثم طلبتُ من زيدان الحضور مبكراً في صباح اليوم التالي، وأسرعْتُ إلى المنزل، كنت أشعر بتعب كبير، غير أن شعوري بالإثارة كان أكبر حتى أخبر أوبير (هوبر) Huber باكتشاف الجديد، ولإطلاعه على أهمية النّقش الذي يعود بالتأكيد إلى القرن السّادس قبل الميلاد. ينبغي نزع الحجر في الغد وجلبه لنا هنا. دُعينا في المساء إلى دار ثويني وتناولنا القهوة مع عبد العزيز الرّمّان. كنت أفضل ألف مرة أن أكون قد بقيت

(1) كتب المؤلف: تقع دار طليحان Tlehan في الجانب الغربي من المدينة على بعد نصف ميل من البئر الكبير.

في المنزل لدراسة انطباعي حول ورقة الضغط «كالك» التي طبعت عليها النقوش. يوم الإثنين في 18 فبراير 1884 جفاني النوم بسبب تفكيري المتواصل طوال الليل بتلك المسئلة، وعندما طلع الفجر، درست ورقة الكالك من جديد على ضوء الشموع.

عند انبلاج الفجر، كنت أنظف نفسي وملابسي من القمل وتبعني زيدان، خبير الأسلحة، بذلك، وبعد أن قمت بجولة سيراً على الأقدام خلال المدينة عدت إلى المنزل، وعندما وصلت رأيتُ سبعة من الرجال واقفين في فناء المنزل وكانوا قد وضعوا للتو المسئلة التي وجدتها في دار طليحان. أعطيتُ كلَّ حمال ربع مجيدي، وصاحب المسئلة مجيدياً ونصف، أي ما يعادل خمسة ماركات. غادر الغرباء المنزل بعد أن دفعْتُ لهم، وبقيتُ أنا والمسئلة أخيراً وحدنا لأتفحصها عن قرب.

في ذلك الوقت تذكر أوبير (هوبر) أنه كان قد شاهد ذلك الحجر سابقاً في رحلته الأولى (1880) ولكنه لم يعره أيَّ اهتمام. «يبلغ ارتفاع اللوح الحجري 110 سم وعرضه 43 سم و سماكته 12 سم. إنه مدبَّب من الأعلى ويحمل على جانبه الأيسر الضيق رسماً لشكلين للإله صلم هجم *Selem of Hagam* على شكل رجل ملتح واقف وهو يرتدي الملابس الآشورية ويعتمر القبعة الآشورية الملكية العالية على رأسه، حاملاً بيده اليسرى رمحاً وماداً يده اليمنى كما لو كان يقوم بحماية الكاهن. ويظهر قرص الشمس المعنح فوق الإله. أما تحته وبشكل أصغر تقريباً فهناك رسم للكاهن صلم شزب *Selem Schezeb* كما هو منقوش على المسئلة بلباسه الآشوري، حاسر الرأس واقفاً بوضعية من يقدِّم الأضاحي على المذبح المزين برأس ثور. ولقد بدت الكتابة والرسوم بشكل شبه نافر. على الرغم من أن الجزء العلوي من الحجر (قد تم وضعه بشكل رأسي على الأرض) قد تضرَّر نوعاً ما (خاصة السطر الخامس إلى الثامن) فإنَّ النصَّ مازال مقروءاً بدقة مقبولة حتى اليوم».

هذا ما كتبه أوبير (هوبر) *Huber* في مذكراته المتعلقة بتلك الصَّفقة. وبتاريخ الثامن من فبراير يقول:

«أرسلتُ إلى الحاكم عبد العزيز ورفقة عبد له ومحمود طالباً معرفة صاحب

الحجر الذي يحمل النقوش الفينيقية⁽¹⁾ الطويلة، مع تعليمات تقتضي بإنجاز الصّفقة معه وإحضار الحجر لي مهما بلغ الثمن، ومهما بلغ «البقشيش» الذي ينبغي عليّ دفعه، على أمل أن ينجحوا في مهمتهما. عاد رجالي في السّاعة العاشرة والنّصف يحملون الحجر معهم، وذلك بفضل الله!... إنها مسألة رائعة، لسوء الحظ هناك كسر في قاعدتها... الأحرف نادرة غير أن الثلث العلوي منها كان قد تضرّر بشكل كبير. المسألة الآن ملكي: ولكن كيف سأنقلها؟ لا شك أن وزنها يزيد عن 150 كيلو غراماً، إنها تزيد عن نصف حمل بعير، وكيف لي أن أنقلها في شحنة واحدة؟».

من هنا يبدو أن أوّيتنغ Euting هو مكتشف المسألة، بينما كان أوبير (هوبر) Huber مشتريها. ولكن هل كانت هذه المسألة هي الحجر الأصلي الذي أشار إليه داوتي Doughty والذي كان في بئر هّداج Haddaj ومن ثم تم نقله ليتم تثبيته على مدخل أحد المنازل، أم لا؟ لن نعرف ذلك أبداً. وليس لنا أن نعرف أيضاً حقيقة أوّيتنغ Euting في المطالبة بتسجيل اسمه كمكتشف للحجر.

فقد رأى أوبير (هوبر) Huber كتابات كثيرة سابقاً، ولا نستطيع معرفة ما إذا كان أوبير (هوبر) يعني هذا الحجر خاصة عندما تقدّم بتقريره إلى وزير الدّاخلية، ممّا أدّى في نهاية الأمر إلى تعاون الاثنين معاً. ولكن ممّا لا شك فيه أن أوّيتنغ Euting كان أول من عرف أهمية القيمة الأثرية لهذه المسألة.

وتبقى الحقيقة بين ذينك الاثنين، أحدهما يعتبر نفسه مكتشف ذلك الحجر والآخر مستشرق باحث استطاع حلّ رموز الحجر، أنهما لم يكونا متفقين. من المحتمل أن يكون أوبير (هوبر) قد أدرك الآن قيمة اللقى التي تم العثور عليها، وهذه الحقيقة هي التي كتبت التاريخ اللاحق لهذا الحجر، وما زال تاريخ ذينك المسافرين غير قابل للتفسير. وفي الثالث عشر من شهر مارس غادر المسافران تيماء وإلى الأبد.

وذكر أوبير (هوبر) في مذكراته الأخيرة عن موضوع النقوش قائلاً: «أما بالنسبة

(1) كتب المؤلف: كان هوبر Huber يُشير دائماً إلى الحجر بإسم المسألة الفينيقية ما عدا في مناسبة واحدة عندما أسماها مسألة الملك شزب، علماً أن شزب كان في الواقع كاهناً وليس ملكاً.

للمسلة الفينيقية والنقوش الأخرى، فقد تم توضيها وتغليفها بشكل جيد، وبما أنه ليس لديّ بعير أحملها عليه الآن فسأقوم بتركها مبدئياً، على أن يتم وضعها في القلعة من أجل سلامتها حيث سيقوم عبد العزيز النّقري بوضعها في مقرّ إقامته لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، على أن آخذها معي عند عودتي من العّلا El Ala، إذا توفّر لي جمل، وإلاّ سأرسل من يأتي بها عند وصولي إلى حائل».

ذهب الإثنان جنوباً إلى العّلا Al Ula وافترقا هناك، حيث عاد أوّيتنغ Euting إلى وطنه عن طريق الوجه Wjzh، بعد أن نجا بالكاد من الهجوم الذي تعرض له من قبل عرب جهينة Jahaina في الطّريق، بينما طاف أوبير (هوبّر) عائداً إلى الدّاخل، ليس إلى تيماء بل إلى حائل. أقام في عاصمة شمّر سبع أسابيع يدوّن مذكراته الغزيرة، ويستكشف المناطق المتاخمة، والأمر الأكثر أهمية هو كسب ودّ الأمير الحاكم الذي مازال محمّد بن رشيد سيّء السمعة ذاته (الذي قام بقتل جميع أقاربه المقربين ما عدا واحداً منهم في يوم واحد)، ولكنه مازال يُعتبر رجلاً عظيماً كما يقول هوغارث Hogarth «كان أشدّ الناس عزيمة في القرن الذي عاش فيه»، أو كما يكرر فيلبي دوماً «كان أحد أعظم الرّجال الذين أفرزتهم جزيرة العرب على مدى الدّهر». كان في حالة حرب مستمرة، وعندما وصل أوبير (هوبّر) كان في غارة غاب فيها عن عاصمته ثمانية وتسعين يوماً. بعد ثماني سنوات تقريباً فرض سيطرته الكاملة على وسط نجد. كان مقدراً له أن يرى سياسته تتحقّق في أثناء حياته ومات بعد ذلك على فراشه كما مات بعض الأمراء العرب وليس اغتيالاً، تاركاً «إمبراطورية واسعة منظمة استطاعت ضمّ وسط جزيرة العرب بأكمله وصولاً إلى وادي الدّواسر Wadi Dawasir في الجنوب».

تعلق أوبير (هوبّر) بتلك الشخصية بشكل كبير. وفي الخامس من مايو ولدى عودته إلى حائل من حملة إلى السّلايّة Salailiya في أقصى الحدود الجنوبية للإمارة، حيث كانت هناك نقوش، كتب أوبير (هوبّر) يقول «بعد ساعتين من وصولي، عاد كل من محمود، ونعمان ومقلط من تيماء جالين معهم المسلة الفينيقية وبعض الألواح المنقوش عليها هي الأخرى».

لم يعد أوبير (هوبّر) يذكر المزيد عن تلك الكنوز، ولكن تركها في رعاية أمير البلاد، وانطلق في رحلته ليقطع ستمئة ميل عابراً القصيم ومن ثم إلى جدّة، ماراً بمنطقة غير مستكشفة نسبياً، فليس هناك من رجل أوروبي شاهد المنطقة بين القصيم وجدّة سوى داوتي. لن نتمكن من معرفة الهدف الذي كان أوبير (هوبّر) يتطلع إليه من خلال تلك الرّحلة الطويلة، الشّاقة والخطرة الى السّاحل أبداً. لكنه كان واثقاً من مبدئه لأن نيّته كانت العودة في نهاية المطاف إلى حائل لجلب النقوش.

وصل إلى جدّة في التاسع عشر من يونيو وتابع يكتب مذكراته حتى الثامن والعشرين منه. ويرد في الثاني والعشرين أن الأمور لا تسير على ما يرام، ومرة أخرى كتب يقول إنه ينوي العودة إلى جبل شَمَر عن طريق مكّة، ومن أجل ذلك كتب إلى الأمير يطلب منه العثور على رفيق من عتيبة Ataiba ليكون في انتظار وصوله إلى مكّة. على أي حال، أخيراً بدأ أوبير (هوبّر) في رحلته عائداً إلى أعماق جزيرة العرب. كان النّجاح حليفه بشكل كامل لدرجة أنه استغنى عن الحراسة فقد قتل حارسه على يد أدلائه قبل بضعة أيام بالقرب من رابغ Rabigh. لمن ستؤول المسألة الآن إلى برلين أم إلى باريس؟ ذلك اللوح الخارج من حفرة بئر في تيماء ثم المغلّف في حائل، خلق الآن وفجأة إشكالاً في أوروبا الغربية، ولا يمكن وصف الإشكال سوى أنه ناجم عن غيرة دولية حادة.

حاول المهتمّون بالحجر الحصول عليه أثناء نقله في الطّريق إلى جدّة أو إلى دمشق. وتشبه قصة اكتشاف الحجر القصص الرومانسية، لكنّ هذه القصة صحيحة بكل تفاصيلها. أما أفضل شرح لهذه القصة فقد ورد في تقرير رالي Ralli «مسيحيون في مكّة»، والذي أقتبس منه:

«أرسل أوبير (هوبّر) نسخة عن الحجر من جدّة إلى رينان Renan في باريس، وقد قام أويتنغ Euting بالشّيء ذاته ولكن أرسله إلى نولدكه Nöldeke في برلين. وقد أرسل مع نسخة الحجر رسالة تقول بأنه اكتشف الحجر وأنه في طريقة إلى ألمانيا». صدف أن كان مساعد القنصل الفرنسي في جدّة فيليكس دي لوستالو Felix de

Lostalot في باريس آنذاك ومساعدته طالب الترجمة في عدن، فانتهاز جزائري منفي يعيش في مكة هو سي عزيز⁽¹⁾ Si Aziz الفرصة ليتولى الأمر. كان رجلاً داهية وليس من السهل خداعه، تفوق على دي لوستالو في سرعة البديهة العملية، فعرض خدماته على القنصل الهولندي الذي كان يمثل فرنسا مؤخراً. بعد فترة وجيزة من عودة دي لوستالو إلى جدة كلفته الحكومة الفرنسية لضمان إنزال العقوبة بقتلة أوبير (هوبر) واستعادة ممتلكاته بما في ذلك مسلة تيماء.

كان لا بد من إجراء تلك المفاوضات بشكل سرّي، لأن أوبير (هوبر) كان قد قام برحلته تلك معارضاً لإرادة السلطات التركية. لم يكن هناك من رجل أقل ملائمة لتولي تلك المهمة من دي لوستالو، كان رجل يفقد إلى البراعة، ولا يتكلم اللغة التركية ولا العربية، كما كان يجهل وبشكل فادح الآداب الشرقية. خاطب والي الحجاز بكثير من الفظاظ مما اضطره في نهاية المطاف إلى الاعتذار. كان العمل الأكثر ذكاءً الذي قام به دي لوستالو هو قبول عرض سي عزيز لتسليم المسلة وممتلكات أوبير (هوبر) إلى القنصلية الفرنسية، وبالمقابل كان من الطبيعي أن يتلقى سي عزيز نفقات سفره، كان المبلغ الذي اشترطه هو 5000 فرنك انتزعها بصعوبة من نائب القنصل البخيل، وما كان على سي عزيز سوى اللجوء إلى المناورة الشرقية المعروفة بالادّعاء بوجود من دفع ضعف ذلك المبلغ، والذي سيفصح عن اسمه قريباً.

من إقامة هورخرونيّه⁽²⁾ Hurgroenje في جدة قبيل مغادرته إلى مكة، قيلت كلمة، ولكن لم يشارك بالموضوع «قضية أوبير» سوى من خلال ترجمة رسالة أو اثنتين للقنصلية الفرنسية. كما وجه رسالة إلى صديقه القديم، البروفسور أويتنغ Euting، ليطمئنه عن ممتلكاته ووصولها الآمن المحتمل إلى جدة. منذ تلك اللحظة اشتبه دي لوستالو بتواطئه من أجل نقل المسلة إلى ألمانيا.

(1) أي السيد عزيز، على طريقة أهل الجزائر في اختصار العبارة.

(2) كتب المؤلف: مستعرب هولندي احتل مكانة عالية بين السلطات الأربع في المجتمع المكي، وكان قد أمضى خمسة شهور في المدينة المقدسة، ولكن بسبب هذه الأحداث المؤسفة سيضطر إلى تمديد إقامته إلى أجل غير مسمى.

اعترض هورخرونيّه Hurgronje ولكن دون جدوى. وأكّد دى لوستالو وبصراحة كبيرة رأيّه أنه ليس هناك من عالم يُمانع في الاستيلاء على اكتشافات زميل له، مدّعياً بأنه يعرف أولئك العلماء تماماً وجميعهم متشابهون. وخوفاً من أن تضر مثل هذه الشّكوك بأمنه في مكّة، كتب هورخرونيّه عشية مغادرته جدّة رسالة إلى نائب القنصل أقسم فيها بأنّه ليست لديه أيّة رغبة في حيازة المسلّة، وأنه غير مكلف من قبل أي جهة للقيام بذلك. قوبلت رسالته بطريقة ودية، ووعدّه دى لوستالو بالمقابل بإبقاء أمر إقامته في المدينة المقدّسة سرّاً.

تعارف هورخرونيّه Hurgronje وسي عزيز في مكّة حين كان سي عزيز على وشك المغادرة إلى حائل من أجل القيام بمهمته. حينها اشتكى لهورخرونيّه من بخل نائب القنصل الفرنسي، واقترح من هورخرونيّه 200 فرنك لتغطية نفقات سفره، وقد سدّد هذا المبلغ بوقت لاحق. لم يلتق الرّجلان بعد ذلك حتى يونيو. بحلول ذلك الوقت كان سي عزيز قد أنجز الغاية من رحلته وكان قد سلّم ممتلكات أوبير (هوبر). كان ابن رشيد، أمير حائل، قد حفظ ممتلكات ضيوفه الأجانب دون أن يمسّها أحد طوال فترة غيابهم الطويلة. فسلم الممتلكات إلى سي عزيز بصفته ممثلاً للحكومة الفرنسية.



في واحة تيماء

استمع هورخرونييه إلى رواية صديقه وأكد كما في أكثر من مناسبة سابقة بأن مصاريفه سيتم تسديدها من قبل السلطات المسؤولة. تم إرسال المسألة إلى باريس وهي الآن في متحف اللوفر. «هذا هو المدى الذي وصل إليه هورخرونييه Hurgronjes» فيما يتعلق بمسألة تيماء. ولم يخطر بباله مباشرة الخطر المميت الذي تشكّله هذه المسألة على مهنته، الأمر الذي سآتي عليه الآن. فقد تم استدعاؤه في شهر أغسطس من قبل القائمقام (فقد كان الوالي في الطائف) حيث تلي عليه أمرٌ باللغة التركية يأمره بمغادرة مكة على الفور، أُعطي فرصة ساعات قليلة لحزم أمتعته وتمت مرافقته من قبل جنديين اثنين إلى جدة.

«بدا سبب ذلك التصرف واضحاً له في جدة، ففي الخامس من يوليو صدر مقالٌ مثير للقلق في مجلة التان *Temps* (الزمن) يصف مقتل أوبير (هوبر) ويتهم هورخرونييه Hurgronje بمحاولة سرقة مسألة تيماء. وتم إرسال هذه المعلومات إلى السلطات من قبل دي لوستالو وتمّت ترجمة الخبر إلى اللغتين التركية والعربية». ذكر الخبر أن أوبير (هوبر) كان قد عثر على مسألة تيماء تزين جدار أحد المنازل، فقام بشراء ذلك المنزل ونزع تلك المسألة من مكانها ثم عاد فباع المنزل. ثم تم شرح بعض رحلاته، وانتهى المقال بمقتله وبوصول الأخبار إلى دي لوستالو في باريس.

قبل عودة لوستالو إلى جدة، كان لقصة المسألة وقعٌ كبير في الخارج، وكان أويتنغ Euting يتابعها بفارغ الصبر من دمشق، وكذلك عالم آخر هو الدكتور سنوك بوسيروز Doctor Snouck Busyrouse (هكذا قيل اسمه) والذي كان يقيم في مكة تحت اسم عبد الغفار. ما إن وصل لوستالو إلى جدة حتى كلف سي عزيز بالتوصل إلى المسألة وحيازتها.

حفّت الرحلة المخاطر من كل جانب. وصل حائل ولكن بعد انطلاقه من المدينة هجره مرافقوه العرب وفي المدينة تعرّض للتفتيش والاعتقال من قبل السلطات المحلية ولم يتم الإفراج عنه قبل أن يثبت أن حقائبه كانت قد أرسلت إلى بغداد. تمكن بعد مغادرته المدينة من تجنب ملاحقيه بزيادة سرعة مسيره والتوجه جنوباً،

فاستطاع بذلك النّجاة من محاولة اغتياله. سادت الإثارة نتيجة ذلك المقال وعمّت البلد بأكمله، وقد قال هورخرونيّه إن أكثر من نصف المقال ملفق. إن القصة المزيفة لاكتشاف المسلّة وشراءها وكذلك تفاصيل الرّحلة غير العادية للسيد عزيز (والتي تختلف عن رواية هورخرونيّه لها) تبرّر مثل ذلك الحكم. سواءً كانت الحقائق مزيفة أم واقعية، وعلى الرّغم من قدرة هورخرونيّه على تبرئة نفسه أمام السّلطات التركية والتي لا يلقي لوماً على تصرفاتها ولا يمكنه سوى الإطراء على أدبهم الكبير معه، جعلت من مواصلة إقامة هورخرونيّه في مكّة أمراً مستحيلاً. فقد ذكره المقال بالاسم، وقد يُشاع قريباً في الخارج أنه لم يتحول إلى دين الإسلام من أجل التفرغ لدراسة الشريعة المطهّرة ولكنه مسيحي متنكّر في ثياب الإسلام غرضه كان سرقة الآثار.

لا حاجة لذكر المصير الذي كان بانتظار المتلبّس في جريمة القتل في مكّة... حاول دى لوستالو الدّفاع عن تصرفاته وإيجاد الأعذار لنفسه، وأنكر أن تكون المقالة التي نشرت في مجلة التان *Temps* من إيحاء، ومن خلال الخطأ في ترجمة اقتباس عبارة وردت في رسالة هورخرونيّه استطاع أن يورّطه. فقد وعد هورخرونيّه وباللغة الفرنسية بأنه «لا يهتم بالمسلّة أبداً» بقوله: "de ne pas s'occuper"، بينما استبدل دى لوستالو عبارة pas بعبارة: plus فصارت الجملة تعني أنه «لم يعد مهتماً بالمسلّة» مما أعطى معنى آخر مختلفاً تماماً. وأخيراً، طلب دى لوستالو من سي عزيز الشّهادة بأن هورخرونيّه عرض عليه مبلغ عشرة آلاف فرنك مقابل المسلّة. لم يخطر ببال سي عزيز أن استخدام اسم هورخرونيّه بهذه الطّريقة قد يؤذيه، وبالنسبة للعرف عند العرب يعتبر رفع السّعر بهذه الطّريقة أمراً مقبولاً. حاول هورخرونيّه مع سي عزيز للحصول منه على نفي رسمي لما أورده في شهادته ولكن عبثاً. كان سي عزيز منفياً من قبل القيادة الفرنسية في الجزائر وكان يحصل منهم على معاش تقاعدي يتم دفعه له من قبل نائب القنصل، لذا لم يكن سي عزيز يجرؤ على المخاطرة في التخلي عن ذلك المبلغ الشهري. «منهم أتلقى رزقي» أخذ يناشد بقوله: «كيف لي أن أشهد حقاً أو باطلاً ضد قنصل الحكومة الفرنسية؟». أقصى ما وعد به هو أن يقول الحقيقة فيما إذا قابل الوالي وجهاً لوجه.

«كانت العودة إلى مكة مستحيلة بالنسبة لهورخرونييه، لذا أبحر من جدة. قطع أبحاثه ولم يتمكن من حضور موسم الحج. أخذ معه هيكل أوبير (هوبر) العظمي ما عدا عظام يديه التي لم يتمكن من استردادها. ودُفنت الجمجمة التي تحتوي في صدغها الأيسر ثقب الرصاصة التي اخترقتها في جدة. تواضع دي لوستالو في السماح بالثناء الكبير على سي عزيز من قبل مواطنين اثنين بارزين».

قُتل أوبير (هوبر)، والمسلة لبثت مؤبدة في متحف اللوفر، أما تيماء فاخفت مرة أخرى في متاهة الصحراء مستعيدةً بنجاح عزلتها الفريدة، حتى يوم زيارتي بعد ربع قرن من الزمان. منذ ذلك الحين لم يقم أي مسافر غربي، على حد علمي (باستثناء الأب جوسان والأب سافينياك⁽¹⁾ Fathers Jaussen and Savignac) بدخول الواحة. على الرغم من السمعة المشوشة التي يتمتع بها التيمانينون⁽²⁾، فهم لم يتصرفوا بصورة جد سيئة مع الأوروبيين الخمسة الذين اقتحموا عليهم عزلتهم.

(1) كتب المؤلف: عالما آثار بارزان وأستاذان في جامعة سانت إيتين الإنجيلية في القدس، كانا قد وصلا إلى تيماء بعد سبعة أيام من مغادرتي لها. اعتبر ذلك الغزو الأوروبي لتيماء بعد فترة طويلة من العزلة أمراً عظيماً بالنسبة للتيمانينين، الذين أجبروهما على المغادرة في اليوم التالي! كان الاثنان قد قدما إلى المنطقة من أجل دراسة الآثار في الحجر Hejr وفي العلا Al Ula متبعين الطريق الذي رسمه هوبر عام 1884. وعلى الرغم من المقدمات الجيدة والمعرفة في طرق وأساليب العرب التي أبدياها، بالكاد سمح لهم الحاكم أن يقيما ليلة واحدة في تلك الواحة.

(2) التعميم بالمطلق المبني على رأي شخصي لا يجوز أبداً، ولا نقبل به كحقيقة راهنة بأي حال من الأحوال. لكننا مع ذلك مضطرون لترجمة النص كما جاء.



رجل تيماني

استقبل غوارماني Guarmani - كموظف تركي رسمي، مكلف بشراء الخيول من أجل الباشا في دمشق، استقبلاً حسناً. وجد داوتي Doughty المعروف بأنه نصراني في تيماء المكان الأكثر أماناً مقارنةً مع معظم واحات جزيرة العرب التي زارها. كانت زيارته الأولى قصيرة المدة، ولكنه عاد أدراجه ماراً بذات المسارات التي سلكها من قبل (وهو فعلٌ يفتقر إلى الحكمة في منطقة معادية وخاصة في جزيرة العرب)، ومكث أكثر من شهر في الواحة، وعلى الرغم من عدم محبته للثيমানيين فإنه ترك لديهم انطباعاً حسناً لدرجة أنهم دعوه للإقامة بينهم.

تجنّب أوبير (هوبر)، وهو مسلم، الخطر الكبير، ولكن مهمته التي تقتضي الحصول على النقوش ونقلها بعيداً جلبت عليه اتهاماً لا مفرّ منه وهو تصيّد الكنوز، ولكن على الرغم من ذلك ورغم تحقيق هدفه تمّ استقباله استقبالاً مشرفاً في زيارته كليهما. أعترف شخصياً أنني فوجئت بالضيافة والودّ الذي أظهره الثيমানيون لي، إذ لم يتسن لي التعرف بشكل جيد على العادات العربية وطباع العرب وكذلك لغتهم كما أتقنها أسلافي. مع ذلك فقد تم استقبالي بشكل حسن ما عدا من قبل رجل ابن رشيد. على الرغم من التزعة الفردية وعدم الثقة في الغرباء والناجمة من دون شك عن عزلتهم، فهم يتمتعون بمزية تمكنهم من الصمود وفهم وجهات النظر الأخرى.

يُعرف الثيমানيون بين جيرانهم العرب بأنهم غير مضيافين، وصعبو المراس ومشاكسون متقلّبون⁽¹⁾. ولكن في حالتي وعندما تعلق الأمر بغارة ستجعل مني ضحية تعصب محلي أثاره الحاكم دون ش، برهن مُضيفي عن ضيافته العربية الأصيلة بأقصى حدودها، وبدا في الواقع أنه على استعداد لتعريض نفسه للخطر عوضاً عن غريب التجأ إلى بيته. بدا الأمر في اليوم الخامس وكأن وجودي كان على وشك أن يشكّل سبباً لأحد الخلافات العائلية الضروس التي كانت تمرّق مجتمع تيماء قبل وصول سيطرة ابن رشيد إليها. إذا ما ضعفت قبضة الحاكم فستكون النتيجة الحتمية تعصباً أعمى وعنفاً غوغائياً.

(1) هذا كلام المؤلف، ولا نتبّاه ولا نعدّه ملزماً، فكثيراً ما تلعب النواحي الشخصية والأهواء أو حتى التحامل دوراً في إطلاق أحكام عامة فيها قدر من التجنّي.

ما إن رأيت، في الغسق، أنصار مضيبي وجميع عشيرته قد بدأوا يتوافدون فرادى وجماعات مدججين بالأسلحة، حتى علمت أن المتاعب على وشك أن تقع. وفق قول داوتي: «الرؤوساء والشعب العنيد في تيماء» كانوا من الواضح أنهم سيعالجون الوضع حسب طريقتهم الخاصة مرة أخرى. في وقت لاحق ذلك المساء وعندما عاد المراوي من مقابلة طويلة مع الحاكم يملؤه الغضب، رأيت بوضوح أن أفضل شيء بالنسبة لنا جميعاً الجو الصحراوي، وأنه كلما أسرعنا بالعودة إلى الصحراء كان أفضل. لذا سلمت الهدايا التي اخترتها لمضيبي والتي كنت قد جلبتها معي من دمشق وأخذنا نستعد للرحيل.

مع عدم وجود دليل يرشدني إلى جبل شمّر، ولم تزل الرغبة في الحصول على المهارة تستحوذ عليّ، فقد قررت أن الشيء الوحيد الممكن القيام به وفق الظروف الراهنة هو النّسحاب إلى منطقة طُبّيق، وإن أمكن اتباع طريق مختلف عما قدمنا عليه. إنّ النّفود، التي أعرفها من خلال الخرائط التي وضعها كل من داوتي وأوير (هوبر)، لم تكن بعيدة جداً إلى الشمال الشرقي من تيماء. إن استطعت رؤية تلك الظاهرة في رحلة عودتي، فينبغي ألاّ أضيع فرصة سفري تلك دون جدوى، كما إنني أدرك أيضاً أن الحدود الغربية للنّفود الواقعة بين تيماء والجوف هي أرض بكرّ غير مستكشفة بمعظمها وبالتالي فهي تستحق الاستكشاف. وبالإضافة إلى ذلك فقد أجريت حساباتي بأن أفضل فرصة لي لإيجاد المهارة هي معاودة أدراجي والسير وفق مخططي السابق وليس متابعة السير إلى نجد.

حزمنّا أمتعنا على عجل، لأن الجو العام في تيماء تلك الليلة كان مشحوناً للغاية يكاد أن ينفجر كالبركان! أخذ مضيبي ينهال عليّ بأكوام من المؤن لأننا سنقطع ما لا يقل عن 300 ميل في أرض قفراء لا زاد فيها ولا ماء، ثم قام بحفر الأرض بقرن غزال ليعطينا كميات كبيرة من التّمور بعد أن استخرجها من الحفر التي كانوا يقومون بتخزين التّمور فيها. تم إدخال الإبل عبر البوابة الخلفية لأن الطرق الأمامية كانت تعج بالمقاتلين، وتم تحميل الجمال بصمت وأخذنا ننتظر إشارة البدء بالتحرك، وما إن

أعطيت لنا الإشارة حتى انطلقنا متسللين بعيداً سالكين حارة ضيقة ثم مجتازين منطقة زراعية ومن ثم أخذنا نسابق الريح في الأراضي الصحراوية الواسعة.

كانت إبلنا قد أخذت قسطاً وافراً من الراحة ومن التغذية، لذا جعلنا نحث السير ليلاً، وفي الثالثة صباحاً توقفنا وأخذنا قسطاً من الراحة لبضعة ساعات ثم تابعنا مسيرنا لنخرج من منطقة الخطر وسط قبائل شمر والرولة.

ما إن لاح الفجر حتى رأيتُ واحداً من أبدع المناظر الطبيعية وأكثرها تأثيراً في نفسي على الإطلاق، ألا وهو ذلك الحاجز الرملي الهائل لصحراء النفود الكبرى، 30,000 ميل مربع من الرمال التي حملتها الرياح قد تكدّست أمامي، ومع بزوغ الفجر ظهر الحاجز كشريط قرمزي اللون في الأفق الشرقي.

* * *

الفصل الخامس

صحراء النفود الكبرى

«تلك القفار الترملية اللامتناهية»

كانت الطبيعة على ما يبدو واعية عندما زرعت هذه الرقعة المجذبة الشاسعة وسط منطقة قاحلة وجافة جداً، وأمدتها بمصادر كبيرة جداً وبشكل غير مألوف من المياه على طول الجانب الغربي لتلك الرمال. كانت هناك سلسلة من الآبار الغائرة تحت سور النفود تمتد لبضعة مئات من الأميال إلى الشمال من تيماء.

لم تصل أيادينا إلى البئر الأول أُبَيْط⁽¹⁾ Ubait بسبب عدم حاجتنا إلى مياهه، فقربنا كانت قد امتلأت في تيماء، على الرغم من القول آنذاك إن مياه ذلك البئر كانت جيدة، كما أنها كانت ذات فائدة كبيرة لعابري السبيل الذي يحاولون تجنب الدخول في تيماء في طريقهم من وإلى جبل شمر.

وإلى جانبه كان هناك معلم بارز ألا وهو الثلاث أخوات العسافية Assafiya Thulaithukhwat وخلفها يبرز نتوء صخري ليطل على النفود من الأعلى ويدعى حلوان خنفا Helwan Khunfa. قام داوتي Doughty بذكر بئر أُبَيْط Ubait نقلاً عن سبقه بأنه المحطة الأولى بين تيماء والجوف، ويقول: «إنه الاستراحة الصيفية للشرارات (ومازال هناك بعض الآثار)، حيث تنبع المياه بمجرد حفر الأرض بالأيادي»، مما لا

(1) قد يُكتب الاسم في خرائط شمالي المملكة العربية السعودية: بيط، لكنني سأكتبه في الكتاب: «أبيط».

شك فيه أنه يمكن التعرف على الأطلال المشار إليها من خلال مقبرة ما قبل التاريخ التي اكتشفها موزيل Musil، التي لم تكن حقيقة في أبيط Ubait بل بالقرب من آبار العسافية wells of Assafiya التي كانت تقع بالقرب من منخفض وادي نبال Wadi Nayyal.

اكتشف موزيل Musil تلك المياه السطحية بنفسه عندما وجدها على عمق لا يتجاوز الثلاثة أمتار عن سطح الأرض. غير أن المياه كانت آخر اهتمامنا في تلك الآونة، بسبب المطر الذي كان قد انهمر من قبل، فقد كانت تلك باكورة الغيث منذ أن غادرنا مخيم بني صخر. في اليوم الثاني بعد مغادرتنا تيماء مدت إبلنا أعناقها لتنشق النسيم، أعطينا الأبل حق القيادة متبعة حاسة الشم لديها فوصلنا في النهاية إلى بركة تجتمع فيها مياه الأمطار في منخفض صخري، شربت الأبل واغتسل الرجال وتابعنا مسيرنا بعد أن شعر الجميع بالانتعاش. تلك التجمعات المطرية، وكما قال لي الرجال، لن تدوم أكثر من بضعة أيام فقط إن لم يكن هناك ريح، أما إذا هبت الرياح فلن تلبث تلك المسطحات المائية الضحلة أن تتلاشى.

اتجهنا شمالاً وسرنا بمحاذاة حدود النفود البيضاء إلى يميننا، إلى أن وصلنا في اليوم الثالث إلى أرض رملية هي استمرار لتلك القفار الصخرية التي مررنا بها لدى مغادرتنا لبئر فجر well of Fajr. انضممنا إلى بعض رجال الرولة Ruwalla الذين كانوا في طريق عودتهم شمالاً إلى ديرتهم الأصلية في وادي السرحان، وأخيراً وصلنا إلى آبار مليح.

كان مخيم الشرارات يسيطر على المصادر المائية التي وجدناها تلك، وقد كنتُ محظوظاً بأن وجدت بين ظهرائهم صياداً واحداً على الأقل يعرف حقيقة المنطقة ويجيد اللعبة. لم يكن ذلك الرجل الشراري والذي كان يسمّى مسعد وهو شاب أشعث أعور، لا يملك من حطام هذه الدنيا سوى ناقتة الذلول الجرباء وملابسه التي يرتديها بالإضافة إلى أعزّ ما يملك ألا وهي بندقيته.

كان مخيم الشرارات ذاك من أفقر المخيمات التي رأيته قط، إذ اقتصرت ضيافتهم

التي قدّموها لنا على لبن الإبل والتمر. كانت آبار مليح شبيهة بتلك في مُغيرا، عديدة ولا يزيد عمقها عن العشرين قدماً ومياهها مالحة.

* * *

غير بعيد إلى الشرق وإلى الجنوب من كُثبان النَّفود كان هناك بئر آخر وهو الهوجاء Hauja، يُسمّى بالتل القريب منه المعروف بالهوج Hauj أو شداد Shadad أو أم كور Omm Kur، وهو احديداب غريب يُرى من الشّمال على هذا النّحو:



كما أن اسم الهوج يطلق على المنطقة بأكملها الواقعة على طول حافة النَّفود إلى الشّمال من تيماء. كما كان هناك أيضاً بئر آخر في ذات المنطقة وهو مورد حداجان Hadajan وهو على بُعد بضعة كيلومترات الى الجنوب من الهوجة التي قام موزيل بزيارتها منفرداً.

تجتمع القبائل حول تلك المصادر المائية عندما تكون مراعي الرّبيع في أفضل حالاتها على الكُثبان الرّمليّة، ومن هناك تجدهم يهيّمون على وجوههم مع قطعانهم بعيداً في الرّمال. والنّفود هي المنطقة الوحيدة التي ليس فيها مياه سطحية. ففي مساحاتها الشّاسعة لا نعرف سوى بضعة آبار قليلة معينة فقط، تقع في منخفضات ظهرت فيها الأراضي الصّخرية تحت الرّمال. وفي معظم الحالات تقع هذه الآبار في تشكيلات غريبة على شكل حدوة الحصان تدعى الفلج falj نجمت في الواقع عن

إعصار حدث في الأيام الغابرة.

توجد في طيّات تلك المنخفضات بعض الآبار المبنية الموغلة في القدم، الأمر الذي يؤكد أن الكثبان الرملية وما يرافقها من حُفر أمرٌ لا يتبدّل. ومن المصادر المائية المعروفة في النفود هناك منخفض مشهور وهو شقيق Shaqiq الذي يحتوي على عدة آبار بالغة العمق مبنية في جزئها العلوي ومحفورة في الصّخر في أسفلها. تقع سلسلة الآبار تلك على الطريق الرئيسي المارّ في النفود بين الجوف وجبل شمّر، كما هي أيضاً حال جُبّة Jubba وهي المنطقة الصّغيرة المأهولة الوحيدة داخل ذلك المهاد الرّملي.

في الرّكن الجنوبي الغربي تم ذكر العديد من الآبار، اثنان منها معروفان وهما آبار قلبان Qulban وهي ثلاثة آبار مبنية تقع في قاع حفرة هائلة على شكل حدوة حصان، وبئر حيزان Haizan وبئر الحيزا⁽¹⁾ Hyza الذي طاف داوتي به وزارته غرترود بل Gertrude Bell عندما عبرت تلك المنطقة من الصّحراء لتتجنب الدّخول في تيماء في طريقها مباشرة إلى حائل.

نجد بالمناسبة أن ملاحظات داوتي بأن الرّكن الجنوبي الغربي من النفود يلفت النّظر بسبب رماله الكثيفة، التي يبدو أنها تتماشى مع حقيقة بلوغ رمال هذه المنطقة أقصى سماكة لها.

(1) يقع إلى الشمال الشرقي من الدّافيات في الجهة الشرقيّة من تيماء.



الشَّرارات يَسْتَقُونَ فِي بَثْر مُغِيرَا



الشَّرارات يَسْتَقُونَ فِي بَثْر مُغِيرَا

صار لدينا الآن عددٌ كافٍ من القراءات عن ارتفاع بقعة النفود وما حولها، وهي قراءات تظهر أنَّ انحدار هذا الجزء من الصحراء العربية يمتدّ جنوباً باتجاه نهر الفُرات. يبلغ ارتفاع الجانب الغربي من النفود 2400 قدم بينما يصل في الجانب الشرقي منها إلى 2200 قدم، وبذلك تكون نسبة الانخفاض تعادل 200 قدم في 200 ميل. ممّا سيبدو للمراقب العادي أن انحدار هذا السّهل مغطى بكميات كبيرة جداً من الرّمال والتي تحافظ على حدود المنطقة وفقاً لقوانين الطبيعة.

غير أن الأمر ليس كذلك، فهذه المنطقة التي تدعى النفود هي في الحقيقة يشبه إلى حدّ كبير منخفضاً هائلاً ومن المؤكد أنه كان في حقبة ما متصلاً بوادي السّرحان. عمل الانجراف الرّملي وعلى مدى العصور على ملء هذا المنخفض بالرّمال حتى غدت الكثبان الرملية فيها أعلى ممّا سواها من الأراضي المحيطة بها، ولكن من الملاحظ دوماً أنه وبغضّ النظر عن منشأ هذه الرّمال فإن على المرء التّزول إلى النفود انحداراً قبل تسلق كثبانها الرملية. في أقصى الجنوب الغربي يصل عمق الرّمال إلى ما لا يقل عن 600 قدم، ففي وسط تلك الكثبان يبلغ متوسط عمقها 400 قدم، بينما تصبح في الجانب الشّمالي والشّمالي الشرقي منها أكثر سطحية، وتنتهي بشكل مفاجئ كما بدأت.

ليس للنفود في أقصى جانبها الشرقي حدود معينة، إذ تمتدّ كألْسنة طوال متداخلة بشكل أو بآخر دون أن يعرقلها شيء لتجتمع في النّهاية في فيافي رمال صحراء الرّبع الخالي. تمتدّ هذه القفار الرملية إلى ما يقارب 200 ميل في كل اتجاه يقطعها طريق واحد يمرّ من سوريا إلى نجد عبر الجوف. غير أن أفراد القبائل المتنازعة يستفيدون من هذه المزيّة في الإغارة، بحيث يكون بمقدورهم التنقل حيث يشاؤون لينقضّوا على أعدائهم الغافلين.

* * *

غادرتُ مُليح Mulaih بحالة معنوية مرتفعة، فبالإضافة إلى توظيف صيّاد محلي، فقربني مُترعة بالماء، وليست النفود ببعيدة عنا. اتجهنا شمالاً ولم يمضِ وقت طويل

حتى رأينا بجانبنا ذلك الحائط القرمزي الي رأيناه عن بُعد من قبل قرب تيماء.

لم تكن تلك الفضاءات المؤلمة من حجارة الصّوّان المصقولة ولا الأراضي الصّخرية الغربية التي مررنا بها لتشبع نهم فضولنا. ولكن ما إن وقعت أعيننا على ذلك الحاجز حتى صرخنا بأعلى أصواتنا وبصوت واحد: «يا الله - ما هذا؟» فمن رحم القفار وُلد هذا الشّيء، ليس هناك من شيء رأيناه في حياتنا شبيه له. بدا انطباعنا الأولي وكأنّ موجة مدّ طاغية تتقدّم عبر تلك الفيافي زاحفة لتلتهم كل ما تجده في طريقها.

وتبدو الكثبان وكأنها تتحرّك مقتربة، بدا وكأن الحركة قد دبّت في كل شيء، لأن الحقيقة كانت كذلك، فالرّمال لا تكفّ عن الحركة. لقد دبّت الحياة في هذا المحيط دون شك.

توجهنا نحوها مذهولين بجمال لونها، ومتأثرين بسحر عظمتها. لامست أشعة شمس الصّباح ذراها فبدت مشتعلة كالنار، بينما كان المنخفض يغفو بهدوء ودعة غير متنبّه لقدم النّهار. بدت الكثبان عن قُرب فوقنا كالبرج، وزاد من شدة ارتفاع الكثبان حقيقة أن الصّحراء هي مجرد منخفض واسع يدعى الغروف⁽¹⁾ Lughruf. من هذه الأرض الجوفاء رفعت النّفود حاجزاً من الرّمّل القرمزي كأمواج عالية في بحر استوائي تحولت مياهه فجأة إلى تراب. كان هذا الهامش المرتفع بشكل مفاجئ من قاع الرّمال الأكثر إثارة لاهتمامنا. والسّهوب النّظيفة على طول حوافها كانت وكأنها قد كُنست كنساً.

انتقلنا بوتيرة ثابتة من الصّحراء الصّخرية إلى الرّمال الصّافية العميقة. كانت حافة النّفود الكبرى في جانبها الغربي كما لو أنه قد تم قطعها بدقة كبيرة. لم تكن هناك منطقة محايدة بين الرّمال والسّهوب، يمكنك قيادة دراجتك إلى أعلى حافة النّفود ولكن ما إن تصل إلى القمّة، فعليك أن تترجّل وستجد أنك بحاجة لتكون قدماك كخفّ الجمال إن رغبت في متابعة المسير فوق تلك الكثبان الرّملية.

(1) هكذا يبدو لي الاسم بالعربية، ولم أعثر عليه في خرائط النّفود وتيماء وحائل.

جمال ألوان الكشبان الرملية كانت المزيّة التي علّق عليها جميع المسافرين في تلك البقاع، كان ينبغي أن يقدم لنا خيال بالغريث Palgrave الخصب صوراً ملوّنة خلاّبة، غير أنّه لم يفعل ذلك بسبب تركيزه الكلّي على العنصر الإنساني، فالطبيعة مهما بدت مُسرفة في عطائها لم تكن تلاقي تجاوباً مع عقل بالغريث السّامي. فقد أفرد للنّفود عشر صفحات فقط من مجمل عمله الضخم، حتى أن بعضاً من هذه الصّفحات والتي ربما كانت موضعاً للإهتمام كان قد كرسها لشرح شكوكه ومخاوفه الوهميّة من دليله الشراري؛ ولم يتطرّق لذكر عجائب تلك الرّمال. بينما رأى الزّوجان بلنت Blunts في النّفود مصدراً للرّاوند وأوكسيد المغنيزيوم ليس كما توقع على الإطلاق. ولم ير نولده Nolde لون رمال النّفود بالحُمرة التي رآها الزّوجان بلنت Blunts، ولكن من ناحية أخرى وعن آبار حوا⁽¹⁾ wells of Hoa على الحافة الشّمالية من الرّمال نجده يقول: «يبدو وكأن الأرض دُحيت والصّخور حولنا قد تناثرت عليها الدّماء».

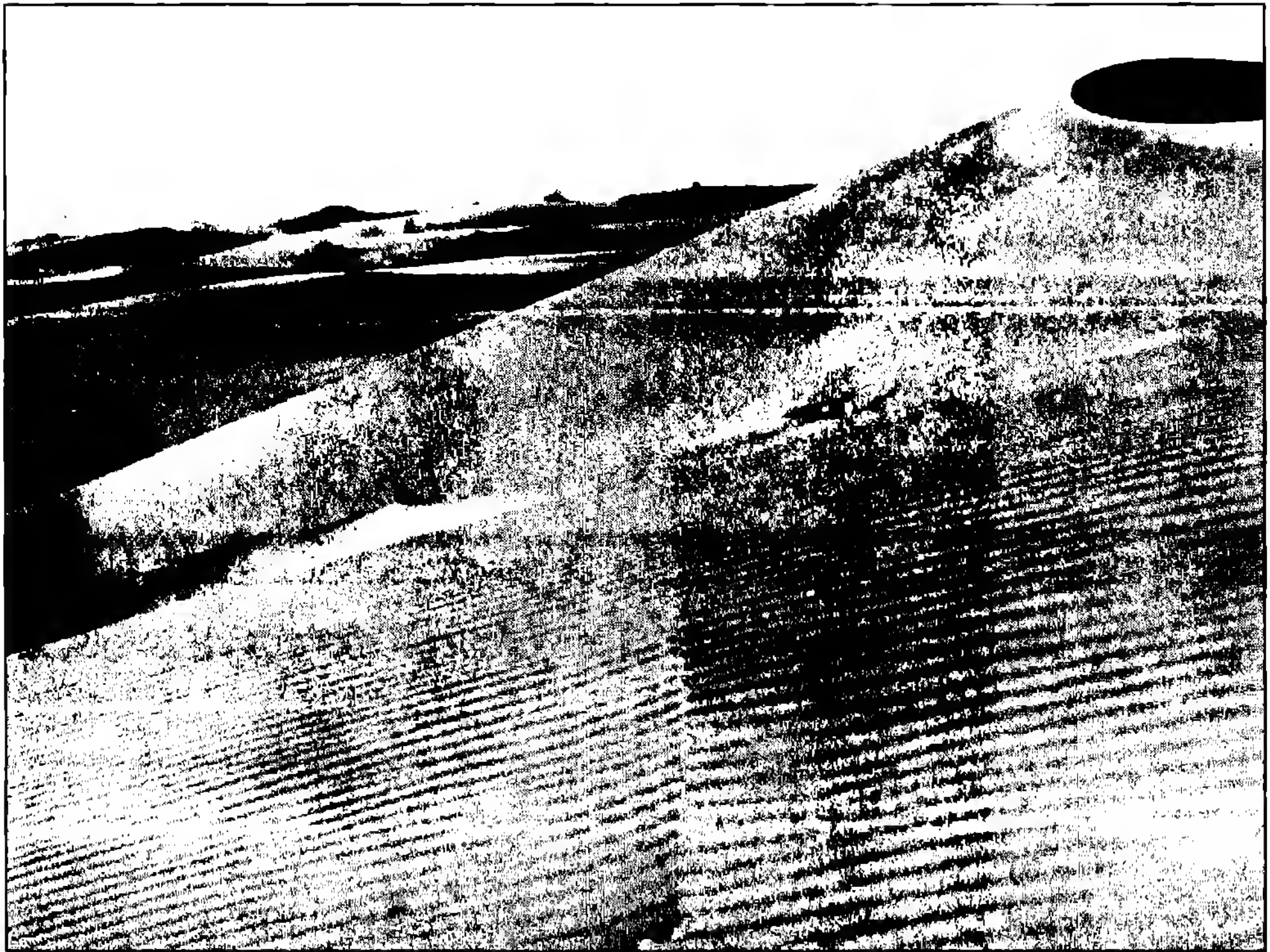
أمّا أنا فأرى النّفود كأكثر الظواهر الطّبيعية إثارة للإعجاب في حياتي. سبق أن اختبرت الصّحراء بمختلف أطرافها من السّهوب الكلّسية الباهتة إلى قفار الحّماد السّوداء والصّحاري ذات الرّمال الحمراء. لقد رأيتُ قفار تركمانستان السّوداء والحمراء، ورأيت أراضي صحراء غوبي Gobi النّائية، ورأيتُ الصّحاري الآسيوية والأفريقية، لكن أياً منها لم تكن تشابه لا في خصائصها ولا في لونها تلك التي رأيتها في النّفود.

قد يعتقد المرء أنه لا توجد صحراء في أيّة منطقة في العالم خالية من أيّة معالم طبعية، ولكن هنا وبعد اجتياز نحو 400 ميل في الصّحراء العربيّة قدمنا إلى «صحراء ذات مظهر جديد ومُريع جديد نسبياً» بالنسبة للعين الغربيّة وبالتالي فهي ذات فائدة قصوى، «مريع» لأن رمالها تبدو وكأنها في معركة ضد جميع القادمين، وكأنها قادمة إليهم لتلتهمهم.

تبدو الرّمال، من بعيد، بلونها القاني عند الشّفق، لتحوّل إلى بيضاء مشعّة في

(1) هكذا يبدو لي الاسم بالعربيّة، ولم أعثر عليه في خرائط النّفود وتيماء وحائل.

منتصف النهار، ثم إلى مخمليّة حمراء كالنبيد عند الغسق. ولكن عن قرب تجد لون الرّمال بجميع ألوان طيف الأصفر والأحمر وكأنها قد مُزجت بنعومة لتصل إلى هذا اللون المدهش الذي لا يستطيع المرء أن يجد له اسماً. سبب هذا اللون ليس بعيداً عن الإدراك، فأصل صحراء النفود يعود إلى تلك الرّمال التي ما فتئت «پترا» تكون نموذجاً طبيعياً لها، وأي شخص كان قد رأى تلك الصّخور الملونة لتلك المدينة المحفورة عميقاً في الجبال ليدرك ذلك المحيط الصّخري الذي ارتفع مدّه عالياً ليشكل صخور «پترا» كما هي عليه الآن. «بلون العقيق والقرفة الحمراء والصّفراء».



النفود الكبير

لا يمكن احتواء جميع ألوان صخور «پترا»، وكذلك رمال النفود؛ وبإضافة اللون القرمزي، والأرجواني والأصفر، لسوف تحصل على فكرة عمّا تحتاجه من ألوان لتشكيل هذه التحفة «النفود». وصلت إلى النفود عبر ذلك اللسان الممتد غرباً

والمسمى العريج⁽¹⁾ Arai. إنه ذلك الحزام الرّملي الذي شاهده لورنس Lawrence ولم يدخله، حينما كان ينطلق في طريقه مسرعاً بين الوجه Wjeh ووادي السرحان Sirhan: «توسّلتُ إلى «عودة» طالباً منه تحمّل المزيد قليلاً من أجل الدّخول إلى ذلك الحزام، لكنه أجاب متذمّراً أن الرّجال لا يدخلون إلى النّفود سوى عند الضّرورة عند الإغارة»..

والعريج Arai ليس سوى امتداد لذلك المهاد الرّملي المتجه غرباً نحو جبل طُبّيق Jabal Tubaiq، وهو لسانٌ من الكُثبان الرّمليّة الممتدّة على مساحة تتراوح بين مئتين إلى ثلاثمئة ميل مربع، والتي لم تكن قد شوهدت من قبل الرّحالة الغربيين، ولكن صادف أن مرّ بها في ذلك العام الرّحالة النمساوي ألويز موزيل⁽²⁾ Alois Musil وأنا. ومع ذلك لم يغفل داوتي Doughty عن تسجيل العريق (العريج) Arai بأنه كان «محطة ليلية في طريقه في الصّحراء إلى الشّمال من تيماء»، في المرحلة الثالثة من الطّريق إلى الجوف Jauf، وأخبرنا أيضاً أن النّفود في هذا الجزء غير المطروق بين الواحيتين «لم يكن سوى رحلة».



ما إن وطئتُ تلك الكُثبان حتى أدركتُ سرّاً هاجس المَهارة في اللجوء إلى هذا المكان حيث وفرة الغذاء والمأمن. تتوفّر هنا الأعشاب الصّفراء الطويلة الشّبيهة

(1) كذا ترد العبارة في الأصل الإنكليزي، وذلك بحسب منطوقها البدوي، ولكن الوجه الصحيح لكتابتها هو: عريق.

(2) ألويز موزيل (1868-1944) رَحالة ومستشرق كبير، تشيكي المولد من أصل نمساوي، كان من خيرة الرّحّالين الذين جالوا ببلاد الشام وشمالى جزيرة العرب، ومن أكثرهم شغفاً بالعروبة والبداءة وإجادة اللهجاتها وتوسّعاً في دراسة أحوالها وآثارها، حتى أن الشيخ النّوري الشّعلان لقّبه بالشيخ موسى الرّويلي. نشرنا في هذه السّلسلة مختصراً لأحد كتبه «في الصّحراء العربيّة»، وسوف نقوم بتعريب كتبه الستة المهمّة بأكملها، وهي بالفعل كنز ثمين في الطّبوغرافيا التاريخيّة والآثار والتراث الشعبي لبادية تدمّر والحّماد ووادي السّرحان والجوف وشمالى نجد وشمالى الحجاز.

بالقش (في الواقع يقوم البدو بحصاد هذه الأعشاب وتخزينها) بالإضافة إلى توفر الطّرفاء tamarisk بكثافة. كما أنّ هناك أيضاً شجيرات الغضا ghadha التي كانت منتشرة بشكل كبير فوق الرّمال وقد مدّت جذورها في الأرض إلى بُعد لا يُعقل بحثاً عن الرّطوبة. وترى الجذور في بعض المناطق مكشوفة على سطح الأرض بعد أن تمّت تعريتها بفعل الرّياح لمسافات قد تزيد عن 15 ياردة أو أكثر. كان من الواضح أن النّفود لا تعاني شحاً من الأمطار أو تمكث بغير غطاء نباتي، ولذلك لم تكن هناك حركة شاملة للرّمال إلا بحدها الأدنى. فقد أكّد الغطاء النباتي أن تلك الكثبان العظيمة والمنخفضات ثابتة في مكانها، بالإضافة إلى حقيقة وجود تلك المخيمات والآبار القديمة لعصور عديدة.

تُعتبر النّفود بالنسبة للبدو فردوساً حقيقياً خلال أشهر الرّبيع، حين تكون المراعي وفيرة، وحينها تجوب القبائل تلك الكثبان، بغضّ النظر عن طبيعة الإجداب التي تعانيها، فباستطاعة الإبل تحمّل البقاء دون ماء لأسابيع طويلة بينما يعيش رُعاتها على ألبانها.

لم أكد أدخل تلك الكثبان حتى رأيت آثار قطعان كبيرة من المَها والنّعام بالإضافة إلى الطّيور الصّغيرة الوفيرة نسبياً والحياة البرية. تشير قشور البيوض إلى أمكنة النّعام، بينما قادنا أثر الظباء شمالاً إلى عمق الصّحراء. أمّا الصّيد في هذه المنطقة فكان مدعاةً للسّخط، حيث لا يتمكّن المرء من النّظر بعيداً إلى الأفق، فمن قمة أحد الكثبان لا تتمكن من رؤية سوى قمم كثبان أخرى متلاحقة، بينما تبقى المنخفضات وما فيها من نباتات أرضاً ميتة خافية عليّ. كان يتابني شعور أشبه ما يكون بالخوف من الأماكن المغلقة claustrophobia عند التجوال في تلك المنخفضات، ممّا يحدو بي إلى الإسراع للخروج منها. بأسرع وقت ممكن. ولكن ما إن أخرج من أحد المنخفضات إلى قمة الكثيب التالي، حتى أرى منخفضاً آخر بانتظار ابتلاعنا من جديد.

* * *

أصبح الارتحال الآن مسألة التماس أسهل الطّرق إلى أعلى وأسفل وحول تلك

الكثبان. كان المسير متعباً للغاية ولكن ذا سحر خاص. فبعد السهول التي يحدّها الأفق والتي كنا قد اعتدنا عليها يخامرنا شعور جديد بعد أن اقتصرت الرّؤيا لدينا إلى قمّة الكثيب التالي أو إلى قمم الكثبان الرّمليّة التي لا تحصى. كدحنا صعوداً إلى أعلى الكثبان لنرى منحدرات لا يمكن نزولها على الجانب الآخر، حيث تنزلق الأبل على أوراكها في طريقها إلى الأسفل أو تراها تفضّل المسير متبعة خطّ الذّرى إلى أن تجد مكاناً مناسباً للنزول إلى الأسفل.

ومع ذلك، فإنّ النفود كما قال داوتي: «ليست سوى مجرّد رحلة»، وقد اجتزنا خلالها الرّمال بنفس سرعة الدّخول فيها. يقع أمامنا سهلٌ لا حدود له، لا يعترضه سوى بعض من تلال جعلة⁽¹⁾ Jaala. توقفنا هنا، لأنني أدركتُ أنها ربما كانت هذه أفضل فرصة لي للنجاح بالصّيد، وربما قد تكون فرصتي الأخيرة للاجتماع بالمّهارة. من هذا المكان استطيع مراقبة أكبر مجال ممكن وربما أمكنني مشاهدة المّهارة وهي تتحرك بين السّهول والمراعي في النفود. أقمنا مخيمنا إلى جانب الكثبان، وذهبت غرباً لأجرب حظي بينما توجه مسعد الشراري شرقاً.



أجمة الفضا

(1) تقع في وادي فجر إلى الشرق من تلّول الشبليّات، ويطلق عليها: جعلة السّودا.



على الكثبان الرملية العالية

في وقت متأخر من المساء رأيتُ مجموعة من أربعة ظباء ترافقها ثمانية من الغزلان في السَّهل. أخذت أراقبها من خلال منطاري وكأني بينها، وأخذت أتعامل مع تلك الصُّورة المتكاملة للجمال الوحشي كما يوّد أي شخص آخر لو استطاع أن يرى ذلك المشهد. كانت المَهاة تبدو بيضاء لامعة تحت أضواء معينة فتظهر بوضوح عن بُعد، ثم يتغيّر الضوء فتصعب رؤيتها، لقد اندمجت تلك الحيوانات مع محيطها بشكل كبير. وقد كانت تلك ميزة غريبة لدى المَهاة في التلون.

وأعطاني الغزال دليلاً على حجم تلك الظباء، بدا الظبي العربي نموذجاً مصغراً لقريبه الأفريقي. بدا لي سبب تسميته بـ «بقر الوحش» جلياً، فوقوفه عند الرّعي وتلك الحذبة الصّغيرة بالإضافة إلى ذيله ألقت عليه شَبهاً كبيراً بالبقر. كما أن حوافره الكبيرة المفلطحة أيضاً جعلت منه قادراً على التحرك فوق تلك الرّمال النّاعمة، وكانت ذات أهمية كبيرة لدى الحفر في الرّمال للوصول إلى بعض غذائها، لقد كانت أشبه بحوافر البقر على الرّغم من عدم التمكن من ملاحظة ذلك بسبب بُعد المسافة بيننا، إلا أنها كانت تسبب للمهاة عند الحركة بعضاً من الارتباك.

كان هناك من الواضح مراعاة مناسبة لها في السهل، فقد تحرّكت المَهارة مبتعدة عن مكان اختبائي خلف تلك الكثبان، ولم يكن بمقدوري الوصول إليها مما جعلني أنتظر إلى الغسق لأتحيّن الفرصة كي أحظى بفرصة إطلاق رصاصة واحدة. ممّا جعلها تختفي خلف تلك السحابة من الغبار التي خلفتها، جعلت المَهارة تهرب والغزلان تتقاذف ككرات مطاطية راسمة الدوائر حولها بينما التحق بها زوجان من النعام ليكتمل الموكب، كما لو أنها قامت بذلك لتزيد من شهيتي! لقد ذهبت بعيداً - ولكن أيّ كنز كان ذلك مقارنة بالصّيد؟

لدى عودتي إلى المخيم وجدت أن مسعداً كان أكثر حظاً مني. فلقد رأى، أحد الأطباء وطارده واصطاده على حافة الكثبان، والملفت للنظر أنها كانت بقرة ذات قرون ملتوية، لقد كان ظبي مهارة بقرن مستقيم وآخر ملتوٍ. لقد كان وحيد قرن حقاً. على أيّ حال، كان هناك ظبي مهارة بأكمله باستطاعي رسمه وأخذ جميع القياسات المتعلقة به ثم قمت بسلخه والاحتفاظ به، لقد استغرق ذلك مني وقتي كاملاً.

وكنتييجة فورية لهذا النجاح جرى تمرّد من قبل رجالي: فجعلوا يجهزون أنفسهم للعودة إلى ديارهم! فالمياه التي تمت المحافظة عليها لفترة طويلة نسبياً تمّ هدرها، لأنهم كانوا يعلمون أن القرب الفارغة ستجبرنا على التراجع والعودة. كان أقرب بشر لنا هو بشر حوزة Hausa الذي كان يبعد عنا حوالي ثمانين ميلاً، غير أنه لم يكن من المؤكد توفر المياه الكافية، فمن المحتمل أن نجد بشر الحوزة جافاً، إذ ما العمل؟ وكان الموقف دقيقاً: فبعد أن بلغت الآن مواطن انسحاب المَهارة والنعام النائية، شارفت مياهنا على النفاد ومواردنا الغذائية على الانتهاء!

* * *

الفصل السادس

السباق إلى الوطن

«يستطيع المسافر التحكم ببدء رحلته، ولكن ليس بعودته» مثل عربي.

أخذت النفود بالاختفاء وراء الأفق خلفنا، ثم مرّت صخور جعلة⁽¹⁾ Jaala أمامنا، ووجدنا أنفسنا نحتّ الخطى في بطاح البسيطاء Bisaita. عندما سُئل مسعد عن البسيطاء أشار بكفّ يده قائلاً: هكذا. لم أعرف فيما إذا كان يعني أنها جرداء أم أنه كان يسخر من اتساعها مقارنة بكفّ يده الصغيرة⁽²⁾. ولكنها أرض ذات مزية خاصة شبيه بأرض الصوّان Ardh as Suwwan من حيث جفافها الشديد ورتابتها المروّعة. ومع ذلك، تجدها ذات نفع في مواسم خاصة فبسبب طبيعتها القاحلة تنتج أفضل محاصيل السّمح samh.

حولنا وأينما ذهبنا نرى تلك الانتفاخات الأرضية الصغيرة حيث يقوم الشراريون بجمع تلك النّعم التي جاد الغيث عليهم بها. هذه الفسحة البازلتية الممتدة شمالاً نحو منخفض السّرحان غير البعيد عنا الآن، والممتدّ شرقاً إلى واحة الجوف تقريباً، على بعد ستين ميلاً تقريباً.

اتجهنا نحو الحوزة في الشّمال الغربي وتركنا البسيطاء إلى يميننا، ودخلنا في سلسلة من المنحدرات التي كانت من الواضح فروعاً من جبل طُبّيق Jabal Tubaiq. كانت

(1) تقع في وادي فجر إلى الشرق من تلّول الشبليات، ويطلق عليها: جعلة السّودا.

(2) بل هذا التعبير في الدّهنية العربيّة يعنى أنها أرض منبسطة، كما يدلّ عليها اسمها.

معنوياتنا منخفضة ولكن مستوى الماء في قرابنا كان أقل انخفاضاً، اثنتان من القرب كانتا فارغتين بينما كانت الاثنتان الأخريان مترهلتين تتخبطان على جانب البعير مع كل خطوة يخطوها. كان الماء يبعد عنا ثمانين ميلاً والآن ستين ميلاً ولم تُشاهد المَهْاة حتى الآن. كانت البهجة تملأ قلوب الرّجال لأنهم الآن في طريقهم إلى الوطن. كانت أفكار المراوي تدور حول قدور اللحم الدمشقية وكان رفيقي يتحدث بشكل مستمر عن خيام بني صَخر بينما كان الصّياد الشّراري منشغلاً وحده بعمله، فعيناه اللتان كانتا أشبه ما يكون بعيني النّسر لم تغادرا الأفق.



البسيطاء الخاوية

كنا على بُعد خمسين ميلاً من الماء، والآن نحن على بعد أربعين ميلاً فقط. ثم بإرادة الله وحده حدثت المعجزة. كنا على متن إحدى المرتفعات الطّبيعية الضخمة عندما نزلنا فجأة دون إنذار إلى قاع وادٍ واسع، وربما كان ذلك الجزء هو أخفض جزء من وادي فجر Wadi Fajr، أو ربما أحد روافده، لكنه كان مسيلاً كبيراً ومليئاً بالحيوانات المحليّة والشّجيرات. وبينما كنا ننحدر في ذلك الوادي، إذا بقطيع من خمسين رأس من المَهْاة البيضاء تتدافع للخروج من قاع الوادي في طريقها إلى الهضاب المتواجدة

إلى يسارنا. صرختُ بمسعد للحاق بي وأخذتُ بدفع جملي للعدو بأقصى سرعته من أجل قطع الطريق على ذلك القطيع وقتلت اثنين من رؤوس المَها بينما قام مسعد بقتل ثالث، وحدث ذلك كله في غضون خمس دقائق فقط.

فزنا بالجائزة، وفي الساعة الحادية عشرة خيّمنا في قاع الوادي وأخذتُ بسلخ الظباء إلى أن حال الظلام دون إتمام عملي.

تركتُ ثلاثة جلود كاملة لتجفّ تحت أشعة شمس صباح اليوم التالي، حيث واصلتُ ما كنت قد عزمت على القيام به للحفاظ على جلودها إلى أن حال دون ذلك نقصان المياه. ومع ذلك، كنت آخذ الجلد بعد الآخر وأقوم بتنظيفه بينما كنت راكباً على ظهر الجمّل. لا يمكن لأي شيء أن يحول دون سعي الرّجال الحثيث فالجحيم مقابل الجلود، الرّجال خائفون من تلك القرب الفارغة وقد أصبحت المسألة الآن كم يمكن للأبل أن تتحمّل. ضحكْتُ من مخاوفهم، لكنهم كانوا على أسس سليمة وفقاً لما حدث، فقد ضللنا الطريق ليوم كامل وبشكل ميؤوس منه في تلك المتاهة من التلال غير محدّدة الملامح، إلى أن التقط مسعد بوصلته لنهرول بعدها إلى الحوزة المألوفة لدينا. اقتربنا من البئر يحدونا أمل كبير. هل سيكون هناك ماء أم لا؟ اتُخذت جميع تدابير الحيطة كما فعلنا سابقاً، نزل الشّراري إلى أسفل البئر لملء الدلو، بينما وقف رجلان في الأعلى استعداداً لرفعه، فيما قمتُ أنا بالحراسة.

لم يكن هناك الكثير من العمل ليقوموا به، فقد قام الشّراري بنزح آخر قطرة ممكنة من المياه القابلة للشرب من ذلك البئر، وتركنا ما تبقى من وحل رطب للأبل لتقوم بارتشافه.



الجائزة

حتى ذلك الحين كنت منشغلاً بمطاردة المَهْاة على الرَّغم من عدم قدرتي على تقدير الموقف الحقيقي كاملاً بسبب نقص المياه، لكنني فجأة أدركت حقيقة المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقي. لقد كنت هناك على بعد مئة ميل من وطني بصحبة أربعة من الرجال ومعنا أربعة من الإبل مع قليل من الطعام وحصّة أقل من المياه. وبالإضافة إلى ذلك، رأيت على الجمال علامات الجهد فأدركت أن سرعتنا من الآن وصاعداً ستكون أبطأ وتيرة. كان هناك أمامنا حلٌّ بديل واحد فقط، ألا وهو الوصول إلى المياه في طريق عودتنا في آبار باير Bayir المعروفة حالياً ولم تكن كذلك آنذاك، والتي لم تكن تقع بعيدة عن طريقنا.

لو كانت إبلنا قوية لوصلنا إلى آبار باير بمسيرة يوم واحد، ولكن في ظل الظروف الحالية سيستغرق الأمر منا يومين على الأقل. لذا ضربنا في الأرض باتجاه الشمال والشمال الغربي عبر أرض الصّوّان، سالكين الجهة الغربية من مسارنا الأصلي. تابعنا بنفس السرعة إلى أن وصلنا في مساء الليلة الثانية إلى مشارف متاهة باير وقد لاح أمامنا دون ذلك وادي باير حيث البئر. كنا نركب الإبل على طريقة العربي عند الغزو. تقدّمنا

بخط مستقيم دون توقف أو تردّد، ومشينا بعضنا بالقرب من بعض مدثرين بعباءاتنا حتى كدنا نلامس بعضنا، وأسلحتنا على أهبة الاستعداد. لقد كان لتلك المظاهر من وحدة وتيرة الحركة وانفرادية الهدف كبير التأثير على نفسية كل عضو من مجموعتنا.

يدخل إيقاع حركة الإبل إلى النفس الإنسانية فتندمج في داخله تلقائياً، فيرغب بدوام ذلك الإيقاع إلى الأبد. كنت راضياً عن نجاح رحلتنا في النهاية وأصبحنا بعيدين عن أيّ مزيد من الخطر. كنت أشعر بلذّة النصر وأن المغامرة قد انتهت بالنسبة لي وقد ربحتنا الجائزة، عندما صرخ مسعد فجأة قائلاً: «أعطني منظارك».. كان قد رأى شيئاً عن بُعد، وبمعاونة ذلك المنظار تأكّد من وجود ثلاثة فرسان. قال مسعد فلنكن حذرين، تسللنا إلى المنخفض، أنخنا جمالنا واختبأنا خلفها. لا شك أننا قد عدنا إلى منطقة الخطر، وعلينا التحرك بحذر شديد. تسمّرنا في مكاننا لفترة طويلة نرقب أولئك الفرسان الثلاثة وهم يجوبون تلك المنطقة. لو أن الظلام يهبط الآن لأمكننا التسلل تحت جناحه، ولكن بعد أن انتظرنا لمدة ساعة كانت لا تزال هناك ساعة أخرى ليحلّ الظلام. بفارغ الصبر شاهدنا الفرسان الثلاثة وهم يوسعون دائرة بحثهم حتى أصبحوا وراءنا فرأوا آثار مسيرنا، وأخذوا بالإسراع نحونا كالكلاب البوليسية.

كانوا ثلاثة أشخاص ونحن خمسة، مما جعلني أشعر بقليل من الطمأنينة. وما إن أشرفوا علينا تماماً حتى أطلق الشراري النار في الهواء، غير أنني سدّدتُ إلى رأس أقرب الفرسان إليّ! كان حظي كبيراً تلك الليلة أنني أخطأت الرّجل، فلو أنني أصبته لانتهى كل شيء. فما هي إلا لحظات حتى ظهر فوق التلال الغربية ما لا يقلّ عن خمسين فارساً، فعلمتُ أن المطاردة في أولها، وتلى بعد ذلك خمسٌ من الدقائق العصبية. أذكر التدافع المفاجئ لإبلنا الواجفة وأزيز طلقات البنادق، وخادمي السّوري يفرك يديه وينتحب. صورة رائعة للحياة البرّية كموكب متكامل من فرسان عُراة الصّدور ممتطين خيلهم دون سروج، يحملون الرّماح والبنادق ويتحركون كزوبعة عبر الصّحراء. إنها لمحة عن الطّبيعة البشرية في صورتها الخام دون أيّ تجميل.

رفع المراوي عقيرته معلناً عن اسمه علّ أحداً يتعرّف عليه، لكن دون جدوى أو

دون أن يعبره أحد. تمكنت أنا وإياه من ركوب جمالنا وبعد أن عرف العربان أننا لسنا بالطرائد العادية تمهلوا، ثم أخذ الرُّعاع بتنزيل الأحمال عن بقية الأبل وبنزع السلاح من بقية رجالي ثم بدأوا بالمرأوي ثم بي، لم نقاوم بل أخذنا بالاستجارة برئيس قبيلتهم. سمحوا لنا بذلك فقادونا إلى باير حيث نزلوا بمخيّمهم. وكان الظلام قد حلّ عندما وصلنا هناك، وكانت نار المخيم قد أشعلت على شكل دائرة حول الآبار ملقيةً بظلال ضوئها الغريب على عرين ذلك اللص الحتمي! أودعنا أحمالنا وإبلنا خارج دائرة النار وذهبنا للقاء الرّئيس. هل كنا أصدقاء أم أعداء؟

هل سيتم تجريدنا من ممتلكاتنا بما في ذلك ملابسنا التي علينا، أم سيتم إطلاق سراحنا؟ يعتمد ذلك تماماً على المرأوي وعلى قدرته على إقامة علاقة ودّية مع الرّئيس. فكلّمته ستكون حكماً، فإما أن يكون الإبهام إلى الأعلى أو يصير الإبهام إلى الأسفل. أذكر أنني سألت نفسي في تلك اللحظات فيما إن كنت آبه لما يحدث ورأيتُ أن لا شيء أهمّ بالنسبة لي من إنقاذ جلود المَهاة. فأني شيء آخر قابل للتعويض وهذه الجلود أغلى من الذهب. أذكر أنني تساءلت إن كان بإمكانني الوصول إلى خط السّكة الحديدية، حتى بعد أن يتمّ سلبني من كل شيء حتى من سروالي ولكن مع جلد واحد أو اثنين من جلود المَهاة فقط، والسّكة الحديدية تبعد حوالي الخمسين ميلاً! أذكر أيضاً الحديث الذي جرى تلك الليلة حين سقطتُ نائماً حيث كنت مستلقياً على الأرض.

أظهر لي الفجر المناطق المحيطة بي وأبدى لي خاطفي، أخصيتُ 70 رأساً من الخيل و30 من الأبل، ولا بدّ أن عدد الفرسان لا يقلّ عن المئة، ولكن مع غياب عدد من الكشافات الذين يستطلعون الأرض المحيطة فمن الصّعب تقدير عددهم بالضبط. على أي حال كان ذلك غزواً بالقوة، كانوا قد خرجوا لبعض الوقت للإغارة على المناطق شمالي حمص حيث استولوا على بعض الإبل. ولكن، وغالباً ما يحدث ذلك، فإن الغنائم تذهب في النهاية إلى الفريق الأقوى منهم. ثم عادوا جنوباً إلى مكان الغزاة المفضل في باير للانتظار.



الكشافة (السُّبُور)

كانت تلك العصابة مختلطة أغلبها من الجبليّة Jabaliya، مؤلفة من عناصر مغمورين يسكنون منطقة يصعب الوصول إليها إلى الشرق من جبل الدروز، ويعيشون على نهب جيرانهم. كانوا كما هو قائدهم، تصلهم صلة رحم بصخر لذا تجدهم مستعدين للتعامل معنا بودة، غير أن هناك أيضاً عنصراً قوياً من حلف غنزة Anaza في المخيم، الذين كانوا جميعاً في الخارج من أجل النّهب. كما أنهم أخذوا بمناقشة حالي كوني غير مسلم، فأنا طريدة عادلة. والآن أخذوا بتقسيم أمتعتي بينهم وكان قائدهم دوماً يأمرهم بالإنصاف. أذهلني طرح أي سؤال عن هذه المسألة وعن قدرتي. لقد أسرت في أرض خارجة عن القانون وأنا جديرٌ بالسرقة وليس لدي القدرة على الرّد. لقد كنت أعلم قواعد اللعبة قبل البدء باللعب، لقد هُزمت وأنا على استعداد تام لقبول الهزيمة.

استمرّ الترقب حتى منتصف النهار، عندما تبين أنّ الخلافات قد سوّيت بين

العناصر المتنافسة وأنّ المراوي قد فاز. أُخبرت أن بإمكانني المغادرة بسلام ولكن بعد أن يغادروا البئر عند غروب الشمس. قضيتُ بقية اليوم في استكشاف الجوار. لقد اكتسبت الآبارُ ذاتها الآن شهرة على حساب الدور الذي لعبته في الثورة العربية⁽¹⁾، وكمرکز ثكنة في الوقت الحاضر للقوة الحدودية لشرقي الأردن.

كان هناك بئران يتم سحب مائهما بالبكرات التي أحصيتها فوجدتها تبلغ العشرين، وأتوقع أن مستوى الماء يبلغ أربعين قدماً تحت سطح الأرض.

بالقرب من ذلك المكان وجدتُ بقايا بناء عظيم يظهر عليه إبداع حرفة البنائين. كانت الحجارة عظيمة الحجم وقد ارتصّ بعضها إلى جانب الآخر بعد أن تمّ استخدام ملاط يبدو بقساوة الحجر نفسه. كانت مساحة ذلك البناء كبيرة. ظننتُ أنني وقعت على آثار خان قديم على طريق التجارة الروماني القديم إلى الخليج العربي، وصلة وصل أخرى بين مصر وبلاد الرافدين. واعتقدتُ زائرة أخرى لموقع باير ألا وهي غرترود بِل Gertrude Bell أن تلك الآثار هي أطلال قصر كان يجتمع به أمراء بني أمية عندما كانوا يذهبون في رحلات صيدهم في القرن الثامن⁽²⁾. بينما يؤرّخ لورنس هذا الموقع بوقت سابق من أيام الغساسنة Ghassanian ربما من أيام ما قبل الإسلام. غير أنه لا يمكن تحديد تاريخ معيّن لهذه المواقع الصحراوية القديمة. لا بدّ أن يكون باير Bayir أقدم من كل شيء.

(1) راجع في هذه السلسلة كتاب «ثورة في الصحراء» لتوماس إدوارد لورنس (لورنس العرب)، وكتاب «مغامرات مع لورنس في جزيرة العرب» للويل توماس.

(2) وهذا هو الصحيح تماماً (راجع في هذه السلسلة كتابها «العامر والغامر») فلقد أقام بنو أمية في بوادي الشام وشمالي جزيرة العرب قصوراً شتوية بقصد الخروج إلى البادية والصّيد والسّم، ومنها: المشتى، خربة المَفَجَر، الخَرّانة، قصر جبل سيس، قصر الحير الشرقي والغربي، قُصير عمرة، قصر عَنَجَر. وكنت قد طفت بأكثر هذه القصور في رحلات بحث وصيد بالعقد الأخير من القرن العشرين، على خطى الرّحّالين، أتنكّب مرة بندقية موسبرغ 512K وأحياناً Brno 2، وقد عايشت ما قصدوه من حرية وهواء طلق وروعة في البادية لا يدركها أبناء المدن أبداً. هذه هي العروبة بمحض جوهرها.

ومؤخراً، وُجدت بعض الأواني الفخارية النبطية الملونة في هذا الموقع، ومما لا شك فيه أنه سيتم اكتشاف آثار لحرف يدوية لاحقاً في المكان كما هو الوضع في مرتفعات طَبِيق.



في وقت لاحق من ذلك اليوم، قمْتُ بزيارة قبر جدّ قبيلة بني صَخر (الصَّخُور) Sukhur. وجدتُ الضريح وقد تم تزيينه بالنُذر النَّادرة والأعطيات والجوائز التي يمكن تخيلها. تم ربط جميع تلك الأعطيات وتعليقها بخرق وريش نعام بالإضافة إلى غطاء رأس وعلب خراطيش، كما كان هناك حزام عريض فيه خراطيش نحاسية فارغة، ولاحظتُ وجود زوج من المناظير الميدانية وقطع من نظارات عادية بالإضافة إلى جزء من منظار. فأضفت إلى ذلك بعضاً من خراطيش المانليخَر Mannlicher المحشوة، وأعتقد أنها لا شك في مكانها الذي وضعتها فيه حتى الآن. أمّا منظاري الميداني فقد أعطيته إلى زعيم اللصوص.



بقينا حول البئر حتى حوالي الساعة الرابعة عندما بدأت الكشافة بالعودة، عندها قامت العصابة بأكملها بسقي خيولها وإبلها وأخذوا يتحضرون للتحرك. جهّزنا أحمالنا نحن أيضاً، وعند الغسق تحرّكت العصابة شمالاً واتجهنا غرباً كما لو أننا نريد شقّ طريقنا باتجاه السّكة الحديدية. كنا لا نزال غير متأكدين من وجود قوة في غِزْرة Anaza، نعرف أنه بإمكاننا الوثوق بكلمة الرّئيس ورجاله، لكن هل باستطاعته السيطرة على الآخرين بعد هبوط الليل؟ مشينا ببطء حتى غروب الشّمس ولكن ما إن بُعدنا عن الأنظار حتى انطلقنا مسرعين. عبرنا التلال البيضاء إلى غربي البئر، ثم حوّلنا مسارنا لتسابق إلى الوطن.

ساعة بعد ساعة ونحن نغذّ السير عبر تلك السّهول المسطحة حيث يصعب الاختباء، في حالة من خوف دائم من مطاردتين محتملين حتى هبط الظلام. عند الشّفق الأحمر

من غروب الشمس رأينا العلامة المألوفة، تلول الثلاث أخوات Thulaithukhwat الى الشرق منا، ولكن المنظر الأكثر روعة وقد كان هدفنا بعيداً الى الغرب منا، هو سلسلة من الهضاب الزرقاء البعيدة الجميلة والمريحة للعين بعد تلك الألوان البرونزية للقفار الثقيلة على النفس.

هنالك كانت جبال مؤاب، وإليها اتجهنا نحث الخطى بقدر ما نستطيع إبلنا تحمله من سرعة قبل أن يلقي علينا الظلام بجناحه، توقفنا لإعداد وجبة على عجل وقد كانت تلك الوجبة الأولى لنا بعد 24 ساعة ثم تابعنا مسيرنا في الليل، شعرتُ بخطى الإبل وهي تنتقل بنا إلى أرض الحمّاد السوداء القاسية ومن ثم إلى ليونة الحجر الجيري في السهول، فعلمتُ أننا اجتزنا وإلى غير رجعة الأراضي الصّحراوية الحقيقية.

مشينا طوال الليل ولم ننم سوى بضع ساعات بين الأربع والست ساعات فقط ثم تابعنا مسيرنا، لم نصل إلى منطقة آمنة بعد فما زال علينا اجتياز منطقة الخطر، إذ أنّ المنطقة الحدودية هي الأخطر. رأى مسعد مرة أخرى بعض الفرسان فصرخ طالباً منظاري الذي لم يكن متوفراً هذه المرة، لنجد أنفسنا مرة أخرى ملاحقين كالأرانب والخطر يداهمنا وأمامنا عصابة أخرى، استنفدت إبلنا قواها ومنازلنا على مرمى النظر منا. أنخنا جمالنا وأخذ الشراري بالحبو إلى قمة تلة صغيرة حيث أمكنه مراقبة تلك العصابة. بقينا مختبئين حتى غابوا وراء الأفق. لقد أخطأنا العصابة بحوالي الميل! فكان علينا مرة أخرى التحرك بسرعة على إبلنا العاجزة عن السرعة إلى أن خارت تماماً، فما كان منا أخيراً إلا الترجل لدفع الجمال أمامنا من أجل الاستمرار في المسير.

استمرّ الوضع هكذا حتى المساء، عندما أشرفنا على سلسلة من التلال التي رأينا بعدها ومن خلال عتمة تلك الليلة أعمدة التلغراف الخاصة بالسكة الحديدية المؤدية إلى مكة.

الفصل السابع

استرجاع الماضي

لا يرقى مجموع ما توصلنا لمعرفته عن المَهاة العربية في العام 1909 إلى الكثير، فعلى الرّغم من اصطياده على مرّ العصور، إما على شكل بقر وحشي في الصّحراء أو على شكل وحيد قرن من خلال الأساطير، فإنه استطاع الحفاظ بنجاح على وحدته وعزلته ممّا ربط باسمه العديد من الأغاز، الآن كما كان في الماضي.

لا بدّ أن المَهاة كانت معروفة من قبل النّبي أيوب وأقرانه أكثر ممّا هو عليه الحال في الوقت الحاضر بالنسبة لسكان أرض عوص land of Uz. لأن المَهاة في تلك الأيام كانت ما تزال تجوب القفار الحدودية بين سوريا وفلسطين وبلاد الرّافدين. هكذا اختفى «الرّيم ضخّم القامة» المذكور في العهد القديم في العصور المظلمة وأضحى حيواناً أسطورياً في القرون الوسطى ولم نسمع عنه المزيد، حتى دخل أول رحالة غربي إلى مكّة في أوائل القرن السّادس عشر. ففي عام 1503 استطاع رجل نبيل من روما يدعى لودوفيكو دي فارتيما Ludovico di Varthema دخول الحرم المكي ليرى في باحته اثنين من ظباء المَهاة مقيّدين، فوصفهما بكثير من الحماس كحيوانات أسطورية من الدّرجة الأولى.

يوضح هذا الوصف تماماً كيف تستعيد الأساطير صورتها الحية! يجب أن نبقي في مخيلتنا أنه في تلك الأيام، وعلى مدى 300 سنة، كان النّاس يتوقعون مشاهدة ذلك الحيوان الأسطوري بكامل جماله البرّي الوحشي وفقاً للتقاليد. سيتم العثور عليه في

أي لحظة من قبل بعض الرّحالة الذين يجولون في أفريقيا ويتسلقون هضبة التّيب أو يتوغّلون في عمق الرّمال العربية.

في أواخر عام 1820 أُعلن اكتشاف اليونيكورن Unicorn الأسطوري حقيقة، حتى السّير ريتشارد بُرتون Sir Richard Burton الذي قام معلقاً على رحلات فارتيمّا Varthema لم يسخر من حيوانه الأسطوري. كان فارتيمّا Varthema أحد شهود العيان على وجود اليونيكورن Unicorn. كما كانت هناك بيانات صادقة أخرى عن ذلك الوحش صادرة عن أمكنة بعيدة في مجاهل جنوب أفريقيا والتّيب، والحبشة! نحن نعلم الآن أنه لا يوجد مثل هذا الحيوان ذي القرن الوحيد. فقد تمّ عبور آخر منطقة واسعة غير مستكشفة من العالم وهي آخر صحراء رملية وأكبرها ولم يُعثر هناك إلاّ على المّهاة. لا الصّحراء العربية ولا التّيب ولا الحبشة أيضاً قادرة على إنتاج البضاعة. لذا يتعيّن علينا أن نستودع اليونيكورن في الأسطورة، والتحرّك للبحث عن نموذج أوّلي له. بعد خمسة وعشرين سنة من فارتيمّا Varthema جاء أوروبي آخر، هو البرتغالي أنطونيو تينريرو António Tenreiro إلى الصّحراء السّورية ولم يصف فقط بالتفصيل المّهاة العربية بشكل لا لبس فيه، بل شاهدها هناك بعد أن اختفت بوقت طويل.

هذا أول ما ورد عن ظبي المّهاة في موئلها الطّبيعي مجرّدة عن جميع الأفكار المسبقة لما ينبغي أن يبدو كاليونيكورن. ومن الجدير سرد الظروف التي أدّت إلى الوصول إلى اكتشاف من هذا القبيل.

* * *

يمتاز أنطونيو تينريرو António Tenreiro بكونه أول أوروبي مسجل لدينا قام برحلة برّية جاب فيها الأرض من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي، وكان هذا في عام 1523، في الوقت الذي كانت الهيمنة البرتغالية تسيطر على الخليج العربي وحين كان مضيق هرمز معقلهم. تينريرو Tenreiro بعد مغامراته المعتادة مع الأتراك التي أسر فيها بتهمة الجاسوسية وتم الإفراج عنه أخيراً، ظهر في طرابلس - سوريا،

وقام في نهاية المطاف برحلة صحراوية من حلب إلى البصرة، ومن ثم إلى هُرمُز وهناك قضى بضع سنوات. ويبدو أن رئيس القلعة كان بحاجة لإرسال مبعوث خاص وسري إلى ملك البرتغال، فاختر تينريو لهذا الغرض. لم يكن ليجد أفضل منه، فقد برهن تينريو عن قوة شكيمة كرحالة بالإضافة إلى إلمامه باللغتين التركيبية والفارسية. لدى وصوله إلى البصرة عام 1528 قادماً من مضيق هُرمُز، وجد أن القافلة كانت قد غادرت للتو إلى حلب، غير أن ذلك لم يردعه، فاستأجر جملين ودليلاً عربياً وانطلق بأقصى سرعة، 20 ساعة باليوم، روى فيها إبله أربع مرات فقط خلال 15 أو 16 يوماً ساعياً خلف القافلة.

استطاع في النهاية اللحاق بالقافلة في «سوكنا» *Cocana* (عين السخنة) بالقرب من تدمر، لقد استطاع أن يقطع مسافة 600 ميل بوقت قياسي. خلال رحلته تلك كان قد «التقى بالكثير من الأبقار الوحشية، غير أنه لم يقابل أي رجل أو امرأة. كان يغطي تلك الأبقار جلد فضي لماع، ولها مؤخرة فرس بيضاء لامعة مثل الحرير. رأسها أشبه برأس حصان يعلوه قرنان منتصبان».

من المؤكد أن ذلك الوصف أقرب ما يكون لطبي المَهابة ذي السمة الأكثر تميزاً ألا وهي لونه الأبيض اللامع. أنا بنفسني أثرتُ الملاحظة ذاتها عندما وقعت عيناى عليه للمرة الأولى. ولكن يبدو أن تينريو Tenreiro كان أكثر تأثراً بحيوان اليونيكورن الأسطوري في وصفه لقرون المَهابة فقد كان ينظر إلى ما يرغب أن يكون عليه الحال من وجهة نظره.



في القرنين السادس عشر والسابع عشر كان العالم الغربي في أوج تطلعه للتوسّع. كانت كل العيون الغربية مركزة على الشرق تحثها الرغبة إلى التجارة هناك. لذا فإنك تجد سلسلة من المغامرين الباحثين عن المشرق الجديد، الرائع والذهبي. كان البرتغاليون هم الأوائل في هذا المضمار، تلاهم الهولنديون ثم جاء الانكليز في سباق

بينهم للفوز بالجائزة ذاتها. ولقد انطلقوا بحرأ في جولة حول رأس الرّجاء الصّالح أو عن طريق البحر الأحمر. ووصلوا برأ عبر الصّحراء السّورية وحتى عن الطّريق روسيا. كانوا رجالاً أقوياء بُدناء في تلك الأيام، قاموا برحلات مذهلة ولم يذكروا إلا القليل عنها. واندفع جميع أصناف البشر في ذلك اللبحث المحموم عن الذهب، فكان هناك المتمردون السّاعون لحسابهم الخاص، والمبعوثون من قبل الباباوات والأباطرة، وهناك الجواسيس والأطباء والكهنة، بالإضافة إلى التجّار الحقيقيين. كان هناك تجّار المجوهرات اليهود يشترون بضائع رخيصة من أوروبا ويقومون ببيعها للأباطرة الفُرس والملوك الهنود محققين الأرباح الطائلة، كما كان هناك مبعوثون من قبل الهيئات الدّينية.

ومن بين هؤلاء الأخيرين كان فينتشنزو ماريّا Vincenzo Maria الرّاهب الكرملّي Carmelite Father الذي أرسل في مهمة الى الهند عام 1656. كان رّحالة شديد الملاحظة، وخلال إقامته الوجيزة في مسقط حظى بمشاهدة أول مهة في ذلك المكان. «الجبّال» كما يقول «يكثّر فيها الصّيد وخاصة الخنازير البرية، الحجل وأنثى الغزال التي لا يابه لأهميتها السّكان المحليون. لذا تراهم عندما يقومون بصيدها يبيعونها للأجانب بسعر زهيد.

لفتت حيوانات ضخمة انتباهي بشكل خاص في هذا المكان، أقرب ما تكون من حيث ضخامتها إلى الأيائل من حيث شكل الرّأس والجسم، غير أنها أنقى بياضاً، يكسو جسمها فروّ حريري ونظيف بحيث لن تجد أكثر منه بهاءً. وجميع تلك الحيوانات تمتاز بقرنين يرتفعان فوق رأسها بحوالي الذراعين إلى ثلاثة أذرع، سميكة القاعدة يكاد محيطها يشبه التاج بينما يستدقّ رأسه من الأعلى بشكل حاد، وهي مستقيمة، ملساء وسوداء اللون فيها عُقد منتظمة محلزنة كاللّولب، كما سبق أن أشرت في مكان آخر.

أنا شخصياً أعتقد أن هذه المخلوقات هي ذاتها التي قام بعض الكتّاب بوصفها على أنها اليونيكورن، وبعضها وفق ما يقال يمكن العثور عليه في الأيام السّالفة بمكّة

المكرمة، ولكنها في واقع الأمر ليست يونيكورن. حاول الإنكليز شراء ظبيين اثنين غير أنهم لم يتفقوا على السعر بشكل نهائي ممّا دعاهم لترك الظبيين على أن يعودوا لأخذهما عند رجوعهم. أما الرعاة الذين جلبوا الظبيين فقد كانوا متيني البنية، قساة الهيئة واللباس يشبهون إلى حدّ بعيد وصف أهالي سوقطرة Socotrans بشعرهم الخشن المنتصب ولونهم الداكن المحروق وعيونهم المخيفة.

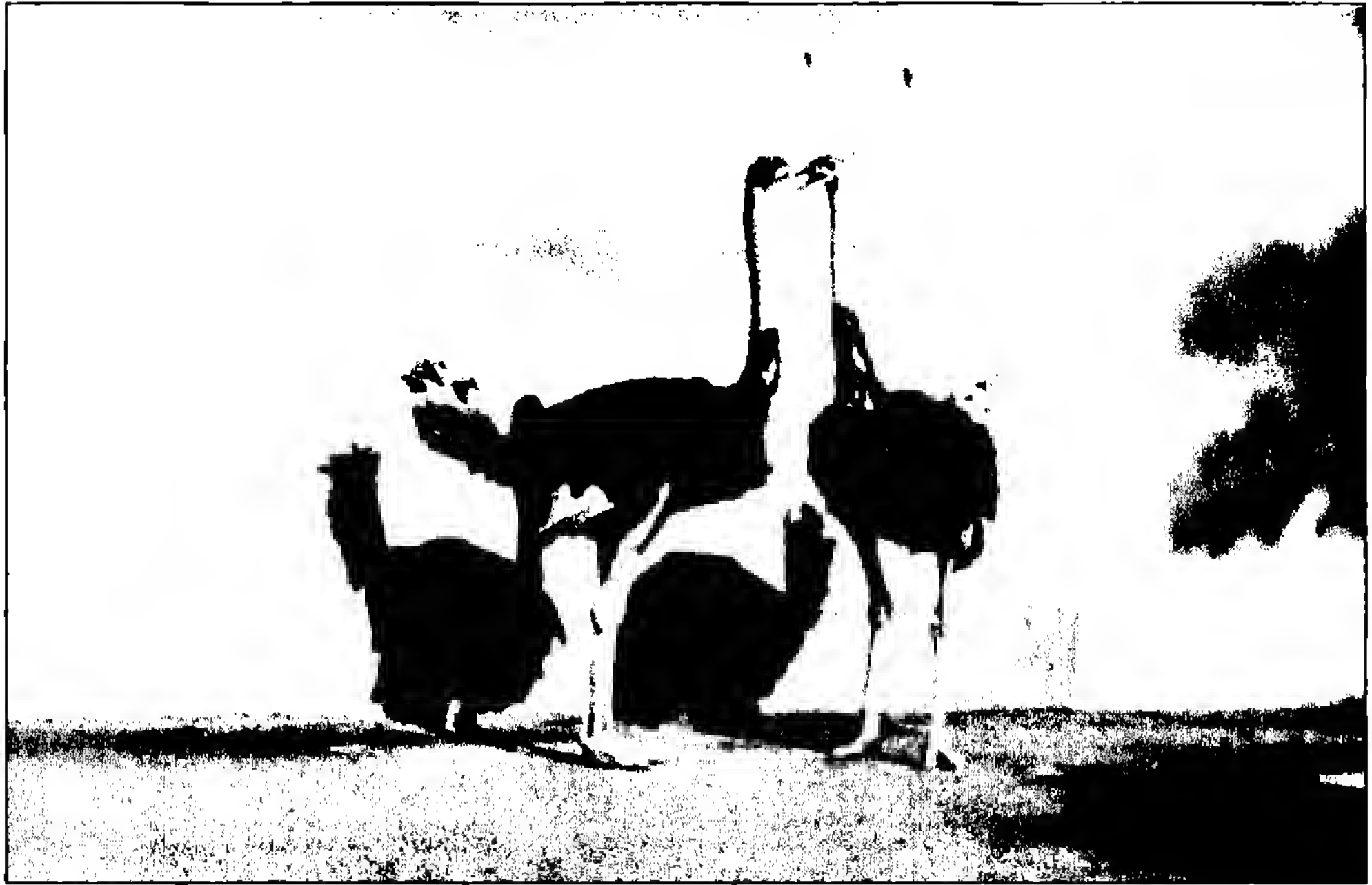
إنّ العديد من التجار والمغامرين الذين كانوا يجوبون الصحارى السورية جيئة وذهاباً عبر طريقها التجاري عندما كان في أوجه واصلاً بين الشرق والغرب، كانوا في أغلب الأحيان يسرون على شكل قوافل، إلّا أن القوافل لا تعطي للصيد الكثير من اهتمامها، وعلى الرغم من ذلك ترى العديد من المسافرين يذكرون الحُمُر الوحشية⁽¹⁾ التي ما زالت تجوب منطقة نهر الفرات على ضفتيه كليهما، غير أن أحداً لم يذكر المَهَاة.

في وقت لاحق هُجر هذا الطريق التجاري ولم يعد صالحاً سوى حتى منتصف القرن الثامن عشر، عندما استُخدم بشكل رئيسي كطريق مختصر من وإلى الهند من قبل الإنكليز العاملين في شركة الهند الشرقية. كانت الأوضاع قد تغيّرت في تلك الآونة. ولدينا العديد من الأدلة على عبور الصحراء بين البصرة وحلب، وبين بغداد وحلب وبالتأكيد بين بغداد ودمشق، والتي من خلالها نعرف بشكل جيد الحيوانات السائدة في الصحراء شمال سوريا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر. على أيّ

(1) كتب المؤلف: كان الحمار الوحشي السوري يجوب مساحة واسعة من الحماد السوري بين القرنين السادس عشر والسابع عشر. رأى جون إيلدرد حمراً وحشية بين هيت وحلب عام 1584. بينما شاهد كارتررايت عام 1603 «قطعاناً من الحيوانات البرية الشبيهة بالحمر الوحشية والتي تمتاز بلونها الأبيض التام» في عانة التي لا تبعد كثيراً عن نهر الفرات. وبعد عدة سنوات رأى تيكسيرا العديد من القطعان في منطقة أور، بينما وصف ديلا فاله حمار وحش أسيراً رآه في رواق منزل البابا في البصرة عام 1625 «إنه يشبه الحمار العادي غير أن لونه كان أكثر لمعاناً ولديه خطّ من الشعر الأبيض يمرّ من رأسه إلى ذيله كشعر الفرس، وفي عدوه ووثبه تجده أرشق من الحمار العادي».

حال نعلم أن المَهَاة والحمّار الوحشي كانا قد اختفيا من الضفّة الجنوبية لنهر الفُرات وتراجعا إلى الدّاخِل. لم يرد أي ذكر لهما ولكن تم ذكر النّعامَة!

يبدو أن الحمّار الوحشي كان قد اختفى من بادية الشّام خلال القرن الثامن عشر وانقرض في شمال صحراء جزيرة العرب خلال القرن التاسع عشر. ذكر بوركهارت Burckhardt أنه مازال هناك العديد منها في منطقة الشّارات، وذلك في العقد الأول من القرن الماضي. أما ملاذها الأخير فقد تبين أنه كان في بلاد البراكين إلى الجنوب الشرقي من جبل الدّروز. قال موزيل Musil «لقد سمعت أنه وفي قرابة المئة عام السّابقة كانت الحُمُر الوحشية تجوب منخفض السّرحان، حيث كانت وفرة المياه والمراعي الخصبة في البيئة البركانية وكذلك وعورة المنطقة توفر الأماكن الأفضل للاختباء. وقد قيل إنّ آخر حمّار وحشي تم اصطياده بالقرب من آبار الغمر wells of AI Ghamr التي تبعد نحو 34 ميلاً إلى الجنوب الشرقي من بحيرة الأزرق.



النّعام العربي

تصوير الميجور ر. ي. تشيزمان

يدلّ حمارٌ طاعن في السن على أخبار المطاردات التي تعرّض لها جدّه بالقرب من منخفض السّرحان، لكن ما إن استخدمت الأسلحة النارية من قبل البدو حتى أخذت أعداد الحُمُر الوحشية بالتناقص شيئاً فشيئاً. ما تزال الحُمُر الوحشية متواجدة في منطقة الجزيرة بين نهر الفُرات ونهر دجلة إلى حيث أتى الصُّلْبَة the Sleyb بحُمُرهم العادية من أجل النّزو⁽¹⁾. ويؤكد غوارماني Guarmani هذه الرّواية الشفهية في التهجين بين الحُمُر الأهلية والحُمُر الوحشية، بالإضافة إلى حقيقة أمر انقراض الأخيرة إلى الجنوب من نهر الفُرات، فيقول: «عندما يحلّ الشّتاء، يعبر العديد من الصُّلْبَة Saleib نهر الفُرات لاصطياد الحمار الوحشي في بلاد الرّافدين، ولا يوجد الكثير منها الآن (1865) في الحِمَاد. وكانوا يأسرون بعضاً منها ويأخذونها معهم للتوالد مع حُمُرهم».



شهدت نهاية القرن الثامن عشر نهاية حركة القوافل بين حلب والخليج العربي عبر ما كان يُدعى بطريق الصّحراء الكبرى. فما كان من صحراء شمالي سوريا إلا أن وقعت في غياهب النسيان للمئة عام التي تلتها، حيث لم يبق أيّ رحالة بقصدها، ونجد بعض راسمي الخرائط في القرن العشرين يعودون إلى القرن الثامن عشر من أجل الحصول على معلومات عن المنطقة. لقد تحوّل الاهتمام بأسره إلى الجنوب.

شهد أوائل القرن التاسع عشر الدّفعة الأولى من الرّحّالين العازمين على اختراق شبه جزيرة العرب ودخول ذلك الجزء من العالم، والقيام برحلات برية واسعة أو الوصول إلى المدينة المحرمة مكّة المكرمة. كان زيتسن Seetzen من أوائل أولئك المغامرون في القرن التاسع عشر، وهو روسي⁽²⁾ تلقى تعليمه في ألمانيا بهدف السّفر والبحث في آسيا. ليس معلوماً إذا كان قد تلقى منحة من الإمبراطور الرّوسي لقاء تلك الرّحلة، ولكن أشيع أن

(1) كتب المؤلّف: ومن المؤكّد تقريباً أنها قد انقرضت من آخر ملاذ لها إلى الشّمال من نهر الفرات وجبل سنجار ولم تشاهد منذ عام 1927. وفيما إذا كان هناك بعض منها في جنوب جزيرة العرب في أراضي عُمان النائية أم لا فهو أمرٌ مشكوك فيه.

(2) لم يكن زيتسن روسياً على الإطلاق بل هو ألماني، لكنه قام برحلته لحساب روسيا القيصرية.

هدفه النهائي كان الوصول إلى تلك الخانات الغامضة في آسيا الوسطى، التي كانت طلائع التقدم الروسي الوشيك على آسيا الوسطى قد توجهت إلى حدودها الصحراوية.

* * *

على أية حال، كان زيتسن Seetzen مستعرباً جيداً، بالإضافة إلى كونه عالم نبات مشهور حتى قبل ان يطأ أراضي شبه جزيرة العرب. لعدة سنوات جاب زيتسن حدود المنطقة وأتقن لغة وعادات المنطقة في حلب، ودمشق، والقدس والقاهرة. وخلال إقامته في القدس عام 1808 قام بمبادرة أرسل فيها مستخدماً سورياً يعمل لديه ليستطلع الأرض الشرقية. استطاع ذلك السوري واسمه يوسف المالكي الوصول إلى الجوف وإلى النفود الكبرى. ومن غير المؤكد أن يكون قد عبر القفار ليصل إلى جبل شمر، ولكن من المؤكد أنه ذهب إلى ما بعد الجوف، لأن أدلائه أوصلوه إلى قفار واسعة مليئة بالكثبان تدعى النفود حيث يجول البقر الوحشي الأبيض اللون.

كان ذلك أول تقرير يؤكد وجود المهارة في الصحراء الشمالية⁽¹⁾. ولا قيمة لتاريخ زيتسن Seetzen اللاحق بالنسبة لنا، فيما يخص المهارة - غير أنه ذو أهمية كبيرة في إظهار الخطر الذي يتعرض له الرّحّالون لدى توغلهم في جزيرة العرب. نجح زيتسن Seetzen في دخول مكة المكرمة، وهو الأوروبي السادس الذي استطاع الوصول إلى هناك والبقاء على قيد الحياة. ثم تابع إلى اليمن، وقتل على الفور تقريباً لدى خروجه من المُخا Mukha أثناء محاولته الوصول إلى مَسْقَطَ برأ. ولو أنه نجح في ذلك المشروع لاستطعنا التوصل دون شك إلى مزيد من المعلومات عن المهارة في الجزء الجنوبي من جزيرة العرب.

* * *

(1) كتب المؤلف: تأكيداً للتقرير، كان قد تم استلامه بعد بضعة سنوات من قبل بوركهارت Burckhardt - ذلك الشاهد الأكثر مصداقية على كل ما رأى وفرض رقابة على المعلومات الأصلية التي جاء بها. وفي ملحق كتابه «رحلات إلى سوريا وإلى الأراضي المقدسة» يصف الطريق من بصرى إلى جبل شمر، وبالمصادفة تجده يلمح إلى وفرة الأبقار الوحشية في النفود.

ثم في أوائل القرن الماضي جرت محاولة أخرى للتوصل إلى طريق مختصر إلى الهند من جانب قوة غربيّة جديدة (بريطانيا العظمى) كانت تهيمن على الشرق آنذاك. ومن جرّاء تلك المحاولات أبصرت حملات اكتشاف وادي الفُرات النّور وجلبت إلى الصّحراء السّورية أفضل رَحّالها، فكان من بينهم الرّحالة الكابتن مورزبي⁽¹⁾ Moresby، وهو ضابط شاب في البحريّة الهنديّة، قال ويلستد Wellsted عنه: «استقال طواعية من الخدمة في وقت مبكر، بسن 19 سنة، وكّرّس نفسه لمدة ثلاث سنوات للتجوال عبر أجزاء مختلفة من الشرق».

تُشكّل رحلات مورزبي Moresby الجزء الأكبر من حجم مجلدات ويلستد Wellsted المسمّاة⁽²⁾: «رحلات إلى عاصمة الخلفاء». وعلى الرّغم من سرد تلك الرّحلات بصيغة راويها الذي ظهر اسمه منفرداً «ويلستد» Wellsted على الغلاف، غير أنّها كانت تصف الرّحلات التي قام بها الملازم مورزبي Moresby، فقد كان ويلستد نفسه في تلك الآونة مبعوثاً على متن سفينة بالينوروس Palinurus للقيام في بعض الأبحاث في البحر الأحمر. ويبدو أن مورزبي Moresby كان قد قام ببعض المهام المتنقلة ربما من أجل كتابة تقرير عن التّواصل البري بين البحر الأبيض المتوسط والخليج العربي، من أجل إيجاد الإمكانيات لفتح مثل هذا الطّريق براً أو عن طريق النّهر، الأمر الذي كان يحظى باهتمام الحكومة الهنديّة بشكل جدي.

تزامنت فترة رحلة مورزبي Moresby مع اكتشاف تشيزني Chesney لبلاد الرّافدين والشرق الأدنى لأول مرة، وذلك قبل تعيينه في قيادة الرّحلة الاستكشافية عام 1835-

(1) يكتب كاروثرز اسمه بالغلط: أورمزبي Ormsby والصواب كما أثبتنا. واسمه جون مورزبي (1830-1922 م) ضابط بحريّة بريطاني شهير استكشف سواحل غينيا الجديدة، وألّف عن ذلك كتاباً.

(2) عنوان كتابه بالإنكليزية في جزئين:

Travels to the City of Caliphs, London, 1840.

وله كتاب آخر هو: *Travels in Arabia*، نُشر بجزئين عام 1838 م.

1837. وشهد عام 1831⁽¹⁾ عبور مورزبي الصحراء السورية من بغداد إلى دمشق، في حين كان تشيزني Chesney يرتحل من دمشق إلى بغداد. تابع مورزبي بحثه ليصل إلى طرابلس، وقبرص وحلب، ثم العودة إلى بغداد وبحوزته عدة خرائط بالإضافة إلى تفاصيل عن رحلاته المختلفة.



لنُعد إلى مطاردة المَهْاة! بينما كان باستطاعة مورزبي إخبارنا شيئاً ما عن التاريخ الطبيعي للصحراء السورية في ذلك التاريخ.

لقد لاحظ اختفاء الحُمُر الوحشية بينما كانت تُرى مجموعات من النعام في بعض الأحيان. لا يوجد ذكر فعلي للمَهْاة بينما تحدث عن الغزلان والوعول، ولكن لدى ذكرها كنت أسمح للشك بمدخلتي على أنها المَهْاة. لذلك فمن الوارد أن المَهْاة كانت لا تزال تجول إلى ذلك البُعد شمالاً أي بين خطي العرض 33° و 34° مستقبلة تلك الوديان كسهول حوران الغنيّة بالمرعى في فصول معيّنة. كان مورزبي ملاحظاً جيداً، فقد أتى على ذكر قبيلة الصُّلْبَة Suluba المختصة بالصّيد، وأعطى صورة حيّة لفريقه الذي شارك في إحدى تلك المطاردات للغزال والقطا. الأولى كانت بمثابة المَنّ (المَنّ والسَّلوى) بالنسبة لنا! وكان باستطاعتنا أسر صغارها حديثي الولادة، بينما كانت الأخريات سريعة جداً بالنسبة لنا. كان بإمكاننا الإمساك بالمائات من تلك المخلوقات الضعيفة - غير أنّ عشرة منها كانت حصيلتنا. ذبحنا تلك الطرائد وقمنا بتعليقها على الإبل. تبعنا أمهاتها بأسى بالغ، وسارت بالقرب منا لعدة أميال غير أبهة بسلامتها لمجرّد أن تلقي نظرة أخيرة على أولادها الصّرعى».

(1) كتب المؤلف: في «رحلات إلى عاصمة الخلفاء» يرد التاريخ أبريل عام 1833، وهو خطأ طباعي واضح وينبغي أن يكون 1831، ففي تقرير مورزبي الخاص المكتوب من بيروت في يونيو عام 1831، إلى جمعية بومباي الجغرافية، ورد التاريخ أبريل 1831. كما أن تاريخ عودته إلى بومباي أيضاً كان غير صحيح وفق حساب ويلستيد Wellsted. انظر «رحلات إلى عاصمة الخلفاء»، المجلد 1، ص 303، والمجلد الثاني، ص 108، ومحاضر جمعية بومباي الجغرافية أيضاً، فبراير عام 1839.

كانت طيور القطا بالآلاف - هناك أعداد كبيرة من الطيور البحرية في أجزاء معينة من العالم، ولكنني لم أشهد مثل تلك الآلاف من ذوات الأجنحة كالتي اجتمعت في هذه المنطقة. لا تكاد تخلو منطقة لا تتعدى البضعة أمتار من أعداد هائلة منها، تحوم حولنا رافعة أصواتها بالصّفير».

يكاد ويلستيد Wellsted لا يذكر أية معلومات عن هذا الموضوع هنا، ومعلوماته عن المهارة تكاد تكون سلبية الطابع. قام ويلستيد Wellsted بأشياء هامة في جزيرة العرب، بالإضافة إلى الدور الذي لعبه في مسح الشواطئ. أما أفضل أعماله في علوم الآثار فكانت اكتشاف موقع نقب الحجر Nakab al Hajar في حضرموت برفقة كرتندن Cruttenden، وهو «أول دليل حاسم على الآثار الحميرية Himyaritic منذ تلك الأيام العظيمة للحضارة العربية»، هذا وقد قدم الكثير أيضاً للجغرافية عندما قام عام 1836 باستكشاف دقيق لعمان «ذلك البلد المجهول كلية بالنسبة للأوروبيين». ولكن على الرغم من تجواله الواسع في عُمان، وتسجيل وصوله إلى نقطة هي أقرب ما تكون إلى حافة الرمال الصحراوية الجنوبية العظمى، فإنه تركها لمايلز⁽¹⁾ Miles، الذي جاء بعد خمسين سنة، ليدون تواجد المهارة في تلك الرقعة. كان الرحالة التالي هو فالين Wallin، الذي توغل أكثر في قلب جزيرة العرب حتى بلغ الجوف والنفود الكبرى في عام 1845، ومنه تأكدنا من قصة جاسوس زيتسن Seetzen السوري.

ويقول: «يجري صيد النعام من قبل قبيلة الصلبة Suluba وقبيلة الشرارات Sharrarat في صحراء الدهناء Dahna (النفود)، ولا سيما في محيط الجوف وتلك القفار الرملية الشاسعة أيضاً، بالإضافة إلى الأرانب البرية، والغزلان والأياثل». كان فالين Wallin أول من استطاع عبور النفود وكشف كنهها، كان فالين مستعرباً جيداً

(1) هو الكولونيل البريطاني سامويل باريت مايلز Col. Samuel Barrett Miles (1838-1913)، قام بأول رحلة له إلى جزيرة العرب عام 1866، عُيّن بين عامي 1872-1886 ممثلاً سياسياً وقنصلاً في مسقط ثم في بغداد وزنجبار، وفي عام 1887 انتهت خدمته في الخليج وتوجه إلى الهند. له كتاب شهير عن بلدان الخليج العربي وقبائله:

S. B. Miles: *The Countries and Tribes of the Arab Gulf*, London 1919.

ومراقباً عن كُتب، وليس لدي أي شك أن ظييه كان مَهْأة.

لم يأتِ قَالين، كما كنت أعتقد في كثير من الأحيان، للحصول على تقدير كَرَحَالَة في جزيرة العرب. لقد أنصفت هُو غَارْث Hogarth حقاً بقوله⁽¹⁾: «كان واحداً من أقدر الأوروبيين الذين وطئت أقدامهم جزيرة العرب»، ولكن قَلَّة هم من كانوا على علم بَكُنْه أسفاره أو قيمة ملاحظاته. وكان أول الأوروبيين الذين استطاعوا الحجَّ إلى مَكَّة والمدينة المنورة بصحبة قافلة عجميَّة، وكان أول من رأى ووصف جبل شَمَّر بشطرية البدوي والريفي، كما كان أول من قام بزيارة تيماء القديمة، وبالتأكيد أول من عبر شمال جزيرة العرب من البحر الأحمر إلى العراق.

كان هناك سواء من الرِّحَالَة الذين لحقوا به والذين أخبرونا بالمزيد عن المَهْأة، ولكن لا غرو أنه قبل وصولهم إلى جزيرة العرب كان قد وصل وللمرة الأولى إلى لندن زوج من المَهْأة العربية الأسيرة! قدَّمها الكابتن جون شيفرد Capt. John Shepherd من الحامية الهندية عام 1857 إلى إدارة حديقة حيوان لندن بعد أن كان قد تم إرسالهما إليه من بومباي⁽²⁾. قضت الأنثى خلال نقلها على الطريق، بينما وصل الذكر إلى قفصه الذهبي في حديقة حيوانات لندن حياً، غير أنه لم يمضِ وقت طويل حتى قضى هو الآخر لينضمَّ في نهاية المطاف إلى المجموعة المحنَّطة في المتحف البريطاني.

لدى وصوله إلى حديقة حيوانات لندن، تم تصنيفه على أنه ظبي مَهْأة في منتصف العمر، والطبي الأفريقي Gemsbuck هو أكثر الأصناف المألوفة من ذلك الجنس. ولكن ما إن وصل إلى المتحف البريطاني حتى صنَّفه الدكتور جون إدوارد غراي Dr. John Edward Gray كصنف جديد ودعاها: «مها بياتريكس» *Oryx Beatrix* على

(1) انظر كتابه: «ارتياح جزيرة العرب» في سلسلتنا هذه «رؤاد المشرق العربي».

(2) كتب المؤلف: كان جون شيفرد John Shepherd رائداً في الحامية الهندية قبل أن يصبح مديراً لشركة الهند الشرقية. شغل منصب المدير بين عامي 1835 إلى 1858، ورئيس مجلس إدارة في 1844-1855 و1850-1852 وأصبح عضواً في مجلس الهند (أمين مجلس الدول) من سبتمبر عام 1858 إلى وفاته في يناير 1859. ودونما شك كان إرسال المَهْأة إليه من قبل بعض ممثلي الشركة في بومباي كحيوان نادر وجميل، وهدية مناسبة لمدير عظيم.

اسم صاحبة السمو الملكي الأميرة بياتريس Beatrice. وقام جوزيف وولف Joseph Wolf برسم لوحة ملونة ممتازة له. وهكذا تم وصف المَهْاة العربية بدقة، على الرغم من معرفة علماء الحيوان له وتسميته قبل وقت طويل. في الواقع كان بيتر سيمون بالاس⁽¹⁾ Peter Simon Pallas قد سجّل ما وصفه بـ "singulare cornu Gazella indicæ" في عام 1769، وكان ذلك باعتقادي المَهْاة العربية.

لقد ميّز عالم الطبيعة البارز هذا في عام 1777 ثلاثة من أربعة أصناف معروفة من المَهْاة، وهي: ظبي المَهْاة، وهو الظبي الجنوبي أفريقي Gemsbuck، الوعل وهو Antelope gazelle، والغزال وهو Algazel قاتم اللون في السودان، وظبي لوكوريكس leucoryx وهو المَهْاة العربية بيضاء اللون.

وقام بينانت Pennant في عام 1781 برسم صورة المَهْاة العربية في ملخصه المسمّى Quardrups ناسخاً إياها من صور وجدّها في المتحف البريطاني. هذه الصورة وهي الآن في مجموعة سلون Sloane Collection ذات أهمية كونها قد رُسمت لحيوانات حيّة أسيرة في حديقة المتع الخاصة بالشاه سلطان حسين بالقرب من أصفهان. وعلى الرغم من وجود هذا الصّنف الآن في المجموعة الوطنية، فإنّ بيئتها الأصلية ما زالت لغزاً. وكان بالاس Pallas قد اعتبرها من جزيرة العرب أصلاً وأحياناً من ليبيا، بينما أرجعها بينانت Pennant إلى جزيرة البحرين في الخليج العربي، ويُعتقد أنها كانت تجول بين بلاد فارس والهند (إلى أيّ مكان تم أسر تلك الحيوانات فيه).

حتى في وصف غراي Gray الأصلي في كتابه «إجراءات إدارة حديقة الحيوان في لندن» (الجزء الخامس والعشرون عام 1857 الصفحة 8-157) ورد أن الموثل الأصلي هو بومباي، ولكن ربما كانت قد جُلبت من شواطئ البحر الأحمر، فلعلّ شواطئ البحر الأحمر كانت هي منشأ تلك الحيوانات الأسيرة، وبذلك يكون ميناء

(1) بيتر سيمون بالاس (1741-1811) عالم طبيعيات وجغرافي ألماني شهير عمل في روسيا، ويعود إليه الفضل في تصنيف العديد من فصائل الحيوان والنبات، وكثير منها يحمل اسمه حتى اليوم.

جدة ربما هو مرفأ شحنها، غير أنني أعتقد أن ميناء عُمان أو الخليج العربي كان ميناء مغادرتها، وأرى في «كاتالوغ الثدييات ذوات الحافر في المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي)» بأن «الخليج العربي كان قد استبدل بالبحر الأحمر». اجتلي سرّ موئله بعد بضع سنوات، فقد وصلت عيّنة حيّة أخرى إلى إدارة حديقة الحيوان في عام 1872، وقد كان الناجي الوحيد من الحيوانات التي تم جلبها بناءً على طلب من عالم الحيوان الذائع الصيت ج. غوين جيفريز J. Gwyn Jeffreys, F.R.S., F.Z.C، من قبل الكولونيل پيلي Pelly المقيم البريطاني في بوشهر على ساحل الخليج العربي.

وقد قال البروفيسور نيوتون Professor Newton في اجتماع للإدارة في السّابع من مايو عن «جلب هذا الحيوان» أنه ذو أهمية علمية كبيرة جداً، لأنه يؤكد الأجناس التي صنفها الدكتور غراي Dr. Gray بدراسة قام بها على ظبي كان يعيش في حدائق الإدارة، وكذلك يشير في تلك الدّراسة إلى موطن هذا الظبي بعد أن كان موضع شك من قبل. يبدو أن مثالنا الحالي يتوافق بكل تفاصيله مع وصف السيد وولف Mr. Wolf للعينة السّابقة وكذلك في جميع الفروق التي كان قد أشار إليها الدكتور غراي Dr. Gray في وصفه: «أنا لا أجمع المعلومات الخاصة بموطنها الحقيقي»، فقد كان يعتقد أن موطن المّهاة العربية، إن لم تكن كما يعتقد الآن من بوشهر، بطبيعة الحال قريبة من بومباي.

ليس هناك من شك في موطن مّهاة پيلي Pelly. وكان قد تم بالفعل منح پيلي أنثى مّهاة تم أسرها وتقديمها إليه من قبل إمام مسقط، وبدوره أرسل بها الحدائق النباتية في بونا عام 1864. أثار ذلك الأمر الحماسة لدى الرّائد سنت جون الذي كان يرافق پيلي في مسقط، والذي في نهاية المطاف أرسل مذكرة، عن المكان الذي تتواجد فيها المّهاة العربية، إلى تسجيلات إدارة حديقة الحيوان في عام 1874. وأخبرنا أن المّهاة الأسيرة التي أرسلت إلى پيلي Pelly كان قد تم جلبها من الجانب الآخر للجبال العالية إلى الجنوب من مسقط، التي لا يمكن الوصول إليها على ظهر الهجن ركوباً في أسبوع. كما أنها، على ما أعتقد، لم تذكر من قبل أيّ من الرّحّالين إلى وسط جزيرة

العرب، وتنحصر على الأرجح في مرتفعات جنوب شرق جزيرة العرب الخصبة، وهي المنطقة الأغنى والأقل شهرة في ذلك المكان.

قام سنت جون بزيارة الخليج العربي من جديد عام 1869 وتوسّل إلى پيلي Pelly الذي كان في بوشهر آنذاك، للحصول على مزيد من العينات من مسقط. استطاع في العام التالي الحصول على زوج من المَهَاة، التي كان ذكرّها ذو القرون غير الكاملة قد قُتل بطريق الخطأ، وأرسلت الأنثى إلى إنكلترا.

ومن الغريب أن تجد أن پيلي Pelly، الذي كان في وسط جزيرة العرب، تعيّن عليه أن يذهب إلى مسقط من أجل ظبیه الأسير. لا يمكنني الجزم فيما إذا كان ذلك نابعاً من الطّاقة أو حسّ المبادرة لدى البريطانيين المقيمين أو بسبب كثرة المَهَاة، لا أستطيع القول، وقد قامت عُمان بتزويدنا بزوجين آخرين من إناث المَهَاة تم جلبهما من وراء الصّحراء الكبرى خلف المنطقة الجبلية في عُمان من قبل الكولونيل س. ب مايلز Lieut. Col. S. B. Miles - القنصل البريطاني في مسقط، وتم تقديمها إلى إدارة حديقة الحيوان من قبل اللورد ليلفورد Lord Lilford في عام 1881.

كما تم استلام نموذج ثالث من قبل الإدارة في يوليو 1878 من قبل القائد بُرك Commander Burke من «أركوت - Arcot» الذي كان قد حصل عليه في جدّة من صديق له، وهو بدوره كان تلقاه كهدية من شريف مكّة. وقيل إنّ ذلك الظبي تمّ أسره أصلاً بالقرب من منطقة الطّائف، ولكن لم نأخذ ذلك على محمل الجدّ، لمعرفتنا بعدم وجود المَهَاة في أي مكان بالقرب من تلك المدينة المرتفعة.

بين عامي 1857 و1878 عندما وصلت تلك العينات إلى العالم العلمي، كان هناك بندان آخران مثيران للاهتمام. أولهما، بالغريف Palgrave، الذي لا يحتاج صيته كرحالة عربي وقدرته على سبك رواياته إلى الكثير من التعليق، وكان قد وصل إلى زلفي Zilfi عام 1862. وقد دوّن هنا كيف «استطاعت عصبة من قبيلة الصّلبّة (Suluba) خفض خيامهم قليلاً، بعد أن أتوا للتو من رحلة صيد في مكان ما في الشّمال لبيع طرائدهم».

«أرسل محافظ زلفي Zilfi بعضاً من رجاله إلى الصَّلْبَة وابتاع منهم غزالاً جميلاً... وأكد الصَّلْبَة انتماء ذلك الغزال إلى صنف غريب من الأجناس التي لا تشرب الماء أبداً، والتي تمتاز بلحم زكيّ النكهة». شكك بالغريّف بصحة تلك الرواية، ولكن تبين لاحقاً صدق مقالة الصَّلْبَة، فلم يكن غزال بالغريّف سوى مَهَاة لا تشرب الماء أبداً، وقد «فاقت جودة لحم ذلك الطيبي بقية لحوم الطباء⁽¹⁾». كان اهتمام بالغريّف Palgrave الكبير ينصب على المكان الذي وجدت فيه تلك المَهَاة. وزلفي Zilfi هي واحة كبيرة تقع على حدود القصيم Qasim وسُدير Sudair شمال شرقي نجد على الطريق الشرقي بين بريدة والرياض.

ربما أتى الصَّلْبَة Suluba مسلحين بآلة القتل من ذلك البعد، ولا يمكن أي يأتوا من مكان أبعد من ذلك الحزام الرّملي المسمى الدّهناء والذي يصل بين شمال النفود والجزء الجنوبي من الصحراء، والذي يحيط بزلفي من الجهة الشمالية والشرقية لمسافة تصل إلى خمسين ميلاً تقريباً. ليس هناك من سبب يحول دون وجود المَهَاة بوفرة في تلك الأيام في الدّهناء Dahana، ما لم تكن القفار ليست كبيرة جداً أو ليست عميقة جداً بحيث توفر للمَهَاة الحماية التي تؤمنها لها النفود الكبرى أو الربع الخالي، وبالتالي من منطقة سهل طردها منها⁽²⁾.

كان ذلك هو الذكر الوحيد للمَهَاة القادمة من منطقة بعيدة من منطقتين صحراويتين عظيمتين مع وجود استثنائين اثنين.

(1) كتب المؤلف: ومع ذلك سيقول البعض إن القصة بأكملها، بما في ذلك الحيوانات التي لا تشرب الماء، والصيادون الصَّلْبَة وحتى زلفي بحد ذاتها ليست سوى نتاج مخيلة وقريحة خصبة لبالغريّف.

(2) كتب المؤلف: جسدت الحكومة مؤخراً تلك النظرية. فقد أخبر فيلبي الصياد الصَّلْبَة التابع له، بأنه خلال عبوره للدّهناء على درب آخذ من زلفي إلى الكويت، كانت تلك الحيوانات متوفرة من زمن طويل (المَهَاة والنعام) وبكثرة في تلك القفار الرملية، ولكن مع قدوم العرب تشتت المَهَا والنعام فأخذت بالهجرة شمالاً وجنوباً حيث يتم إيجادها الآن في القفار الرملية العظمى. ولقد ترافق تنامي الحركة المرورية على طول ذلك الطريق منذ أن أصبحت الكويت ميناءً مع قدوم العرب إلى المكان.

لقد ذهب الكولونيل هاميلتون Col. R. E. A Hamilton الذي كان يشغل آنذاك منصب الممثل السياسي في الكويت إلى العاصمة الوهابية⁽¹⁾ عام 1917، ومن هناك توجه عبر زلفي وبُريدة. ويروي لي أنه سمع عن المَهَاة عند عبوره الدَّهْناء Dahana في رحلته تلك، في حين تم إرسال الكولونيل ف. كَنَلِف - أوين - Col. F. Cunliffe Owen العضو في البعثة البريطانية إلى الرِّياض في وقت لاحق من ذلك العام، وقد ذهب عن طريق الهفوف Hufuf، ويقول إنه رأى وطارد المَهَاة على الحافة الغربية لحزام الدَّهْناء الرَّملي نفسه. وثانياً غوارماني Guarmani وهو أول أوروبي يزور قبلي المنطقة التي في نهاية المطاف اصطدَّت فيها المَهَاة، يقدم على جزيرة العرب.

كارلو غوارماني Carlo Guarmani الإيطالي، بوصفه الوكيل القنصلي لملك بروسيا في القدس، تم تكليفه بالقيام بالبعثة الاستكشافية لنجد عام 1864. والهدف من هذه الرحلة قد يكون سببه سياسياً وقد لا يكون كذلك، ولكن إن كان هدف البعثة سياسياً فإنه بالتالي يُظهر كيف تقوم أوروبا بحبك الدَّسائس الدَّولية في المنطقة المفضلة لديها وهي جزيرة العرب. تُبيِّن قصص زيتسن Seetzen، وبالغريف Palgrave وغوارماني Guarmani تلك الدَّوافع الخفيّة، وإنه من الواضح أن الاثنين الآخرين كانا في تحالف وثيق بينهما. على أيّ حال، قام غوارماني Guarmani بخدمة هدفنا في بحثنا عن المَهَاة. كان قد سلك طريقاً جديداً إلى جزيرة العرب، وهذا الطريق لم يكن له عندنا أيّ ذكر سابق، ولم يُطَرَق بعد ذلك مرة أخرى إلا بعد 45 سنة عندما صادف أن وجدته الطّريق الأكثر مباشرة للوصول إلى النفود الغربي.

انطلق غوارماني⁽²⁾ Guarmani من القدس والتحق بيدو بني صخر، ومن ثم

(1) كان جميع كتّاب الغرب ورخّاليهم يكتبون هذه العبارة: الوهابيّة، وهي تعبير مغلوّط، صوابه: دعوة الإصلاح السِّلَفي، واسم الدَّولة آنذاك: الدَّولة السَّعوديّة، على اختلاف مراحلها وأدوارها التاريخيّة.

(2) كنت في عام 2009 قد ترجمت كتاب رحلته: *Il Neged Settentrionale* «نجد الشمالي» عن طبعتها الأولى الصّادرة في المجلة الجغرافيّة بباريس، لكنني بعد مراسلة جامعة جنوا في إيطاليا حصلت على الطبعة الكاملة الصّادرة في القدس عام 1866، بالإضافة إلى صورتين للرّحالة،

شق طريقه بالاتجاه الجنوب شرقي في طريق معروفة بأنها مختصرة على الرغم من خطورتها إلى تيماء، تلك الواحة القديمة التي تقع قبالة الزاوية الجنوبية الغربية من النفود. كما زار وسجّل للمرة الأولى جبل طُبيق بوصفه ديرة الشّارات *dira of the Shararat*، الذين كانوا «صيادين مشهورين للنعّام والغزلان والحيوانات البرية».

تابع غوارماني Guarmani طريقه إلى تيماء وإلى شمالي نجد، وعلى الرغم من عودته إلى موطنه عبر الرّمال الهائلة، فإنه لم يُقدّم أيّة إشارة أخرى إلى المهّاة. كان تريسترام Tristram يجمع بياناته بين عامي 1858 و 1872 عن «التاريخ الطبيعي لفلسطين الغربية». وعلى الرغم من اقتصار عمله الرئيسي على فلسطين ذاتها، فقد أعطانا قدراً كبيراً من المعلومات غير المقنعة عن الحياة البرية الحيوانية في المنطقة الحدودية الصّحراوية. فقد قال على سبيل المثال، إنه لم ير ظبي اليعمور Hubal Hartebeest في فلسطين.. ولكنه بالتأكيد كان موجوداً في منطقة الحدود الشرقية لجلعاد ومؤاب Gilead and Moab، كما هو معروف جيداً بالنسبة للعرب، الذين أكدوا لي انها تأتي في بعض الأحيان لشرب المياه من رؤوس الجداول التي تصبّ في البحر الميت، حيث ليس من النادر أسرها.

عادة ما تجوس خلال أراضي جزيرة العرب وشمال أفريقيا، حيث أخبرنا في بداية القرن الماضي الدكتور شو Dr. Shaw بأن مشاهدتها أمر مألوف. إنه بقر الوحش العربي.

لا يوجد دليل واحد عن وجود Bubal Hartebeest بأي وقت مضى خارج أفريقيا⁽¹⁾، وقد انقرضت الآن من ملاذها الأخير في المناطق النائية من المغرب. وعن

وفي هذه الطبعة زيادات جمّة أضافها المؤلف بعد صدور الطبعة الأولى، لذا سيكون من حق القراء الكرام علينا أن نبادر إلى نشر هذه الطبعة ضمن سلسلتنا، التي نحرص دوماً على إبقائها بأرفع مستوى.

(1) كتب المؤلف: ثمة زوج من القرون، قيل إن تريسترام جلبها من جزيرة العرب إلى سوريا، ولكن ليس ذلك بالدليل الكافي للأخذ به. ليس هناك من سجل من قبل أي رحالة، بأي تاريخ، في سوريا أو في جزيرة العرب لذلك الجنس الذي لا لبس فيه على الإطلاق.

المهارة يقول تريسترام Tristram: «إنها مألوفة في شمال جزيرة العرب كما أنها وجدت في البلقاء Belka وهوران Hauran. لقد كنت قريباً منها بما يكفي لأميئزها من قرونها الطويلة. إنها تعيش في كُردُفان Kordofan، وسنار Senaar، وصعيد مصر وجزيرة العرب، ووفقاً لبعض السلطات تمتدّ إلى بلاد فارس».

ومن المشكوك جداً فيه أن تكون وصلت إلى البلقاء وهوران وكلاهما مناطق ذات كثافة سكانية كبيرة نسبياً، وبما أن تريسترام لم يذهب إلى الشرق من المشتى Mashatta فلا بدّ أنه أخطأ في تلك القرون الطويلة التي اعتقد أنه رآها. وينبغي أن يكون على علم أيضاً أن المهارة في كُردُفان Kordofan، وسنار Senaar وصعيد مصر كانت حيواناً مختلفاً جداً، ذا قرن كالسيف وأكبر حجماً بكثير من الظبي العربي. حتى الآن المعلومة الوحيدة الأصلية والموثوقة التي قدمها تريسترام كانت الوصف الذي أوجاه للمنطقة الصحراوية شرقي «أرض مؤاب» في كتابه الذي حمل هذا العنوان "Land of Moab". أخبره أحد أبناء بني صخر أنه على بعد مسيرة «ثلاثة أيام عبر أراض من الحجر الجيري الأبيض، هناك منطقة من البازلت الأسود، أرض الحجارة السوداء... إنها أرض تقع في الوسط بين الجنوب من غنزة وبني صخر، ولم تكن الأخيرة قادرة على عبور تلك المنطقة حينما تكون الأولى هناك. بالإضافة إلى هاتين القبيلتين، كانت هناك عصابات مؤلفة من رجال في غاية الشر، وتلك العصابات كانت دائمة التواجد في تلك المنطقة، وتعيش على سرقة الجمال كلما حانت لهم الفرصة للقيام بذلك. والقبيلتان كلاتهما كانتا تعتبران تلك العصابات خارجة عن القانون... وإلى الخلف من تلك المنطقة ذات الحجارة السوداء، شرقاً، وعلى بُعد مسيرة يومين أو أكثر في أراض من التلال البيضاء وإلى الخلف من المراعي الجيدة للإبل، تبدأ الصحراء الخالية من أي شيء عدا الظباء والأيائل». تلكم لعدري صورة دقيقة لقفار الشرارات.

* * *

أمّا المعلومة الثانية فقد أتتنا من قبل أفضل مراقب سبق أن دخل أراضي جزيرة العرب، ألا وهو داوتي Doughty. قيل إن كنت تسعى للحصول على أية معلومة عن

جزيرة العرب فستجدها في مكان ما في كتابه *Arabia Deserta* «صحارى شمالي جزيرة العرب». وتنطبق هذه المعلومة حتى في حالة المَهْهَة، على الرّغم من أن داوتي لم يكن في يوم من الأيام عالم طبيعة، غير أنه رسم أفضل صورة للمَهْهَة في حالتها البرية، ولم يستطع أحد أن يرسم صورة للمَهْهَة أفضل من تلك التي رسمها داوتي على الإطلاق. لم يكن لأحد كان قد رأى المَهْهَة في حالتها البرية أو في الأسر ليصفها بشكل أفضل من قوله: «قرونها كالعصيّ في استقامتها وحِدَّتْها، يبلغ طولها على ما أعتقد حوالي السّبعة وعشرين إنشاً. رأيتها على بُعد لا يتجاوز الخمسة ياردات، وهي أصغر من الحمار، جلدها رمادي ضارب إلى صُفرة فاقعة، مع ارتفاع بسيط إلى جانب قاعدة عنقها، ليس لها سنام، وذيلها الطّويل النّاعم ينتهي بمجموعة شعر. وهي أقرب ما تكون شبهاً ببقرة صغيرة، مخلوق رائع القوام بما يتناسب مع هذه القفار القاحلة بتلك القوائم النّارية الرّشيقة».

تلك كانت رؤيته لذلك المخلوق الأسير الذي كان في حديقة قصر الأمير في حائل عام 1877. ولكن داوتي كان قد اكتشف المَهْهَة قبل ذلك ببضع سنوات، عندما كان في معان عام 1875، وبينما كان في رحلته الأولى عبر سيناء وفلسطين رأى جلوداً تمّ جلبها من الشّرارات، وتحدّث عن حيوان أسير آخر نشأ في حامية محطة الحج على طريق الحجّاج إلى الجنوب من معان، وقد اشتراه بعشرة جنيّات. وتم نقله في النّهاية على محفّة يجرّها بغل لتصل إلى دمشق ومن ثم إلى القسطنطينية كهدية من رئيس بعثة الحجّ إلى السّلطان عبد العزيز، ومنذ ذلك الحين ومنذ أيام دي فارتيمّا Varthema يُنظر إلى المَهْهَة كهدية ملكية.

حرّك ذلك المخلوق الغريب والجميل مخيّلة داوتي وسرعة بديهته، فما كان منه عندما عاد من جزيرة العرب سوى أن أحضر معه تذكّاراً عرضّه أمام الجمعية الملكية الجغرافية في محاضرته بتاريخ 26 نوفمبر 1883 ولم يكن ذلك التذكّار سوى قرن من قرون المَهْهَة!



هدية ملكية

كما قدّم لنا داوتي آنذاك وصفاً آخر للمهارة في حاشية رسالة خاصة كتبها من مدائن صالح إلى مجهول في فبراير عام 1877:

«ومن بين هذه الحيوانات في (مدائن صالح) وأبرزها على الإطلاق، والذي أعتقد أنه غير مألوف عند الأوروبيين، بقر الوحش صاحب تلك القرون التي رأيتها مستقيمة كالقضيب وحادة الرأس وتزداد نمواً مع التقدم في العمر لتصبح جد طويلة ومتوازية. رأيتُ جلودها البيضاء في معان حيث يصنعون منها أفضل النعال لصنادلهم. لدى هذا الحيوان فم غزال وحافر بكرة وكذلك ذيلها إلا أن أرجلها أقصر من سيقان البقر وكذلك وصفها صياد عربي. إنها أكبر من الحمار، وربما هي أحد أصناف الغزلان أو البقر أو كتلك الموجودة في حدائق الحيوانات في أفريقيا».

يتحدث عن المَهَاة ذلك المخلوق غير المعروف حتى الآن في أوروبا، ومرة أخرى يصفه بأنه «حيوان غير معروف لدى علماء الطبيعة الأوروبيين قبل سفره كأحد قاطني جزيرة العرب». وبذلك ارتكب خطأً. فقد عُرف قبل ذلك بعشرين عاماً، تحت اسم مهَاة بياتريكس *Oryx beatrix*، الاسم الذي يعرفونه جيداً فهم من أسماء بياتريكس، على الرغم من أنه كان معروفاً قبل ذلك باسم الظبي الأبيض *leucoryx*.

قدّم داوتي لنا إشارة وفكرة عن موطن المَهَاة في الشمال الغربي للجزيرة العربية، فما إن اقتربت قافلة الحج التي ارتبط بها من حدود الحجاز عند منزلة «ذات الحج» Dhat al Hajj، يقول: «غرباً، رأينا سلسلة جبال حسمى، وإلى الشرق هضاب الشّارات المألوفة. وهناك وجد «بقر الوحش» وهو مخلوق غير معروف حتى الآن في أوروبا، وهو نوع من الظباء Antelope، وهي تجوب الأرض على شكل جماعات إثنين أو ثلاثاً معاً، وتجري بسرعة كبيرة تطوف السّهول الرّملية القاحلة ولا تقرب الماء». ومعلوماته تلك كانت دقيقة، ففوق هضاب الشّارات تلك وفي منطقة فجر رأيتُ أول مَهَاة، وأبعد من ذاك بقليل استطعت قتل أول ظبي منها.

وبوجود تلك الإمكانيات الهائلة للحصول على معلومات دقيقة مذهلة من مصادر أصلية، قام داوتي بتدوين مذكراته عن المَهَاة في الجانب الجنوبي من صحراء الربع الخالي، وإنّ بعض البدو القحطانيين، الذين ابتعدوا عن ديرتهم الصّحراوية الحدودية النائية في شمال غرب اليَمَن، والذين كان يجوبون المناطق التي تسيطر عليها قبائل شمر، أخبروا داوتي أن «الثيران البرية في منطقتهم تدعى وضيحي wothyhi».

ما يزيد من دهشتنا، أن داوتي، على الرغم من كل ما أخبرنا به عن الأبقار الوحشية، وعلى الرغم من تجواله طويل الأمد في قفار الصّحراء، فإنّه لم يرو أنه التقى بالمَهَاة أبداً في حالتها البرية. ذلك أمر مفهوم، إذ أن داوتي لم يكن أبداً رجلاً حراً في ترحاله كما يحلو له، فقد كان دائم التحرك بصحبة المضارب العربيّة ولم يكن يسافر بمفرده أبداً. وعلاوة على ذلك، لم يدخل داوتي موطن المَهَاة الحقيقي قط، بل اقترب من موطنها في تيماء، ولو صادف أنّه كان يجوب الأرض إلى شمال تلك الواحة مع

الشَّرارات Shararat، بدلاً من التوجه شرقاً مع قبائل ضنا بشر البدوية، لكان بغير شك سيلتقي بها.

قضى داوتي في جزيرة العرب اثنين وعشرين شهراً من نوفمبر 1876 إلى أغسطس 1878، قضاهما داوتي في مغامرته منفرداً كما لم يفعل أحد من قبل. إن لم يستطع داوتي، في أسفاره الطويلة تلك، أن يرى المَهَاة البرية، فإن دَلَّ ذلك على شيء فإنما يدلُّ على ضيق المنطقة المتواجدة فيها ويدلُّ كذلك على صعوبة الدنو منها⁽¹⁾.



أتى عام 1879 بحملتي حج إضافيتين لزيارة نجد في عُقر دارها، لقد جمع الزوجان بلنت⁽²⁾ The Blunts بين رومانسية السفر عبر رمال الصحراء والعزم على القيام بزيارة ودية إلى حاكم جبل شَمَر. كانت هذه البعثة مختلفة تماماً عن الرحلات الصعبة التي سبقتها، فقد جاء الزوجان بلنت The Blunts ترافقهما حاشية كبيرة تناسب الموقف، وقد ركبا أفضل الأفراس العربية وجلبا معهما صقورهما وكلاب صيدهما. لقد ارتحلا على تلك الهيئة ونزلا بحائل، وقدما احترامهما لحاكم جبل شَمَر وتابعاً مسيرهما نحو العراق.

عبرا النفود في رحلتهم تلك سالكين طريقها المعتاد، وليس هناك سوى طريق واحد، وأشارا إلى المَهَاة في طريقهما ذاك. ففي الجوف تناولوا «شرائح فيليه من لحم البقر الوحشي (وربما كانت ظبياً) من النفود، بعد أن تم شيه في الرماد، فكان أحد أفضل اللحوم مذاقاً بالنسبة لي».

(1) كتب المؤلف: ركب شيكسبير عام 1914 وجاب منطقة تواجد المَهَاة بطولها وعرضها غير أنه لم يحظ برؤية واحدة منها، على الرغم من إشارته إلى رؤية آثارها في الجانب الشرقي من هضاب طَبِيق.

(2) يقصد المؤلف رحلة الليدي آن بلنت وزوجها ولفريد إلى حائل عام 1878-1879، وهي رحلتهم الثانية في الشرق، من بعد الرحلة الأولى بين عشائر بدو الفرات. ولقد قمت بتعريب الرحلتين كليهما، وهما قيد النشر في سلسلتنا هذه.

وشاهدا في النفود «آثارها، على بُعد مئة ميل من أيّ عين ماء، ولذلك تجد أن العرب محقّين في تأكيدهم أن المَهاة لا تشرب الماء»، ولكن مرشدهما أخطأ عندما أخبرهما بأن المَهاة لا تبارح أرض النفود. وبينما هما في حائل رأيا الحيوانات المعتادة أسيرة في حديقة قصر الأمير، وقد قامت السيدة آن بلنت Lady Anne Blunt بوصفها بقولها:

«والأكثر إثارة للاهتمام من بين جميع الحيوانات في الحديقة كانت ثلاثاً من الأبقار البرّية (بقر الوحش) تم جلبها من النفود وكنا كثيراً نودّ أن نراها. لقد برهنت تلك الأبقار، كما كنا نعتقد، على أنها أحد أنواع الظباء على الرّغم من شبهها الشّديد بالبقر لدرجة أنها قد اشتقت اسمها منه. يبلغ ارتفاع ذاك الطّبي ارتفاع عجل ذي ستة أشهر من العمر، وله حذبة بين أكتافه كالماشية الهندية، لونه أبيض يميل إلى الصّفرة مع ساقين حمراوين تميلان إلى السّواد اقتراباً نحو الحافرين. أما الوجه فهو شبه ملوّن، وقرونها سوداء كالرّمح في استقامتها مع ميلان خفيف إلى الخلف وبطول يصل إلى الثلاثة أقدام، وقد رُسّمت عليه حلقات لولبية الشّكل. كانت هذه الأبقار البرّية أكثر شراسة وأقلّ ترويضاً من بقيّة الحيوانات لذا كان العبيد يخافونها، إذ يبدو أن تلك الأبقار كانت على استعداد تام لاستعمال قرونها الحادة كالإبر».



كانت الأعوام 1879-1884 علامة بارزة في استكشاف جزيرة العرب، فقد وطّئت آنذاك أقدام أحد أكثر العقول علماً وقدرة ليلقى هناك حتفه قتلاً لسوء الحظ قبل أن ينهي أعماله، ولكنه كان محظوظاً بما يكفي لإكمال خمس سنوات من الأعمال القيّمة ذات الطّبيعة الأكثر تفصيلاً، ليس هناك من يوم واحد لا نعود فيه إلى أعمال شارل أوبير⁽¹⁾ (هوبّر) Charles Huber بدءاً من دمشق في خريف عام 1879 حيث غطى

(1) بما أن هذا الرّحالة فرنسي فهكذا لفظ اسمه بالفرنسيّة: شارل أوبير، ولكن على اعتباره من منطقة الألزاس المتاخمة لألمانيا وكون أهاليها يتحدثون الألمانيّة، فيمكن لهم لفظ اسمه: كارل هوبّر، مع عدم نطق الراء بوضوح، بل تلفظ: هوب. ولذا فقد كتبت الاسم معاً على امتداد صفحات هذا الكتاب. هذا وسنقوم بترجمة كتاب أوبير لسلسلتنا.

مساحة هائلة لا تقل عن أربعة آلاف ميل في يناير 1882. ووقعت كل من النفود، جبل شَمَر، وتيماء، وخيبر وبريدة ضمن نطاق بحثه. كما أنه عاد مرة أخرى عام 1883 وبدأ مسحاً جديداً شمل ما يقارب ثلاثة آلاف ميل من المساحات غير المعروفة وغير الممسوحة من قبل.

تابع ارتحاله دون انقطاع من دمشق إلى جدّة عن طريق حائل وبريدة مع القيام برحلات إلى تيماء وتَبوك. وخلال رحلة عودته من جدّة إلى حائل (لجلب حجر تيماء الثمين) تم اغتياله. لحسن الحظ تمّ جمع جميع آثاره وملاحظاته وتم إيصالها في نهاية المطاف إلى فرنسا، حيث تصدر فيها الآن نشرة تعدّ أعجوبةً في فنّ الملاحظة والمسح الدقيق، ومنها يمكننا استخلاص معلومات قيمة وكثيرة عن المَهَاة.

ورغم عدم وجود ملاحظات مباشرة، فإن أوبير (هوبَر) استطاع تدوين كل أسماء البقر الوحش بكل دقة، مع ذكر تفاصيل موئلها. وعن ذلك أخبرنا أوبير (هوبَر): «أنها تجول في الأجزاء غير المطروقة من النفود، حيث لا يوجد هناك أثر للعرب أو الجمال بوجه الإطلاق. في بعض الأحيان تغادر المَهَاة أرض النفود وربما تذهب بعيداً، ولكن دائماً نحو الغرب والشّمال الغربي». ومرة أخرى يذكر: «نجد موئلها يقع بين جبل طُبَيْق في الغرب واثنين من قمم Atash في الشّرق، وبين جبل الطّويل Jabal Tawil في الشّمال وجبل أجا Jabal Auga في الجنوب»، وبعبارة أخرى، في النّصف الغربي من النفود الكبرى وفي المنطقة الواقعة إلى الشّمال الغربي منها.

تمّ جمع هذه المعلومات من تقرير مصدره من السّكان الأصليين، وهو مذهل في دقته. تضمّ المنطقة المذكورة ضمن حدودها أصول المَهَاة الباقية في شمال غربي جزيرة العرب. ذكر أوبير (هوبَر) من عاداتها أن الأبقار تحمل صغارها أحد عشر شهراً وتضع صغارها دوماً في الشّتاء، وأنها قادرة على مهاجمة الإنسان مستخدمة قرونها، وأن جلودها سميكة لا يكاد الرّصاص في كثير من الأحيان يقوى على اختراقها، ومع ذلك تمتاز لحومها بالجودة.

على الرّغم من تدوين أوبير (هوبَر) رؤيته لآثار المَهَاة خلال عبوره الأول للنفود

في يونيو 1880، فلم يكن هناك سوى مرجع واحد بعد وفاة أوبير (هوبَر) هي «المجلة» التي توحى أنه في الواقع كان قد شاهد الأبقار الوحشية. خلال فترة أقامته الطويلة في حائل، حشد أوبير (هوبَر) مجموعة من الفوائد الجغرافية والعلمية معاً. فقد أعطى على سبيل المثال لوائح دوّن فيها معلومات عن الحياة الحيوانية والحياة النباتية وطبوغرافية النفود. وفي معرض حديثه عن البقر الوحشي يقول: «إنها تجوب المنطقة الواقعة إلى الغرب والشمال الغربي من النفود، وقد شاهدتها بعيداً في درب الحج Darb al Haj». اصطحب أوبير (هوبَر) رفيقاً له في هذه الرحلة عام 1884 واسمه أويتنغ Euting، ولكن أويتنغ لم يُورد أي ذكر لمشاهدته المَهَاة.

بيد أنه سجّل في مذكراته بأنه في الخامس من مارس وبينما هو في منتصف الطريق بين درب الحج Darb al Hajj وتيماء «شاهدنا آثار حوافر غزال أبيض ضخمة (مَهَاة بيزا Beisa)». وليس هناك من لائحة بأسماء من أعاننا في بحثنا عن المَهَاة - نولده Nolde الذي يمكننا وصف مغامرته التي قام بها عام 1893 بالوضوح والبساطة، لأنها لم تتصف بالرومانسية والدبلوماسية ولا بادعاء الغاية العلمية. ومع ذلك صادف أن يكون نولده Nolde الرحالة الوحيد الذي قدّم لنا نظرة ثاقبة إلى الشؤون الداخلية للجزيرة العربية بعد فترة طويلة من الصّمت، فقد صادف أنّه كان هناك في لحظة حاسمة من الصراع بين حائل والرياض للسيطرة على المنطقة.

لا ريب أن نولده⁽¹⁾ Nolde شخصية غريبة الطابع، فقد واجه رجال نجد المتزمتين مرتدياً زيه الرّسمي ومعتماً خوذة بيضاء ومتكباً سيفه المذهب. كان يدخن ويشرب الخمر، ولكن بفضل حاشيته وفرسه الذي يسابق الرّيح نجح في عبور جبل شمرّ للحاق بالأمير الغائب محمّد في معسكر حربه قبل بريدة. التف نولده حول النفود عبر طريق قلّ من يعرفه، ماراً بالجوف إلى الحَيَّانِيَّة Haiyaniya متبعاً الحافة الشماليّة للصحراء،

(1) لا يُلفظ اسمه هكذا بالألمانيّة، بل: فون نولده، وعنوان كتابه بالألمانيّة:

Eduard Baron von Nolde: *Reise nach Innerarabien, Kurdistan und Armenien*
1892, Braunschweig 1885.

التي عرفناها في وقت لاحق بالتفصيل من خلال رحلة شيكسبير عام 1914.

يقول: «بالطبع لا تمتاز هذه القفار بغنى الحياة الحيوانية فيها، حتى أن وجود عدد قليل من الحيوانات التي تقيتُها، يبدو مدهشاً. كل ما وقعت عيني عليه كان ضباعاً ووعولاً وغزلاناً، بالإضافة إلى قلة من الأرانب البرية، وأخيراً صنفاً من الثعلب الرمادي، ومن غير المفهوم كيف يمكن لهذه الحيوانات أن تعيش هكذا دون ماء». وعندما يقوم أحد الرّحالة بذكر الوعول أعتقد أنه يقصد المَهاة لعدم وجود ظبي آخر. غير أن الغزال كان يسمّى في بعض الأحيان خطأً بالظبي. تبدو إفادة نولده Nolde تحمل شيئاً من الصّحة، وإذا كان الأمر كذلك فهو الذّكر الوحيد للمهاة على الجانب الشمالي من النفود.

* * *

في الجنوب، تقلّ مصادر معلوماتنا. في عام 1886 وصل مايلز Miles إلى حدود الصّحراء الجنوبية الكبرى إلى الخلف من عُمان، والتي كان ويلستد Wellsted أول من رآها وآخرهم أيضاً، إلى أن جاء كوكس Cox في وقت لاحق بعد ثلاثة عشر عاماً. هذه القفار الواسعة الواقعة إلى شرق الحدود التي نقف عليها الآن، وتمتد بعيداً إلى الغرب لحوالي 700 ميلاً لتُشكّل أكبر مساحة من القفار الرّملية وأكثرها لؤماً وشحاً في القارّة الآسيوية.

وعموماً، فهي تخلو من من الأنهار والأشجار، والجبال والسّكان. قفار غير مستكشفة وغير قابلة للاستكشاف، قاحلة بلا معالم، لا ظلّ ولا ظليل، تعصف بها الرّياح ويجول فيها صمت كئيب ورتابة ممّلة، لا نظير لها ربما في العالم أجمع.

أفضل ما وصفت به أنها تغطي عشرة أضعاف مساحة إنكلترا وويلز معاً. ولا يتجاوز عدد الحيوانات التي يمكن العثور عليها في هذه الأصقاع من الصّحراء حيث يتوفّر الغطاء النباتي، على الأرجح اثني عشر نوعاً. تُعرف مَهاة بياتريكس *Oryx Beatrix* عموماً بالنسبة للعرب ببقر الوحش أو الثور البرّي، لكنها تُدعى لدى العمانيين بوسولع

Boosohla، ولقد تمّ العثور عليها في معظم المناطق، ولكن يُقال إنها لا تقترب لأكثر من 50 ميلاً من ساحل البحر».



مَهَاة بوسكاون في غربي الرّبع الخالي

* * *

منذ ذلك الحين وحتى وقت رحلتي، كان يُقال إن المَهَاة تتواجد فقط في جنوبي جزيرة العرب، ويتناقل السّكان المحليون ذلك الخبر كما هو حال تجّار الحيوانات الأسيرة. لذا كان علينا الانتظار حتى عام 1924 للحصول على معلومات جديدة، ولغاية عام 1931 حتى رؤيت المَهَاة حيّة من قبل أول رَحّالة أوروبي. من الرّحالة المستكشفين المتأخرين للقفار الجنوبية حصلنا على قدر كبير من المعلومات عن عمليات صيد المَهَاة في تلك النّاحية. من كلّ من تشيزمان Cheesman، وتوماس

Thomas، وفيلبي Philby وبوسكاون Boscawen علمنا الآن أن موطن المَهَاة ينحصر في الجنوب كما هو الحال في الشمال، وأنَّ بيئتها آخذة بالانحسار.

رجال فيلبي أخبروه عام 1932 أنهم عندما يصلون إلى الصَّحراء «سيشبعون من أكل لحوم المَهَاة». في الواقع إنَّ إغراء المَهَاة واحتمال صيدها كان أحد الأوراق الرَّابحة بيد فيلبي عندما وجد صعوبة في إقناع رجاله بالمرور عبر ذلك الطريق المقفر من نايفة Naifa إلى الوطن.

ولكن ما كانت النتيجة؟ فخلال تسعين يوماً من التجوال في البرية لم يروا سوى مَهَاة واحدة، ولم تكن تلك المَهَاة سوى جيفة كانت قد لقيت حتفها جوعاً وجفَّ بدنُها من حرارة الشَّمس! تم العثور على هياكل عظمية وآثار مسارات وكذلك شوهد روث، ولكن لا فيلبي ولا من جاء معه من الصَّيادين استطاع التَّوصل إلى قنص فريسة. صحيح أنَّ الوقت لم يكن مواتياً ذلك العام، وأنَّ الرِّحلة كانت قد تمَّت تحت ضغط ظروف صعبة، كونها فترة جفاف طويل، وقد هاجرت جميع الحيوانات الصَّحراوية بسبب ذلك.

يقول: «مرة أخرى لا يوجد دليل على الحياة في أيِّ مكان، على الرِّغم من ملاحظتنا لروث المَهَاة في موقعين اثنين. كنا في وسط موطن المَهَاة، غير أن الصَّيادين كانوا قد فقدوا أيَّ مِيل لديهم للمطاردة. لقد كان من المدهش حقاً أنه خلال هذه الأسابيع الطَّويلة لم يتمكن أحد منا من إلقاء ولو نظرة خاطفة على المَهَاة، التي كنا نأمل بكل ثقة ملاقاتها بأعداد كبيرة. وحدَّثنا علي جهمان عن إمكانية الحصول على المياه في حالات الطَّوارئ بواسطة عصر أمعاء الحيوانات بعد إطلاق النَّار عليها».

في مناسبة أخرى، وعندما اقتربوا من نهاية رحلتهم الطَّويلة مع العطش، وبينما كانوا يقتربون من الحافة الشَّمالية للصَّحراء بالقرب من وادي الدَّواسِر Wadi Dawasir كتب فيلبي قائلاً: «كانت الأيام الماضية أفضل حين كنا نجد فضلات الإبل وجمر المعسكرات المهجورة المتناثر. إلى هنا، قال سالم Salim، كانت نادراً ما تصل المَهَاة... والآن قد غادرت جميعاً بحثاً عن الكلاء».

وربما نجدها في الشمال ولكن المنطقة هنا، كما ترى، جفّتها الأمطار منذ سنوات»⁽¹⁾.

* * *

روى تشيزمان Cheesman عام 1924 القصة نفسها، ولكن ذهب فيها إلى حدّ القول إن المَهْاة غادرت الجزء الشمالي من الصّحراء وإلى غير رجعة. يقول رجال قبيلة مُرّة Murra الذين يجوبون قفار الصّحراء الجنوبية بالقرب من المركز كباقي العرب، إن «المَهْاة كانت متوفرة وبكثرة في السّنوات الماضية في الصّحاري حول بيرين Jabrin في مواسم الأمطار الجيّدة، متتبعه النباتات النّامية. أما الآن فلا يمكن العثور عليها إلّا في جنوب الصّحراء الكبرى، وعلى الأخص بالقرب من نجران Najran».

أخذ برترام توماس⁽²⁾ Bertram Thomas هذا البيان محمل الجد، وفي عام 1930 وجد المَهْاة على الشّاطئ الجنوبي من الرّمال، علماً بأنه لم يحظ بملاقاتها خلال رحلته شمالاً خلال 400 ميل عبر الصّحراء. وأكّد فيلبي Philby لي ذلك مؤخراً بقوله أن حامية الملك (ابن سعود) ولدى عودتهم من حملة اليَمَن (1934) استمتعوا بصيد المَهْاة في الصّحراء الواقعة إلى الشّرق من نجران، وهي على ما يبدو ليست بعيدة جداً، ولكنها أصقاع رملية. كما أفلح بوسكاون Boscawen أيضاً في الآونة الأخيرة في اصطياد المَهْاة من قاعدة في حَضرموت العليا، ولكن الأمر استغرق منه بضع سنين من البحث، وتطلّب أيضاً سرعة مبادرة استثنائية من أجل تحقيق هذا الهدف.

(1) كتب المؤلف: في واقع الأمر، كان فيلبي يجد آثار المَهْاة من وقت لآخر على طول خط مروره جيئةً وذهاباً إلى الرّبع الخالي، وعلى الرّغم من عدم اجتماعه بأيّ منها، فقد كان هناك الكثير من الأدلة تظهر تجوالها في كامل الصّحراء الجنوبية في بعض السّنين.

(2) برترام توماس Bertram Thomas (1892-1950) إداري ورحالة بريطاني شهير، كان أول رحالة غربي يجتاز الرّبع الخالي في جزيرة العرب، وسجّل وقائع رحلاته بكتابه *Arabia Felix* (قيد النشر في سلسلتنا هذه). عُيّن بين 1922-1924 وزيراً للمالية لدى سلطان عُمان، وشغل هذا المنصب بين 1925-1932. قام بعدة حملات في الصّحراء، فتوجّه إلى ظُفار عام 1928 ثم اجتاز الرّبع الخالي بين 1930-1931.

كان أولئك السابقون لي، وأيّة جوقة غريبة كانوا يمثلونها! كانوا من جميع الجنسيات، من جميع الطبقات الاجتماعية، من كثير من المهن، منهم علماء وجواسيس ومستشرقون، مغامرون وشعراء ورجال سياسة! أصناف يبدو أن جزيرة العرب تجذبها بشكل غريب ولسبب مجهول.

وكما قال هوغارث Hogarth: «جميع المستكشفين لشبه جزيرة العرب كانوا يسعون إليها إما بدافع الفضول الخاص بهم، أو بدافع فضول أمراء وجمعيات أجنبية، فكانوا يصلون إلى جزيرة العرب إما على شكل حجّاج إلى الأماكن المقدسة، أو علماء آثار، معلّنين أسباب قدومهم أو متكرّرين لذلك، أو مارّين بتلك الأصقاع كمراقبين لمجتمعاتها الفعلية.

«ولكن سرعان ما سيتسائل القارئ عن الأسماء الكثيرة المشاركة بتلك الأعمال كما هي الحقيقة، ومن بينها قصص لرجال موهوبين بشكل يفوق العادة، مثل نيبور Niebuhr، زيتسن Seetzen، بوركهارت Burckhardt، فالين Wallin، برتون Burton، بالغريف Palgrave، هليفي Halevy، داوتي Doughty، بلنت Blunt، أوبير (هوبر) Huber، أويتنغ Euting، هورخرونيّه Hurgronje، غلازر Glaser - كانوا رجالاً ذوي عقول حصيفة لا يمكن أن يستهويهم مجرد حبّ المغامرة أو المخاطرة في الممنوع. إذن لماذا عرضوا أرواحهم للخطر في أرض عارية لا تستهوي أحداً، على وقع رتبة ممّلة في ظلّ عوامل طبيعية لا يمكنها إخفاء أيّ سرّ مثير وراءها؛ يسكنها أناس فقراء متشابهون؟

وبالمقارنة مع أصقاع أخرى، ما الذي شدّهم إلى جزيرة العرب؟ ومع ذلك فإنها لم تستهوهم هم فحسب! بل استهوت من وراءهم أيضاً».

* * *

الفصل الثامن

ملاحظات طبيعية عن المَهَاة العربية

التسميات

اسمه بقر الوحش، أي البقر البرّي، يسمّى الذكر بالثور أو ثور الوحش، والثور هو المذكر بينما البقرة هي الأنثى كما هو حالة الناقة بالنسبة لتسمية البدو لأنثى الإبل. ولكن، كما يقول داوتي فإن أصل اسم بقر الوحش سوري سوقي، أما الاسم العربي الصّافي فهو وضيحي *Wudhaihi* (لدى فيلبي) و *Wothyhi* (لدى داوتي) وهي كلمة قد اشتق جذرها من اللون الأبيض والبيضاء والتي تعني البقرة البيضاء. يستند داوتي في تحديد الاسم بناء على رواية محدّثيه، وهي أسماء تستخدم بين القبائل العربية عموماً بطول الصّحراء وعرضها. بينما تجد أن للقبائل الحدودية أسماء خاصة بهم للمَهَاة. على سبيل المثال ففي أقصى الجنوب الشرقي، في عُمان، يتفق الجميع على اسم محلي وهو بوسولع *Busola. Boosohla* (لدى مايلز) أو بن سولع (لدى كوكس)، بينما تدعى عادة في الشّمال الغربي من شبه جزيرة العرب بالمَهَا. ويقول أوير (هوبر) إنها تُدعى في شمال معان ببقر المَهَا، غير أنني لم أسمع هذا الاسم المركب من قبل. ويستخدم اسم المَهَا لدى الشّرارات *Shararat*.

بينما يدعى صغار المَهَاة كما يقول أوير (هوبر) عندما تكون في السّنة الأولى من عمرها وبغض النظر عن جنسها بالضّري⁽¹⁾ *Deray*.

(1) هذا في بعض لهجات شمالي جزيرة العرب، أمّا في العربيّة فاسمه: الغضيض أو الفراقد أو الطّلا.

عندما تم تعريف المَهَاة العربية للمرة لأول علمياً، أطلق عليها اسم «ظبي لوكوريكس» *leucoryx*، لأنه يبدو أنه حتى لو أن پالاس Pallas ذكر في عام 1769 ذلك القرن الغريب للغزال الهندي فلم يكن ليرتبط بالمَهَاة العربية بل بظبي لوكوريكس *leucoryx* عام 1777 بالتأكيد. وقد حافظ پنانت Pennant عام 1781 على الاسم نفسه فوصف ورسم المَهَاة العربية بشكل لا لبس فيه⁽¹⁾، ومرة أخرى في عام 1793 في كتابه «تاريخ ذوات الأربع». نقل شو Shaw عن پنانت Pennant وصفه للوكوريكس *leucoryx* أو الظبي ذي البياض الحليبي Milk White Antelope عام 1801. ولكن في عام 1827 أعطى ليختنشتاين Lichtenstein اسم *leucoryx* خطأً للمَهَاة ذات قرن كالسيف وهي مَهَاة السودان والصحاري الجنوبية، والتي كانت تدعى بالمَهَاة البيضاء رغم أنها ليست ببياض المَهَاة العربية. وعندما وصلت أول عيّنة أسيرة من جزيرة العرب إلى لندن اختير لها اسم جديد وهو بياتريكس *beatrix*.

مؤخراً في عام 1903، وضع أولدفيلد توماس Oldfield Thomas الأمور في نصابها من خلال إعادة تسمية المَهَاة ذات القرون الشبيهة بالسيف، وبالتالي استعاد *leucoryx* الحرّية مرة أخرى ليعاود انتقاله إلى حظيرة المَهَاة العربية البيضاء، وباتت معروفة عموماً الآن باسم بياتريكس أو المَهَاة العربية أو اللوكوريكس *leucoryx*.

(1) كتب المؤلف. اكتشاف پنانت لصورتين للمَهَاة العربية في المتحف البريطاني استدعى التعليق. كانت الصورة تُظهر بالألوان المائية اثنين من الحيوانات أحدهما واقفاً والآخر مستلقياً، قيل إنها رُسمت لحيوانات حية في حديقة المتعة الخاصة بالشاه سلطان حسين حيث كان يحتفظ باثنين من تلك الحيوانات النادرة. تم رسم تلك اللوحة بناء على طلب من السير جون لوك (وليس كيرك) وكيل شركة الهند الشرقية في أصفهان في 1702. وتلك الحيوانات هي الآن في مجموعة سلون. أعاد پنانت رسم أحد الحيوانين نقلاً عن تلك اللوحة في نسخة عام 1781 من كتابه «تاريخ ذوات الأربع»، ولكن في نسخة 1793 رسم صورة خيالية مستوحاة ربما من نفس الصورة ولكن كما أشار سكلاتر وتوماس فقد كانت أشبه ما تكون بالمَهَاة الأفريقية Beisa.

الحجم والشكل

المهارة العربية هي الأصغر حجماً من أبناء جنسها، وذلك أمر طبيعي، فالأراضي الفقيرة تمتاز بصغر حجم حيواناتها، والعكس صحيح فالأراضي الغنية في مراعيها الخصبة تنتج حيوانات ضخمة، لذا لا ترى ظبياً أفريقياً يعيش في منطقة قاحلة وعارية كما استطاعت بنات عمها العربية ذلك. يبلغ متوسط ارتفاع الحيوان المكتمل النمو أربعين إنشاً إلى الكتف، بما يعادل حجم حمار متوسط، بينما يبلغ إجمالي طوله من أرنبة أنفه إلى نهاية ذيله ستين إنشاً. وهو ذو بنية غريبة وخلافاً للحصان يشبه الوعل الأفريقي بسبب الحدبة على ظهره، على الرغم من ملاحظة داوتي «كان ارتفاعاً طفيفاً بالقرب من قاعدة رقبته وليس سناماً». يبدو حجم قائمته كبيرة على ساقه، وكالبقر تبدو حوافره كبيرة مدورة طولها 3,5 إنشات وعرضها 3,5 إنشات. بينما يصل طول شعر ظهرها ورقبتها من تسعة إلى عشرة إنشات بدءاً من ذنبها وصولاً إلى قرونها.

اللون

كما هو حال محيطها، فلون المهارة أبيض لَمَّاع ومع ذلك تجدها تفضحها في بعض الأحيان بسبب لونها اللامع كاللجين. أدهشتني تلك الخصوصية، فقد كنت قادراً على رؤية المهارة من مسافة بعيدة بيضاء على خلفية رمال الصحراء الحمراء والصفراء، ومع ذلك لم أستطع تمييزها في بعض الأحيان عندما تكون قريبة جداً. تستطيع تغيير لونها بسرعة وفقاً للعبة الضوء والظل، لا غرو أنه لا يمكن مشاهدة قطع المهارة عند تحرّكه، ففي لحظة تبدو واضحة وفي لحظة أخرى تختفي عن الأنظار. تبدو المهارة البالغة بيضاء صافية في معظمها وأرجلها بيّنة داكنة كالشوكولا، وأحياناً تميل إلى السواد تقريباً مع قوائم بيضاء. تتشح جوانبها بلون بني داكن على شكل خطوط في بعض الأحيان وتجد بعضها تخلو تماماً من ذلك. تمتاز مقدمة الوجه بلونها الأسود اللامع وكذلك الخدود لتلتقي سيّالة اللون الأسود القادمة من الوجه والخدود أسفل الحنجرة ولتمتدّ انحداراً إلى أسفل الصدر الذي يمتاز بلونه البني. الذيل أبيض باستثناء خصلة

سوداء في نهايته. يميل لون صغار المَهَاة إلى اللون الأصفر وبطن بني دون أي أثر للون الأسود أو البني ما عدا شعر الخصلة النّهائية للذيل. بعد السّنة الأولى تصبح المَهَاة الفتية بيضاء اللون، مع كل هذه العلامات التي تبدو باهتة على البالغة منها. لا يبدو هناك أي اختلاف في اللون بين المجموعات في الشّمال وفي الجنوب، على الرّغم من تسمية العينات التي أحضرها توماس Thomas مؤخراً من حافة الجزء الجنوبي للربع الخالي باسم latipes بناءً على قياس حوافرها.

القرون

ما إن يبلغ عمر المَهَاة ستة أشهر حتى يبلغ طول قرونها ثلاثة إنشات، وفي عمر العام تصل قرونها إلى 12 إنشاً. وتصل إلى 16 إنشاً في العامين. بينما تتراوح أطوال القرون لدى المَهَاة البالغة بين 20 و30 إنشاً. كما أن قرون أنثى المَهَاة أطول من قرون ذكورها. أما أطول قرون تم الحصول عليها فكانت 27,5 إنشاً وقطر 12,5 إنشاً. أما أطول قرون لمَهَاة قمت باصطيادها فكانت 27 إنشاً وبقطر 9,75 إنشاً والبُعد بين قرنيها عند القاعدة 5,5 إنشاً. وقد كانت أنثى. أما أطول قرون لثيران حصلت عليها فكانت 24 إنشاً و20 إنشاً على التوالي.

اختار فيلبي زوجاً من القرون من جنوب الصّحراء وكانت بطول 29 إنشاً، تم إنتزاعها من رأس أنثى مَهَاة كانت قد لقيت حتفها نتيجة الجوع على الأرجح. كانت عيّنة توماس الوحيدة أنثى مَهَاة بقرون يبلغ طولها 25 إنشاً! أما طول قرون ذكر المَهَاة الذي أحضره بوسكاون Boscawen من الزّاوية الجنوبية الغربية للرّبع الخالي فيبلغ 22,5 إنشاً وبقطر 6,5 إنشات.

وقرون المَهَاة ليست على استقامة واحدة بل كانت تنحني قليلاً بنحو 1-2 إنش إلى الوراء على مدى طول 28 إنشاً. ويقال إن «أقصر قرون الثيران تبدو كالقضبان».

الشخصية

تمتاز المَهْاة بشخصية غامضة وغريبة، فهي وحشية لدرجة مفرطة ومع ذلك تمتاز بسهولة الترويض. تجتهد في الابتعاد من المكان الذي ترى فيه إنساناً أو تنشق حتى ريحه، وقيل حتى إن لمحت آثاره. تمتاز بالحُمق أحياناً وأحياناً أخرى بالدهاء الذي يفوق ذكاء الإنسان غالباً.

تلد أنثى المَهْاة عادة في الشتاء، وتستطيع صغارها التنقل مع القطيع بعد مرور ساعات قليلة من ولادتها، فقطيع المَهْاة دائم الحركة كما هي حال جميع الحيوانات الصحراوية متبعاً المياه والكلاً أيضاً. ربما تكون حركة المَهْاة في الشمال أقل من تلك الموجودة في الجنوب، لأنه من غير المرجح أن يعاني الشمال من الجفاف الشديد كما هو حال الربع الخالي. علّمتنا تجربة فيلبي بهذا الشأن الكثير، بأنه لم يرَ أكثر من المَهْاة في أفضل مناطق الصيد التي يفضلها رجال القبائل المحلية. وجميعها ترحل طلباً للمرعى وقد غادرت منطقتها.

الطعام والشراب

المَهْاة غنيّة عن المياه، لكنها بحاجة إلى رطوبة ومن أجل ذلك تراها تتبع المراعي الرطبة ذات الأعشاب النضرة مثل النَّصي Nussi والسَّبَط Sabat وهي غذائها المفضل دون شك، بينما تفضل صغارها شجيرات الطّرفاء tamarisk والمنخفضة التي لا ساق لها Shrubs والتي تبحث صغار المَهْاة عنها في الربيع.

والمرغوبة أكثر هي تلك النباتات الطفيلية الغنية بشكل غريب بالسوائل والتي تنمو على جذور الشجيرات الصحراوية، وخاصة الطّرفاء tamarisk والغضا ghadha. وهناك نوعان: الأحمر *Cynomonium coccineum* و *Tal'thuth* والأصفر *Phelipea lutea*. تنمو هذه الطفيليات ليلغ طولها بقدر 18-24 إنشاً، وهي مليئة بالعُصارة السائلة لا سيّما الجزء الأكبر منها المغطى بالرّمال. تقوم المَهْاة بحفر الرّمال للحصول على أفضل جزء منها والغني بالعصارات. وإلى جانب ذلك، هناك العديد

من النباتات البصلية وغيرها من النباتات الدرنية التي تزود المَهَاة المنقطعة عن الشرب بالرطوبة التي تلزمها.

وفيما يتعلق بمصطلح «المنقطعة عن الشرب» فهو بحاجة إلى بعض التفسير. من الواضح وإلى حد بعيد أنّ المَهَاة، وكذلك جميع الحيوانات التي تتخذ من المناطق الصحراوية القاحلة موئلاً لها، ينبغي أن تكون قادرة على التحمل دون شرب مياه حقيقية وإلى أجل غير محدد. ففي أيّ حال من الأحوال ليس هناك أي احتمال لوجود مياه سطحية مثل برك الأمطار المتجمعة في الصخور المجوّفة لأكثر من بضعة أشهر في السنة، وفي كثير من الأحيان حتى هذه الفرصة تكون معدومة. لذا، يمكن القول إن بمقدور المَهَاة الاستغناء تماماً عن الماء إلا أنها سوف تشرب إذا ما أتيحت لها الفرصة للقيام بذلك. غير أن المَهَاة غير قادرة على الاستغناء عن الرطوبة، فتراها دائمة الحركة والبحث عن هذه النباتات المتنوعة الغنية إلى درجة أنها تسعى وراء الندى. وهذا الأمر ينطبق على العديد من الطيور والحيوانات الصحراوية الأخرى.

فالنّعام معروفة بأنها لا تشرب الماء، وكذلك الأمر مع الغزال والظبي ووعل التلال الصحراوية الذي يعيش في ظل نفس الظروف التي تعيشها المَهَاة. وقد روى أحد رجال قبائل عِنزَة Anaza لفيلبي عن «المَهَاة التي كان يعرفها جيداً، أنها لا تشرب الماء حتى عندما تمطر» فتكوينها «جازي» Jazi (تستعوض بالرطوبة في المراعي دون مورد شرب فعلي) على مدار السنة، مثل غزال الصحراء. وحتى الإبل فإنّ بمقدورها تحمل الصبر على العطش لمدة شهرين أو أكثر، عندما يكون الغطاء النباتي جيداً في الربيع.

والرّمال هي ملجأ المَهَاة لأكثر من سبب واحد، فبالإضافة إلى كونها واسعة ومنطقة ملاذ آمنة وغير آهلة بالإنسان، فهي أيضاً المصدر الرئيسي لإمدادها بالغذاء والرطوبة التي تحتاجها. فالرّمال تحافظ على الرطوبة بطريقة رائعة وإلى أجل غير مسمى تقريباً. وقد كان داوتي محقّقاً في ملاحظته: «لو أن الصحراء زُرعت بنبات الطّرفاء tamarisks لأضحت جزيرة العرب غابة خضراء!». ولاحظ أوبير (هوبر) أيضاً أن الشّجيرات الصغيرة التي لا يزيد ارتفاعها عن القدمين في السّهوب تنمو لتصل إلى 9-12 قدماً

في الكثبان الرملية. جميع النباتات التي تنمو في الكثبان يبدو أنها تستفيد من الرطوبة في الأعماق، والمزيتة التي تجمعها أنها في الغالب من النباتات التي تفرز عصارات طبيعية. هنالك، على سبيل المثال، نبات «الأدر» الذي يمكن حتى للخراف (وهي حيوانات غير صحراوية) أن تتغذى عليه لمدة شهر دون أن تحتاج إلى مياه.

العادات

تستخدم المَهَاة حوافرها المفلطة العريضة في الحفر بحثاً عن أطايب طعامها التي تنمو تحت الرمال، كما أنها تستخدمها أيضاً لتحفر عميقاً في الرمال على شكل سُرر أو مقاعد لتختبئ بها مثل الأرانب البرية. لا ريب أن رغبتها في الحصول على سرير بارد بعد إزاحة الطبقة الساخنة العليا من الرمل يحلّ في المقام الأول، ولكنني أعتقد أنها تستغلّ هذه العادة بشكل مزدوج للحماية فضلاً عن الراحة. فقد كانت مَهَاة بيلهافن Belhaven المروضة التي أحضرها إلى الخليج من الرياض، لا تستطيع كبح جماح عاداتها المتأصلة فيها، ففي كل مساء ولدى وصولها إلى المخيم بعد مسيرة يوم كامل، كانت تشرع في حفر سرير في الرمال، وكان سريرها من العمق بمكان بحيث لا يظهر منه سوى رأسها عندما تستلقي فيه!

وبطبيعة الحال هذه عادة مشتركة بين جميع الحيوانات الصحراوية. فالغزال يفتش عن مكان في ظل شجيرة لتحمية من حرّ الهجير في الظهيرة، والأرانب البرية تكشط السطح الساخن من الرمل للحصول مكان بارد، وحتى الكلاب المحلية السلوقية العربية تفعل الشيء ذاته قبل الاستلقاء للراحة. غير أنّ المَهَاة أتقنت فن صنع السرير في الصحراء إلى درجة غير عادية، وقد تكون هذه العادة هي سبب تسميتها بهذا الاسم. إن المَهَاة على حدّ تعبير كيرخمير Kirchmayer سمّيت كذلك بسبب قوتها في الحفر، إما رغبة منها بالحصول على السكينة وعدم الإزعاج أو بسبب طبيعتها الشرسة، كالخنزير الذي يحفر الأرض ليس برأسه ولا بفمه وإنما بقدميه.



تخور المَهَاة كالبقرة، وفي الأسر تصبح مستأنسة بقدر ما يحمل اسمها من أنس. ولا تظهر منها ضراوتها سوى إن جُرحت أو حوصرت، وربما في حالة الدّفاع عن صغارها عندما تتعرّض لهجوم وحش مفترس. أما سرعتها وقوتها غير الطبيعية فيمكن تقديرها في ظل وجودها في ظروف غير طبيعية. لو أنّ المَهَاة توطنت في السّهوب المفتوحة لكانت أبعدت منذ زمن، لسهولة قتلها في المناطق المكشوفة، ولكن لحسن حظها تجد في الرّمال خلاصها، فالبيئة التي يمكنها التحرك بها بحرية كبيرة يفشل الرّجال في اجتيازها بسهولة. غير أن جودة لحومها وقيمة جلودها التي يصعب اختراقها، تستحق من الرّجل البدوي الجهد.

يعتبر لحم المَهَاة من أفضل لحوم الغزلان. ذكر فيليبي في مذكراته أن لحم المَهَاة المقدد والمجفف تحت أشعة الشّمس يساوي 10 أو 12 جنيهًا استرلينيًا في مواسم القحط بالنسبة لسكان الواحات في وادي الدّواسر Wadi Dawasir، الذين لا يعتبرون اللحم الطّازج أو المقدّد من غذائهم اليومي. أما جلود المَهَاة التي يقول أوبير (هوبر) عنها إنها متينة لدرجة يصعب اختراق رصاص البندقية لها، فهي تستخدم لصناعة أفضل الصّنادل وقرب المياه. كما أن له استخدامات ومزايا أخرى بالنسبة للعرب. أما حيازة قرن أحد تلك الطّباء أو حتى جزء منه فهو بمثابة حِرز ضد الوحوش المفترسة، في حين أن رائحة قرن محروق يبعد الثعابين السّامة.

ويقال إن دم المَهَاة يستخدم ترياقاً للدغة الثعابين، ودماعها علاجٌ نافع للشلل. وقد لاحظتُ أن الصّياد المرافق لي كان يعمل على مسح عقب بندقيته (بدماع وشعر المَهَاة المقتولة حديثاً) وقال لي إن ذلك «يجلب الحظ»، ولكن قد يكون الأمر أبعد من ذلك أيضاً. ويُستعمل مطحون قرن المَهَاة المحروق بعد خلطه بالطعام لعلاج الملاريا، وإن تم مزجه بالشراب كان نافعاً للباه ومنشطاً عاماً.

تنقسم المَهَاة في يومنا هذا إلى شطرين اثنين: الشّمالي والجنوبي. هذان الشّطران معزولان تماماً ويعيشان على بُعد بضعة مئات من الأميال تقدّر بسبعمئة ميل بعيداً بعضهما عن بعض، محتفظين بملجأيهما الرّمليين أحدهما في شمالي النّفود والآخر في جنوب الرّبع الخالي. كان هذان الشّطران يشتركان في منطقة على طول حزام الدّهناء Dahana الرّملي، ولكن من غير المرجّح أن تكون ماتزال تجوب تلك المناطق حتى الآن. أما نطاق تحرّك المجموعة الشّمالية فهو معروف جيداً، ولكن هناك قدراً كبيراً من التخمين حول ذلك في الجنوب لأن معرفتنا بتلك المنطقة ما زالت ناقصة، ولذلك فقد قمّت بحساب أوسع نطاق حدود قد تتجاوزها في ظل الظروف القاسية.

في الشّمال، تركّزت المَهَاة حول الجانب الغربي من النّفود بين الجوف وتيماء، غير أنها بطبيعة الحال لم تقترب من أيّ من تلك الواحات. تحدّد التلال المطلة على سكة الحجاز الحديدية من الشرق الحدود الغربية للمَهَاة. كما أنها لا تبتعد أكثر من جبل طَبِيق شمالاً وأبعد من تيماء جنوباً. لا يوجد للمَهَاة آثار في جبل شَمَر، ولم يسجّل أن رؤيت في الحافة الجنوبية للنّفود بين تيماء وحائل. وسُجلت مشاهدتها لمرة واحدة في النّصف الشرقي من النّفود، ولكن من مصدر غير موثوق تماماً.

ومن المشكوك فيه أن تتواجد في الحزام الرّملي للدّهناء Dahana، أو أيّ من الأحزمة الرّملية الأخرى في وسط جزيرة العرب. بينما تعتبر القفار الرّملية الجنوبية الشّاسعة الواقعة من نجران إلى عُمان أهمّ وربما آخر معاقلها. فلدينا سجلات تؤكد تواجدها بدءاً من الجانب الجنوبي للصحراء في كل من شمالي حضرموت وفي المناطق النّائية لظفار Dhufar، كما نعلم أنها تتحرك في إطار ظروف معيّنة في كامل منطقة الرّمال الرّئيسية للربع الخالي إلى الغرب من خط الطّول 52 درجة. عثر فيلبي Philby على آثارها في كل مكان، وبالإضافة إلى ذلك جمع الكثير من المعلومات من مصادر طبيعية يُعتدّ بها. أقول «في إطار ظروف معيّنة» لأنه في وقت زيارة فيلبي تقاطعت جميع قطعان المَهَاة المهاجرة في تلك المنطقة الواسعة مع رحلته من يبرين

عبر الرّبع الخالي وإلى الخلف من وادي الدّواسر، فنظرا لفترات الجفاف الطّويلة، عملت على مغادرة المنطقة.

ربما كانت قد انتقلت آنذاك إلى منطقة نجران. ولكن عموماً، يمكن القول إن كامل الشّق الغربي من الرّبع الخالي هو موطن المَهّاة في الظروف العادية. وليست لدينا معلومات حديثة تؤكد مدى تقدمها شرقاً باتجاه عُمان.

بينما يظهر الفارق الرّئيسي بين الموطنين في التباين في ارتفاعهما عن مستوى سطح البحر. جنوباً، وعلى ارتفاع ألف قدم فوق مستوى سطح البحر، تمّ العثور على المَهّاة، بينما شمالاً لم يؤكّد تواجد المَهّاة سوى على ارتفاع 2500 قدم. كما أن هناك فارقاً آخر ألا وهو طبيعة الأرض التي تتردّد عليها المَهّاة، إذ تبين الصّورة في كتابنا هذا والتي كان قد التقطها بوسكاون Boscawen الصّحراء القاحلة التي وجدَ فيها المَهّاة، بينما تُظهر الصّورة في الصّفحة المقابلة غطاءً نباتياً كثيفاً نسبياً في قاع الوادي في موطنها الشّمالي. هذا بينما وجدها توماس في بلد شجيرات الطّرفاء من وادي غدون Ghudun وعلى ارتفاع منخفض لا يتجاوز 1200 قدم.

* * *

قائمة بالمرجعيّات العلميّة

AUTHORITIES

- | | |
|------------------------------------|---------------------------------|
| AYLMER, CAPT. L. | HAMILTON, COL. R.E.A. |
| BELL, GERTRUDE LOWTHIAN | (Now Lord Belhaven and Stenton) |
| BENT, J. T. | HOLT, MAJOR A. L. |
| BLAINE, G. | HOGARTH, D. G. |
| BLUNT, SIR W. S., and
LADY ANNE | HUBER, CHARLES |
| BOSCAWEN, COL. THE HON.
M. T. | HUBRIGIUS, J. F. |
| BURCKHARDT, J. L. | HURGRONJE, J. S. |
| BURKE, COMMANDER | IRWIN, EYLES |
| BURTON, SIR RICHARD F. | JAUSSEN, PÈRE |
| BUTLER, CAPT. S. S. | JEFFREYS, J. GWYN |
| CARTWRIGHT, JOHN | JOYCE, COL. P. C. |
| CHEESMAN, MAJOR R. E. | KIRCHMAYER, G. C. |
| CHESNEY, GENERAL F. R. | LAWRENCE, COL. T. E. |
| COOTE, GENERAL SIR EYRE | LEACHMAN, COL. G. E. |
| COX, MAJOR-GENERAL SIR
P. Z. | LYDEKKER, R. |
| CUNLIFFE-OWEN, COL. F. | MEISSNER PASHA |
| DELLA VALLE, PIETRO | MILES, COL. S. B. |
| DOUGHTY, C. M. | MUSIL, ALOIS |
| DUSSAUD, R. | NOLDE, EDWARD |
| ELDRED, JOHN | OLIVIER, G. A. |
| EUTING, JULIUS | ORMSBY, LIEUT. H. A. |
| FOSTER, SIR WILLIAM | PALLAS, P. S. |
| GOLDSMID, E. | PALGRAVE, W. G. |
| GRAY, DR. J. E. | PARSONS, ABRAHAM |
| GUARMANI, CARLO | PENNANT, THOMAS |
| | PELLEY, COL. LEWIS |
| | PHILBY, H. ST. J. B. |

AUTHORITIES

PLAISTED, BARTHOLOMEW	TAYLOR, MAJOR JOHN
PRATER, S. H.	TEIXEIRA, PEDRO
RALLI, A.	TENREIRO, ANTONIO
RASWAN, C.	THOMAS, BERTRAM
RUTTER, ELDON	THOMAS, O.
SAVIGNAC, PÈRE	TRISTRAM, CANON H. B.
SCLATER, P. L.	VARTHEMA, LUDOVICO DI
SEETZEN, U. J.	WALLIN, G. A.
SHAKESPEAR, CAPT. W. H. I.	WELLSTED, J. R.
SHEPARD, ODELL	WOLF, JOSEPH
SHEPHERD, JOHN	VINCENZO MARIA
ST. JOHN, MAJOR O. B. C.	

ثبت المراجع

BIBLIOGRAPHY

Georg. J.—Geographical Journal.

P.R.G.S. —Proceedings of the Royal Geographical Society.

J.R.G.S. —Journal of the Royal Geographical Society.

P.Z.S. —Proceedings of the Zoological Society.

AYLMER, CAPT. L. *Baghdad to Damascus via El Jauf, Northern Arabia.* Georg. J., May, 1909.

BELL, G. L. *Gertrude Bell's Journey to Hayil.* D. G. Hogarth.
Georg. J., July, 1927.
The Letters of Gertrude Bell. 2 Vols. London, 1927.

BENT, J. T. *Southern Arabia.* London, 1900.

BLUNT, LADY ANNE. *A Pilgrimage to Nejd.* 2 Vols.
London, 1881.

BURCKHARDT, J. L. *Travels in Syria and the Holy Land.*
London, 1822.
Notes on the Bedouins and Wahabys. 2 Vols. London,
1831.

BURKE, COMMANDER. See P.Z.S. 1878, p. 789.

BURTON, SIR RICHARD F. *A Plain and Literal Translation
of The Arabian Nights Entertainments.* 1885.
See also Hakluyt Soc. Publ. No. 32. 1863-4. p. 46,
footnote.

BUTLER, CAPT. S. S. *Baghdad to Damascus via El Jauf,
Northern Arabia.* Georg. J., May, 1909.

CARRUTHERS, D. *A Journey in North Western Arabia.*
Georg. J., March, 1910.
On Birds from the Dead Sea and North West Arabia, etc.
The Ibis, July, 1910, pp. 475-491.

BIBLIOGRAPHY

- The Great Desert Caravan Route, Aleppo to Basra.*
Georg. J., September, 1918.
- Capt. Shakespear's Last Journey.* Georg. J., May and June, 1922.
- The Arabian Ostrich.* *The Ibis*, July, 1922, pp. 471-4.
- The Desert Route to India.* Hakluyt Soc. Publ. Ser. II. Vol. LXIII. 1929.
- CARTWRIGHT J. *The Preachers Travels, etc.* London, 1611.
See also, *Purchas, His Pilgrimes* (MacLehose Ed.), Vol. VIII., pp. 482-523.
- CHEESMAN, MAJOR R. E. *Recent Notes on the Arabian Ostrich.* *The Ibis*. April, 1923, pp. 208-11.
In Unknown Arabia. London, 1926.
- CHESNEY, GENERAL F. R. *The Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris in 1835-37.* 4 Vols. London, 1850.
Narrative of the Euphrates Expedition. London, 1868.
- COOTE, GENERAL SIR EYRE. *Diary of a Journey from Bussora to Aleppo in 1780 (1771).* J.R.G.S. Vol. XXX. 1860, pp. 198-211.
- COX, MAJOR-GENERAL SIR P. Z. *Some Excursions in Oman.* Georg. J., September, 1925, p.193.
- DELLA VALLE, PIETRO. *The Travels of—, into East India and Arabia Deserta, etc.* London, 1665. Letter XI.
- DOUGHTY, C. M. *Travels in North West Arabia and Nejd.* P.R.G.S. July, 1884, p. 382.
Travels in Arabia Deserta. 2 Vols. Cambridge, 1888.
The Life of Charles M. Doughty. See HOGARTH.
- ELDRED, J. See *Hakluyt's Voyages.* (MacLehose Ed.). Vol. VI., pp. 1-9.
- EUTING, J. *Tagbuch Einer Reise in Inner-Arabien.* 2 Vols. Leyden, 1896 and 1914.
- GOLDSMID, E. M. *Un-natural History, or Myths of Ancient Science,* for translation of Kirchmayer's reprint of Hubrigius' *De Monocerote Seu Unicorn.*

BIBLIOGRAPHY

- GRAY, DR. J. E. *Description of a New Species of Antelope (Oryx beatrix) from Bombay (?)*, lately living in the Menagerie of the Society. P.Z.S. 1857, Part XXV., pp. 157-8.
- GUARMANI, C. *Il Neged Septentrionale. Itinerario da Gerusalemme a Aneizeh nel Cassim.* Jerusalem, 1866.
- HOGARTH, D. G. *The Penetration of Arabia.* London, 1905.
Problems in Exploration. Georg. J., December, 1908.
Gertrude Bell's Journey to Hayil. Georg. J., July, 1927.
The Life of Charles M. Doughty. Oxford, 1928.
- HOLT, MAJOR A. L. *The Future of the North Arabian Desert.* Georg. J., October, 1923. See also, *The Ibis*, April, 1923, p. 210.
- HUBER, C. *Voyage dans L'Arabie Centrale.* Bulletin de la Société de Géographie, VII^{ME} Serie, Vol. 5, pp. 304, 468; Vol. 6, p. 92.
Journal d'un Voyage en Arabie (1883-1884). Paris, 1891.
- HUBRIGIUS, J. F. *De Monocerote Seu Unicorn.* Wittenburg, 1660.
- HURGRONJE, J. S. *Mekka.* Hague, 1888.
 See also, *Christians at Mecca.* A. Ralli. London, 1909. Chap. XIX.
- IRWIN, E. *A Series of Adventures, etc., and of a Route through the Deserts of Arabia, by Aleppo, Baghdad and the Tigris to Busrah in 1780 and 1781.* In *Letters to a Lady.* 2 Vols. London, 1787.
- JAUSSEN, PÈRE, and PÈRE SAVIGNAC. *Mission Archéologique en Arabie.* Vol. II. Paris, 1914.
- JOYCE, COL. P. C. See, *The Ibis*, April, 1923, p. 210.
- KINNEAR, N. B. *Notes on the Animals of Mesopotamia.* Bombay Natural History Soc. 1916.
- KIRCHMAYER, G. C. See under GOLDSMID.
- LAWRENCE, T. E. *Seven Pillars of Wisdom.* Chaps. 42-44. *Revolt in the Desert.* London, 1927. Chap. VIII.
 See also, the "so-called Oxford Edition," produced (in proof only) in double column in 1922. Chap. 46.

BIBLIOGRAPHY

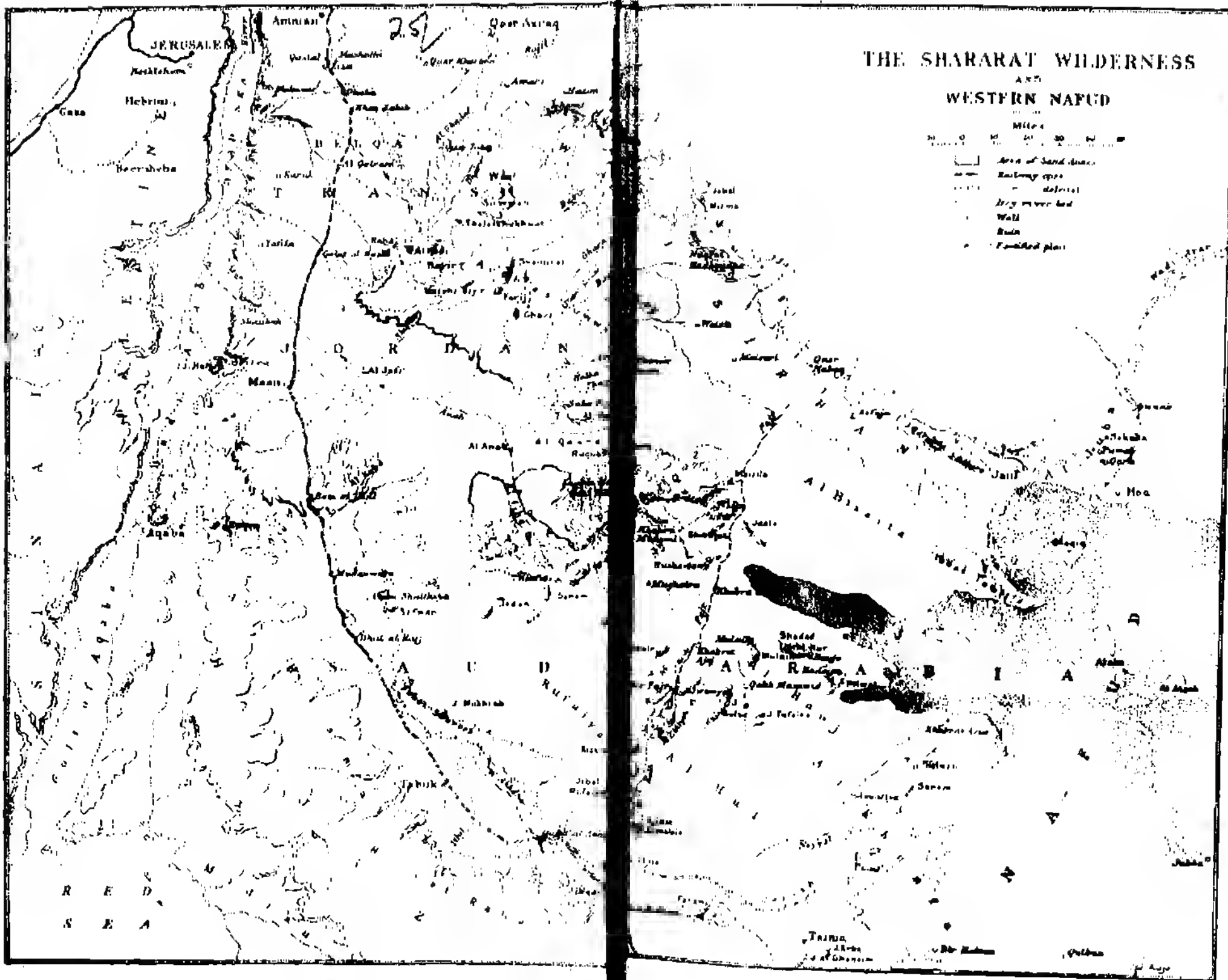
- LYDEKKER, R., and BLAINE, G. *Catalogue of the Ungulate Mammals in the British Museum (Natural History)*. London, 1914. Vol. III., pp. 129-130.
- LEACHMAN, COL. G. E. *A Journey in North-Eastern Arabia*. Geogr. J., March, 1911.
A Journey through Central Arabia. Geogr. J., May, 1914.
- MILES, COL. S. B. *Journal of an Excursion in Oman*. Geogr. J., May, 1896.
Across the Green Mountains of Oman. Geogr. J., November, 1901.
On the Borders of the Great Desert. Geogr. J., August and October, 1910.
See also, P.Z.S., 1881, p. 819.
- MUSIL, A. *American Geographical Society Publication. Oriental Exploration and Studies, No. 2, Arabia Deserta*. New York, 1927.
In the Arabian Desert. London, 1931.
- NOLDE, E. *Reise nach Inner Arabien, etc.* Brunswick, 1895.
- OLIVER, G. A. *Voyage dans l'Empire Ottoman, L'Egypte et la Perse*. 3 Vols. Paris, 1801.
- ORMESBY, LIEUT. H. A. *Narrative of a Journey across the Syrian Desert*. Trans. Bombay Geogr. Soc. 1838-40. Part IV., p. 18.
- PALLAS, P. S. *Novi Commentarii Academicæ Scientiarum Imperialis Petropolitaneæ*. Vol. XIII., p. 470, pl. 8, fig. 5, 1769.
Spicilegia Zoologica. Fascie XII., p. 17, 1777.
- PALGRAVE, W. G. *Narrative of a Year's Journey through Central and Eastern Arabia*. London, 1865.
- PARSONS, A. *Travels in Asia and Africa, etc.* Edited by John Paine Berjew. London, 1808.
- PENNANT, T. *History of Quadrupeds*. London, 1781. Vol. I., p. 68.
Also, 3rd Edition, 1793, p. 76.
- PELLY, COL. L. *A Visit to the Wahabee Capitol. Central Arabia*. J.R.G.S. 1865. Vol. XXV., p. 169.
See also, P.Z.S. 1864-5, p. 295, and 1872, p. 603.

BIBLIOGRAPHY

- PHILBY, H. ST. J. B. *The Heart of Arabia*. 2 Vols. London, 1922.
Jauf and the North Arabian Desert. Geogr. J., October, 1923.
Arabia of the Wahhabis. London, 1928.
The Empty Quarter. London, 1933.
- PLAISTED, B. *A Journey from Calcutta in Bengal, by Sea, to Busserah; From thence across the Great Desert to Aleppo, etc.* London, 1757.
- POCOCK, R. I. *The Mammals collected in S.E. Arabia by Mr. Bertram Thomas and Mr. H. St. J. Philby*. Annals and Magazine of Natural History, Ser. 10, Vol. XV., p.441. April, 1935.
- PRATER, S. H. *The Arabian Ostrich*. Journal of the Bombay Natural History Soc. March, 1921, pp. 602-605.
- RALLI, A. *Christians at Mecca*. London, 1909.
- RASWAN, C. *Black Tents of Arabia*. London, 1935.
- RUTTER, E. *A Journey to Hail*. Geogr. J., October, 1932.
- SAVIGNAC, PÈRE. See JAUSSEN.
- SCLATER AND THOMAS. *Book of Antelopes*. Vol. IV., p. 51, pl. XXXI., 1899.
- SCLATER, P. L. P.Z.S., 1872, p. 603.
- SEETZEN, U. J. *Reisen durch Syrien, etc.* Berlin, 1854.
See also, Penetration of Arabia. D. G. Hogarth, pp. 157-8.
- SHAKESPEAR, CAPT. W. H. I. *Capt. Shakespear's Last Journey*. Geogr. J., May and June, 1922.
- SHEPARD, O. *The Lure of the Unicorn*. London, 1930.
- ST. JOHN, MAJOR O. B. C. *Note on the Locality of Oryx Beatrix*. P.Z.S., 1874, p. 95.
- TAYLOR, MAJOR J. *Travels from England to India in 1789, etc.* London, 1799.
- TEIXEIRA, PEDRO. *Travels of—*. Hakluyt Soc. Publ. Ser. II., No. IX., 1902.

BIBLIOGRAPHY

- TENREIRO, ANTONIO. *Itinerario*. Lisbon, 1560.
See also, Peregrinacio. Mendez Pinto. 1725 Edition.
- THOMAS, B. *Arabia Felix*. London, 1932.
- THOMAS, OLDFIELD. *On Some Specimens of Mammals from Oman*. P.Z.S., 1894, pp. 448-455. *See also*, 1903, Vol. I., p. 300.
- TOWNSEND, MEREDITH. *Asia and Europe*. London, 1901.
- TRISTRAM, CANON H. B. *The Land of Moab*. London, 1873.
The Survey of Western Palestine. The Fauna and Flora of Palestine. Published by the Committee of the Palestine Exploration Fund. London, 1884.
- VARTHEMA, LUDOVICO DI. *The Travels of—*. Hakluyt Soc. Publ. No. 32, 1863-4.
- WALLIN, G. A. *Narrative of a Journey from Cairo to Medina and Mecca, etc., in 1845*. J.R.G.S. Vol. XXIV., 1854, pp. 115-207.
Notes taken on a Journey through Part of Northern Arabia in 1848. J.R.G.S. Vol. XX., 1850, p. 293.
- WELLSTED, J. R. *Travels in Arabia*. 2 Vols. London, 1838.
Travels to the City of the Caliphs, etc. 2 Vols. London, 1840.
- VICENZO MARIA, P. F. *Viaggio all' Indie Orientali*. Roma, 1672.



خريطة 1: قفار قبيلة الشارات



خريطة 2: خريطة عامة لجزيرة العرب

لائحة بالرّسوم التوضيحية

وادي رَمّ العظيم

قفار الشرارت

جبل طُبيق

بنو سام

مع بني صخر

خيمة حثمل الكبيرة

رُعاة قبيلة بني صخر

ذلائل وفلائها

القبيلة المرتحلة

بادية أرض الصّوّان

صيد الآشوريين للنعام

الجبال المسطحة

كالقواطع الناتئة بخاصرة صخرة ساحلية

الجمال المزينة بالسّرائد الطويلة والجلود المدبوغة الحمراء

خيامهم كانت خرقاً ممزقة

يملاؤن المياه في قرب جلدية
الفطر العملاق
هوادج مزينة رائعة
دور في تيماء
حجر تيماء
في واحة تيماء
رجل تيماني
الشّارات يستقون في بئر مُغيرا
النّفود الكبير
أجمة الغضا
على الكتبان الرّملية العالية
البسّطاء الخاوية
الجائزة
الكشافة
النّعام العربي
هدية ملكية
بقر بوسكاون في غربي الرّبع الخالي

الخرائط

قفار الشّارات

خريطة عامة لجزيرة العرب

المحتويات

5	سلسلة رواد المشرق العربي.....
7	هذا الكتاب
11	مؤلفات دوغلاس كاروثرز.....
13	نقاط حول الترجمة
19	تمهيد.....
23	ملحوظة
27	الافتتاحية
37	الفصل الأول بداية متعثرة تبوك.....
49	الفصل الثاني البداية.....
71	الفصل الثالث الانطلاق إلى تيماء.....
103	الفصل الرابع تيماء.....
129	الفصل الخامس صحراء النفود الكبرى.....
143	الفصل السادس السباق إلى الوطن
153	الفصل السابع استرجاع الماضي
185	الفصل الثامن ملاحظات طبيعية عن المهة العربية.....
195	قائمة بالمرجعيات العلميّة.....
197	ثبت المراجع
205	لائحة بالرّسوم التوضيحية
207	الخرائط.....

مغامرة في جزيرة العرب

عبر صحراء النفود، بحثاً عن الوضيحي

بين أيدينا اليوم كتابٌ ممتع وشائق وثمانين، يروي وقائع رحلة استكشافية جريئة بأكناف صحراء النفود في شمالي جزيرة العرب، لمغامر بريطاني لم يسمع به أكثر مثقفينا وباحثينا، هو دوغلاس كاروثرز.

نترك القارئ الكريم مع نصّ هذه المغامرة الشائقة في مفاوز صحراء النفود بحثاً عن «أسطورة المها» التي حيرت الباحثين وعلماء الطبيعيات ردحاً طويلاً من الزمن، حتى حلّ مغاليقها دوغلاس كاروثرز في رحلته من دمشق إلى النفود عام 1909، ونرى كيف أنّ هذا الرحالة الرائد قد جمع ما بين العزيمة والإصرار على مواجهة المخاطر والصعاب، والتمكّن من أدوات البحث العلمي على أصولها.

السعر 55 درهماً



إصدارات
esdarat

دار الكتب الوطنية



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY